

عبد الله بن محمد خلدون

أُومِنْ بِالْإِنْسَانِ !

هَافٍ مِنْ سُبُحاتِ الْفكرِ وَعَمارةِ الضَّميرِ
بِبناءِ الحضارةِ وَالسَّلامِ الْعالمِي على عَقيدةِ
يُوحِىها السُّؤْلُ في أَسرارِ الإنسانِ تَحْتَ
ضَغْطِ ما أَصابَهُ مِنْ قانِعِ الطُغْيانِ وَالسَّجَنِ
وَالزُّنْجِ السَّالِتي جَلَبَها عَلَيْهِ كُفْرُهُ بِالْإِنْسَانِ
الْوَاحِدَةِ إِذا رَأَى الطَّبِيعَةَ الْوَاحِدَةَ

نحرأساس روصى للمحضارة المادية

سلسلة ذات خمس حلقات يحاول بها المؤلف أداء واجب من واجبات الفكر الإسلامى الحديث فى التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية المنشودة

- ١ - أومن بالإنسانه !
(تحت الطبع)
- ٢ - العقل المؤممه !
أو
الدين من طريق الفكر
بحوث حرة فى أصول الإيمان ودعوة عصرية إلى تجديده
(تحت الطبع)
- ٣ - الحياة صادقة !
أو
زعة التفاؤل
دعوة إلى الاستعلاء على الآلام ، وإلى تعرف وجهات الحياة والإقبال عليها ، وعلى العمل الشمر والكفاح الصابر
(تحت الطبع)
- ٤ - صلوات فكر فى محارب الطبيعة !
تأملات فلسفية وخطرات وجدانية ترجع الإنسان الشارد إلى أحضان الطبيعة وتوقظ فكره إلى أعاجيبها والتأمل من جمالها والتعبد لبارئها
(تحت الطبع)
- ٥ - محمد يرجع !
أو
نهضة الروح الإسلامى الحديث لمشاركة الروح المسيحى والروح اليهودى إقامة الحضارة المنشودة

الفهرس

میں نے

تقديم لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا هـ
الإهداء ز
إتتهال ورجاء وتعريف ح

۱- تہید

أطرحها قضية

٢ - في موازين الحس والفكر والضمير

٢٠	...	...	...	...	...	...	...	...	عقدة الثمرة من هذا الكتاب
٢٢	...	...	...	...	...	...	...	...	نظرة المفارق لنفسه ونوعه
٣٢	...	...	...	...	...	...	...	...	استعراض وتفصيل
٤٣	...	...	...	...	...	...	...	...	فوق الموازنة
٥١	...	...	...	...	...	...	...	...	في معترك الآراء
٦٦	...	...	...	...	...	...	...	...	مسرح هائل وممثل واحد
٧٥	...	...	...	...	...	...	...	...	الانتظار
٨٣	...	..	...	...	...	...	...	...	منابع الفكر ومصائبه
٩٤	...	...	...	...	...	...	...	...	أدراك الثمار وآن القطف
١٠٢	...	...	...	...	...	...	...	...	حيث الأنس بالإنسان
١١٥	...	...	...	...	...	...	...	...	الضمير ووصايته على الحياة
١٢٦	...	..	...	...	...	...	...	...	التحرر من التاريخ

٣ - في أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

١٤٠	 — عقيدة الجنس
١٤٦	 النقص والتكامل
١٥٨	 الواحد
١٦٦	 الأولوة والصدقة
١٦٩	 الفكر والسلطة

صفحة

[illegible]

٤ - نحو أساس روحي للحضارة المادية

٢١١	...	...	...	...	...	...	...	...	...	...	بين الوعي والذهول
٢٢٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	...	صوفية مادية
٢٣٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	...	الباقى من صانع الحضارات الفانى
٢٣٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	...	الى العقل الغربى من الروح الشرقى

• - أما بعد

متى النور يا ظلمات ٢٤٧

تقديم

بقلم عميد الفلسفة الإسلامية والأدب النفسى حضرة صاحب المعالي
الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا وزير الأوقاف

لما لقيت الأستاذ عبد المنعم خلاف أول ما لقيته كدت أعرف من
هو من قبل أن أسأله من أنت ، فقد توهمت في وجهه ملامح من سمات
أبيه رحمه الله . وكان أبوه رجلا من كبار العلماء في الأزهر ومن كبار
الصالحين ، وكنا نستفيد من علمه وكنا نلتمس من بركته . ففى جيلنا
كان الناس يؤمنون بأن فى بعضهم بركة ، وأن صفاء القلب وقوة الإيمان
تجعل الأرواح فياضة بالخير ، وتجعل دعواتها مفتحة لها أبواب السماء .

واصلت معرفتى بالأستاذ عبد المنعم بعد هذا ، وقرأت كثيرا مما
يكتبه ، فازددت يقينا بأنه ورث من أبيه العلم وورث من أبيه التقى .
وقد قرأت كتابه ، فوجدت فيه عقلا ودينا . وإذا كان أبو العلاء يقول :
إثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له

فإن فى الناس على رغم أبى العلاء من لهم عقل ودين .

والأستاذ عبد المنعم خلاف يريد فى كتابه أن يؤمن البشر بأن الإنسان
أكرم أنواع الكائنات الأرضية ، وأن يكون هذا الإيمان سبيلا إلى تحليمهم
بأشرف الفضائل ، وإلى تسامى جماعاتهم إلى أرقى السعادات الاجتماعية .

يبسط الأستاذ القول في هذه المعاني ويفصله في حماسة تخيل إليك كما خيلات إليه أنه اكتشف نظرية في الكون جديدة ، وقد لا يكون الأستاذ اكتشف نظرية جديدة ، ولكنه اتجه بكل ما في نفسه من شباب وإيمان وذكاء إلى تقرير معنى السمو في الطبيعة الإنسانية ، وإلى دفع الشعوب إلى الخير من هذه الناحية ، وهذا صنع مشكور في موضوعه وفي غايته .

والمرجو أن ينتهي جد الأستاذ في تفكيره ودرسه إلى فلسفة تكون جديدة حقا ، ويكون أثرها في إسماعاد الإنسانية عظيما إن شاء الله .

مصطفى عبد الرازق

الإهداء

إلى الأبطال الثلاثة :

التوراة ، والإنجيل ، والقرآن !

الذين ثبتوا يكافحون في الدهر الأطول ، قوى
الظلام والطغيان والهوان ، نضالا عن كرامة
روح الإنسان !

ابنهال ، ورجاء ، ونصريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبسم الله السلام المؤمن !

والحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على صفوة الإنسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية
(محمد) وعلى جميع رسل الله وأصفياه الذين أحيوا قلوب الناس بمعاني
الإيمان ، وهدوا عقولهم بهدى السلام ، وأقاموا حياتهم بعواطف
البر والرحمة ، وعلى من اهتدى بهداهم إلى اليوم الأخير للإنسانية على
هذه الأرض !

وأنتهل إلى الله العلي الكبير بهذا الابتهاال العميق الذي ابتهل به
« فرانكلين روزفلت » رئيس « الولايات المتحدة الأمريكية » الراحل ،
وأعظم معاصر مسئول عبر عن الروح المؤمنة بالإنسان ؛ إذ لا أجد تعبيراً
أبلغ ولا أفصح منه عما أريد أن أبتهل به في صدر هذا الكتاب .

قال حين خطب في يونية سنة ١٩٤٢ في « يوم العلم » والاحتفال
« بتصريح الأمم المتحدة » :

« إلهنا ! يامنح الحرية . إننا نضع أفئدتنا وأرواحنا اليوم رهن قضية
حرية الجنس البشري كافة . امنحنا اللهم الإيمان والفهم لنحيا ونعتز
بالذين يحاربون من أجل الحرية كما لو كانوا إخوة لنا . امنحنا اللهم التأخى

فى الأمل والاتحاد ، لافى فترة الحرب المريرة فحسب ، بل فى الأيام المقبلة أيضا ، وهى الأيام التى يجب أن توحّد — وسوف توحّد ! — جميع أبناء هذه الأرض . فإذا ما ظلم إخوتنا فنحن كذلك مظلومون ، وإذا كانوا جوعا فنحن كذلك جوعا ، وإذا كانت الحرية قد انتزعت منهم فإن حريتنا غير مصونة .

« امنحنا اللهم إيماننا مشتركا بأن الإنسان سيكون له الخير والسلم ، والعدالة والبر ، والحرية والأمان ، وتساوى الفرص ، لافى وطننا فحسب ، بل فى جميع أنحاء العالم أيضا » .

* * *

ويرجو الناس من « الولايات المتحدة الأمريكية » أن تسير هكذا دائما فى السياسة على عقائد روحية وأفكار مغلّصة وإدراك عميق لحقائق الحياة والعلم والإيمان ، لا على « مناورات » السياسة والأعياب الاقتصاد ، وفلسفة الطغيان والكبرياء والبطش والمفاضلة العنصرية وحب القهر والاعتصاب ؛ فهى بهذا أقرب النماذج الدوائية الغربية إلى الحياة المنشودة بين الأجناس والأديان والألوان والشعوب .

ونرجو أن تدرك حق الإدراك مركزها الممتاز ورسالتها العظمى فى توطيد حياة السلام والعدالة الدولية والإنصاف للشعوب الصغرى بعد هذه الحرب ، فلا تنساها أو تتكاسل عن تحقيقها ، كما نسيت وتكاسلت بعد الحرب الماضية ، فكان جزاؤها أن اضطرت مرة أخرى إلى بذل هذا الجهد الجبار بالدم والمال والموارد وقوى الكفاح . . هذا الجهد الذى

كان يسعدنا ويسعد العالم لو بذل نصفه أو أقل من نصفه في حياة السلام والاستقرار قبل هذه الحرب .

واقـد قال الراحـل (ونـدل وبلـكى) منـافـس (روزفـلت) فـي انـتـخـابـات سـنـة ١٩٤٠ بـتـارـيـخ ١٤/١/١٩٤٢ - « إننا جميعا نلوم (هتلر) وحده ، بـيـد أن هـذه الفـسـكـرة السـطـحـية لـيـسـت صـحـيـحـة ؛ فاللوم لا يـقـع عـلى (هـتـلـر) وحده ، بـل يـنـصـب عـلـيـنـا إـلى حـد ما ؛ فـلـقـد سـمـحـنـا فـي المـاضـى لإنتـاجـنـا الصـنـاعـى العـظـيـم أن يـتـحـكـم فـيـنـا ، وأن يـتـغـلب عـلى مـثـلـنـا العـلـمـيـا » .

أجل ، هـذا هـو مـوـضـع الداء وـضـع (وبلـكى) أصـبـعـه عـلـيـه .. فـإن « الـوـلايـات الـمـتـحـدة الأمـريـكـيـة » كـان يـجـب أن يـكـون مـوقـفـها بـعـد الحـرب المـاضـية مـوقـف « رـسـول » مـن العـالـم الجـديـد السـعـيـد بـتـنـامـى أحـقـاقـه الجنـسـية وفـوارقـه السـطـحـية ، إـلى العـالـم القـديـم الـذـى لا يـزال رـهـيـن هـذه الأحـقـاد والآثام .

بـل كـان يـجـب أن يـكـون مـوقـفـها مـوقـف « بـولـيس » العـالـم المـدافـع عـن حـرمـات الشـعـوب الضـعـيـفـة ، والسـاعـى إـلى رـد الحـقـوق المـغـصـوبـة ، بـعـد أن كـان انـضـامـها للاحـقـاء فـي تـلك الحـرب أعـظـم مـرـجـح اسـكـفـتـهـم ، و بـعـد أن تـلقـى المـعـسـكـران المـتـحـاربـان مـبـادىء رـئـيسـها العـظـيـم (وبلـسن) بالـلـهـفـة والـقـبـول والاسـتـبـشـار . و كـان فـيـها المـثـل المـنـشـود . و كـان شـرف أمـريـكا يـقـضـى عـلـيـها أن تـقـوم عـلى تـنـفـيـذ تـلك المـبـادىء الـتى قـدمـها رـئـيسـها بـاسـمـها ، وأن تـجـمـع حـولـها كـل مـظـلـوم مـن الدـول وتـعلن الحـرب الدائـمة عـلى كـل مـن يـنـقـض عـهـد تـلك المـبـادىء ، حـتى يـنـفـى إـلى أمـرـها .

ولكن ما شغل به العالم بعد الحرب من التهاافت على المتاع المادى
لتعويض ما أصابه من آلامها ، وما رأته أمريكا من عودة ذوى النزعات
المحافظة إلى أساليبهم القديمة فى السياسة الدولية ، وما قضت به مساعى
الرأسماليين والاستعماريين والأنايين ، من بقاء العالم فى أدوائه القديمة ، وما
أصاب الرجل الإنسانى العظيم (ويلسن) من ضعف الصحة وضربات
اليأس الذى بدّته فى نفسه أوكار الرجعية وبؤر الطفغان والأناية ... كل
أولئك ثبّط من غريمة (أمريكا) وجعلها تنفّض يدها من العالم القديم
وتركه فى شقائه ، وترتد إلى عزلتها السعيدة .

ولكن هذه يد الأقدار تمتد لتفتزعها من هناء عزلتها ، وتحشرها مع
العالم القديم مرة أخرى ، فى هذه الحرب الطحون ، وتدفعها معه بقضها
وقضيضها بعد أن صارت العزلة مستحيلة فى هذا العالم الذى ضاق وارتبط
واتصل بعضه ببعض اتصالاً وثيقاً حتى صار إلى « عالم واحد » كما عبر عنه
كتاب (ويلكى) .

وما أظنها ستنسى واجبها مرة أخرى بعد أن عاد السلام إلى أوروبا ،
وبعد أن يعود فى الشرق الأقصى ...

ومن هنا ينبعث نور الأمل ، لأن أمريكا عمل عظيم فى طريق
أمل أعظم .. !

ولقد نجى الله ديارها من أهوال التخريب والتدمير لمراكز الإنتاج
والنمو الحضارى . ولكن الحرب التالية — لا قدرها الله — سوف تصل
إليها لا محالة بأهوالها وفظائعها .

نعم إن ما بذلته في هذه الحرب من دماء الشباب وعتاد الحرب ،
شئ ضخم هائل ، ولكن حظها بنجاة ديارها ومراكز نموها ، أحسن
بكثير من حظ غيرها على كل حال . فليعلم أن تدرك ذلك وتشكر الله
عليه بالعمل العادل المسلح على أن تقوم العدالة والمساعدة بين الأمم
مقام الظلم والأنانية والاستغلال الآثم .

وإذا كانت هي أعظم عامل من عوامل النصر في هذه الحرب لاشك ،
إنها حينئذ تملك أن تكون أعظم عامل من عوامل الاستقرار والسلام
والعدالة لاشك ...

«وبعد» فهذا الكتاب حلقة من سلسلة قصيرة ذات خمس حلقات :
هي محاولة أحاول بها أداء واجب من واجبات العقل الإسلامى الحديث في
التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية التى هى أمل
الإنسانية جميعها . وذلك :

١ — برفع مكانة الإنسان في نظر نفسه ، وإثراء ثقته وإيمانه بجنسه ،
وإدراكه أسرار خلقه وفكره وجهده وتنوعه شعوبا وألوانا .

٢ — وربط روحه بمصدرها الإلهى ربطاً وثيقاً على هدى من
نور العلم والدين .

٣ — وبوصل عقله بأعماق الطبيعة وأسرار الحياة ، حتى يشعر
بالانسجام مع الكون كله ..

٤ — وببقد صداقة وثيقة بين ضميره والمعانى العليا للحياة ، وهى :

الإيمان ، والحق ، والجمال ، والقوة ، والحب ، والخير ، بعد ما أصابه من هذيان الفلسفات المادية الجامحة ، وشوشرة المذاهب الهدامة ، التي كان من نتائجها طوفان الدم والوحل الذي طَمَّ على الإنسانية كلها في هذه الحرب التي وضعت نصف أوزارها وما كادت !

٥ — وعمل قلبه بنفحات التفاؤل الرخب ، والصبر الجميل ، والاستملاء الأبِّيَّ على أسباب التشاؤم والألم والسخط والانتقاض .

٦ — وبحمل جُهدِهِ على غزائم الكفاح والسيطرة على القوى المادية العمياء لتسخيرها وتثميرها للنفع العام .

٧ — وبإنهاض أسرة الأمم الإسلامية حتى تؤدي نصيبها في إقامة الحضارة المنشودة ، على قدم المساواة مع أسرة الأمم المسيحية والأمرة اليهودية .

وهذا الكتاب كذلك محاولة من « الروح الشرقي » — الذي كان ولا يزال ذخره وعماده دائماً في مراحل التاريخ ، الإيمان بالله رب الوجود ، والصلاة والبكاء له ، والاستمداد مما يلقيه في أعماق الضمير من إلهام ورحمة وسماحة وحب وطهر وصفاء وإحالة على الغيب حين العجز — لحل مشكلات الفكر ، وبناء أسس الحياة المادية والاجتماعية على عقيدة عميقة المنابع ، قريبة التناول ، كثيرة الأدلة والشواهد ، عظيمة النتائج ، لا على نظريات في السياسة والاقتصاد كما تفعل الكتب التي يؤلفها العقل الغربي ، ويتناول بها مشكلات العالم وعُقده وخُرُوقه بأسلوبه المادى الواقعى المعروف ، الذى لا يصدر غالباً إلا عن المصلحة القريبة المنظورة

المؤقتة ، حتى ولو كانت مخالفة للحق بجانبه للصدق ، ويعالج الأمور بالدواء
وحده ، ولا يستعين معه بالإيمان والبصيرة ، ويفضل عن هذه الحقيقة
التاريخية الثابتة ، وهي أن الحياة إن لم تؤسس على عقائد راسخة سمجة
فهي دائماً في تقلقل واضطراب وانهايار .

ومما أنشده في هذا الكتاب ، استعرار الناس على إقرار خلاصة
رأى الأديان السماوية الثلاثة الكبرى التي نمت حضارتنا في وصايتها ،
ولا تزال مهيمنة على أعظم أمم العالم قديماً وحديثاً ، وهي اليهودية والمسيحية
والإسلام ، في تشريف هذا الجنس البشري ، والإيمان به وبسمو الغايات
التي خلق لها ، وأولها وأعظمها الإيمان بالله باري الكون ، واستمداد
الضمير منه .

ولم أهمل الاعتراف بأي جانب من جوانب الإنسان الروحية والمادية ،
ولم أر أن في حذقه المادى وقدرته الابتداعية أى باعث له على الغرور
والفجور وجحود الإيمان ، بل على العكس رأيت هذا الجانب منه أعظم
الأسباب التي تحتم عليه أن يكون إيمانه بنفسه أعظم وسيلة لإيمانه بمن
خلق في نفسه هذه القدرة الابتداعية النامية المنمية !

ولم أحتد حذوَ الروحانيين المُفرِّقين في الروحية ، المهملين للجانب
المادى ، ولا حذوَ الماديين الحسيين المستغريقين في حياة المادة مع عدم
الاعتراف بما وراءها ، بل اتخذت الموقف المعقول بين بين .

وقد زعمت أنى اهتديت إلى القضية الفكرية والدينية الأولى حين
أقرر « إن الإيمان بالإنسان سابق على غيره من قضايا الدين والفكر ، لأن

الفرد الإنسانى لن يؤمن بالكون ورب الكون إن لم يؤمن بنوعه ؛
إذ أننا لاندرك الكون وربه إلا بعقل النوع الإنسانى ، فإذا أهدرنا
قيمة الإنسان أهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرك به الكون ورب الكون !
وحسبنا هذا من حامل على الإيمان بالإنسان لضمان وجودنا الروحى ،
ومنطقنا الفكرى والعملى .

فإن لم أكن سبقت إلى الاهتداء إلى هذه القضية ، فهذا الزعم صحيح !
ونعم هو من توفيق أحمد الله عليه أجل الحمد .

ولا يخفى ما وراء الاعتقاد بصدق هذه القضية ، والعمل بمقتضاها ، من
مبادلة السلام والاحترام والإنصاف بين الناس جميعا .

وأكاد أرى أن الموقف الفكرى فى هذه القضية يسبق موقف
(ديكارت) حين أثبت « وجود الذات المفكرة » واتخذها أساسا بنى
عليه فلسفته الإيجابية ؛ إذ أنه من أين لديكارت أن يثبت أن لتلك الذات
قيمة واعتبارا ، وأن لما ينتج منها من الفكر قيمة واعتبارا ، إن لم يثبتهما
أولا للنوع الذى تنسب إليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك
النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف الطبيعى الأول هو أن نرصد أولا هذا النوع الإنسانى كله
بعين غريبة عنه ، مفارقة لوجوده ، لنثبت له مكانته الخاصة فى الكون ،
وخصوصا بعد أن وصل فكره أخيراً إلى أن يكون عاملاً عظيماً من عوامل
الحكم والتكوين والتخريب فى الطبيعة ، ثم تأتى بعد ذلك جميع مواقف
الإثبات واليقين للأفراد .

أقول « وأكاد أرى ... » مع أنى أرى فعلا — ولعلى مخطىء —
تفاديا من المعالمة بالجزم الذى لا يليق إلا بعد التمهيد فى بوتقة النقد
واستطلاع الآراء ، وتفاديا من الرأى المفاجيء لجهد فيلسوف كبير له
فى الفلسفة الإثباتية الحديثة ، المقام الأول .

* * *

فلنفتح ضمير كل امرئ بهذه القضية التى صار من السهل إثباتها ،
ومن مصلحة كل فرد تحقيقها .

ولنؤمن بها لنعمل عمل المتفائلين الذين تغمر قلوبهم نشوة الجهاد فى
سبيل بناء عالم إنسانى جديد سعيد ، بعد هذا العالم القديم الشقى الذى
تداعى تحت معاول الجحود والجشع والأنانية والجهالة والحقد والاعتصاب .
نعم ، لنؤمن ولنعمل ما يقتضيه الإيمان ، وليس علينا أن ندرك النجاح ،
فقد يكون « الإيمان — وليس النجاح — هو غاية الحياة » كما يقول
الكاتب الفرنسى الفقيد (رومان رولان) .

لنؤمن ، وانسلم ، لنكون مع الله « السلام المؤمن » !

القاهرة فى يوم الجمعة { ٥ من رجب سنة ١٣٦٤
١٥ من يونيو سنة ١٩٤٥ } عبر المنعم محمد معروف

ملحوظة : شرع فى طبع هذا الكتاب قبيل انتهاء الحرب فى أوروبا ، وفرغ منه
بعد انتهائها فيها ، ولذلك جاء الحديث عنها مختلف الصيغة الزمانية .

أطرحها قضية !

القضية وموازينها — استجابة لنداء الحياة والنفس — هذه
الحرب — نتيجة الإيمان بالحق المطلق والكمال المطلق — لاخضوع
للواقع — هل يسمع لنا ؟ — تأثير المغلوبين في الغالبين — الضعف
السامى والقوة السافلة — العالم الغربي بين دوى الدم والوحل وهمس
الرحمة والحب — لا بأس — كنا فى أحسن تقويم وسنعود — أمور
ثلاثة لابد منها — كلمة إلى محترفى السياسة وسماصرة المال — كلمة إلى
عشاق الحق والسلام .

أطرحها قضية !

هى قضية الإيمان والثقة بالانسانية ! لأننى وجدتُها القضية الأولى
التي لاصحة لقضية فكرية إلا بعد ثبوتها ، ولا استقرار للسلام العالمى
والأخوة البشرية إلا بعد الاعتقاد بها .

وأطرح فى موازينها مواريت تلك الأرواح والعقول والقلوب التي
استغلن سرُّها العظيم ، وتجلّى جوهرها الكريم فى آباء الانسانية الأولين
والآخرين : من الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والصديقين ، والعلماء
المفهمين ، والأدباء الملهمين والرؤّاد المقتحمين ، والشهداء المجاهدين ،
والجنود المجاهدين من الزارعين والعاملين الخادمين الصابرين !

وأرسلها صيحةً مُعْتَقِد لا مقالة كاتب يُزجى لونا من ألوان « الترف

العقل « يقدمه على مائدة الكماليات في عالم الفكر ، ليتفكَّه به المُتَرْقُونَ
المُتَشَهِّون كل جديد من الآراء ...

وقد تعمَّدت أن أقلب النظرة وألتبس نقائص الانسان وأسباب
الكفر به والتحقير من شأنه ، وأخذَه بالنظرة المادية وحدها ، فما استطعت
ذلك ؛ لأني وجدت حياته توحى إلى أن أومن به وأعتبر ذلك الإيمان
أساسا لغيره من شُعَب الاعتقاد .

وقد تعمَّدت كذلك أن أقف وقفات طويلة بين مراحل تلك
المقالات ^(١) التي تضمَّنها هذا الكتاب لأتبيَّن : هل أنا مخدوع في الطريق
الذي سلكتُ فأعود منه وأرتد عنه ؟ ولتذهب عني فتنة ابتداء القول
والمُعْجَب به — وإن لا ابتداء القول فتنة وعجبا كما يقول (الجاحظ) —
وحاولت أن أراجع الشئون السافلة في حياة أفراد الانسان اعلمها تصرَّفني
عن الاعتقاد في إمكان سموه كمجموع . . ولكن كانت الأيام والوقائع
وطول التأمل تزيد دائما فكري وقلبي إيمانا بصحة ما ذهبت اليه

وقد هتفت « أومنُ بالانسان ! » استجابةً لنداء الحياة ونداء النفس .
فقد نادتنى الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة إلى الإيمان به وبمستقبله ،
برغم أئمه وشره في عصره هذا ، وحملتني على ذلك نبؤوتها ومعجزاتها .
والحياة المدنية الحالية نبوة ! نبوة شيوعية ... أخذت جميع أمم الأرض
بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة .
فلنعرفها على حقيقتها ، ولنعلم أنها باب الملكوت الذي وعدت به
رسالاتُ الشرق الاولى التي وجهت الانسانية .

(١) نشر كثير منها على فترات في مجلتي الرسالة والثقافة بين سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤٥

انها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ، لا نبوة الارشاد والترييب والكلام الذى ألقاه الرجال الآباء فى سمع الانسانية وهى فى أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص والايمان ، وسمو النظرة إلى الإنسان فى حياته هنا وفى مصيره هناك . . . وهى صفات لا بد منها فى اليهود والمذارج .

فان أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف اللامح الحاذق الفطن لأسرارها ، الواعى لخطورها وقيمتها ، العارف بأنجاهات قائلتها ... كنت من المتخلفين البلاء الكافرين بنعمة الله ! والله فى هذه الحياة المدنية الحالية نعم جليلة لا يكدرها إلا عنف وحماقة وطيش من بينها . . .

وقد نادتنى النفس التى حاولت جهدى أن أحفظ لها حدودها وطابع علمها الخاص ، وألا أسمح بطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تذهل عن ذاتها وتخلط بين معدنها والمعادن الأرضية ، إلى الايمان به كذلك ، وحملتني على ذلك بما كشفته لى من آفاقها الخاصة التى لا دخل للتعليل « البيولوجى »^(١) و« الفسيولوجى »^(٢) فيها .

وكنت حريئاً — وأنا أطلب الحق — أن أستمع للنداءين فأوفق بينهما ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على النفس وحدها ولم يزاوجوا بينهما .

هذه الحرب : وحينما فجأتني صيحة هذه الحرب الفاجرة الجبارة ، التى تدور طواحينها الحمراء على جماجم الإنسان ، وتذر فيها رياح النار مدته

وآثاره العامرة بالجمال والحرمات ، وتُحِيلُهَا خرائب وأطلالاً تَعْمُرُهَا
أشباح الهول ، وتتساقط عليها المَصَارِعُ في صَيِّحات وصعقات نكراء
ترسلها أفواه وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابجة والطائرة ،
زَلَزَاتُ فِجَاشِهَا وَفَجَرَاتِهَا وَجَرَانِهَا دَعَائِمُ يَقِينِي وَعَقِيدَتِي فِي ذَلِكَ الْجَنَسِ
وَأُمْلِي فِي مُسْتَقْبَلِهِ .

ولكنني عدت وقلت لنفسى : هل يمكن أن يفعل مثل هذه الأفاعيل
لو كان يدرك نفسه ، ويؤمن بها ، ويعلم مدى ما يريد رب الحياة منه
حين أخرجهُ للأرض ، وجعله خليفة يَخْلُقُهُ خَلْقُهُ واسعة في عمارة الحياة
وكشف أسرارها ومحاكاة نماذجها وإفساح مداها ؟

هل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أنه أعظم من أن يكون كغيره
من ساكنات الأرض العاجزات القاصرات ، المحدودات القوى والإدراك ،
السائرات بالغرائز وحدها ، المحرومات مما عنده من قوى التقليد والخلق
والابتكار والتسامي ؟

هل يمكن أن يَفْعَلَ — لو أدرك الحقائق — عن أن موارد الأرزاق
والأقوات التي يصطرع عليها ، كافية لأن يسعد بها كل فرد وكل أمة
لو وزعت توزيعاً عادلاً ، ولم تَطْغَ عليها شراهة التملك وطباع الاغتصاب
والخُتْلُ والأثرة والاستكثار المباهاة والمغالبة والاستعلاء ؟

وهل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أن كل فرد في الإنسانية إنما
هو ثروة لها وقوة في كيائها لو أحسن توجيهه وتربيته ، واحترم وجوده

وحقه ، ولم يُنظرَ إليه تلك النظرة التي تُهدِر دمه ، وترُخص روحه ،
وتغفل عن أن يد الله لم تخرجه للحياة إلا لغاية قد تنفع الإنسانية جميعاً .
وقد تكون الغاية من خلقه أن يكون كإنساناً أو إسكافاً أو خفيراً . . .
ولكن من ذا الذى يزعم أن الدولة ليست بحاجة إلى واحد من هؤلاء
كحاجتها إلى ملك أو رئيس ؟ ! إن الخلايا التي نصيبها أن توضع فى مكان
القذارة والنجاسة من جسم الإنسان ليست أقل شأنًا فى حياته من خلايا
الوجه والمنح . . . وإنما هو قانون التوزيع بين أعضاء الجسم ، يقضى أن
يكون بعضها فى الأساس الختفى وبعضها فى القمة المستعلنة ، والكل بناء
واحد ، له قيمة واحدة .

وهل يمكن أن يكون الإنسان الذى نراه بالعيون ضئيلاً مجرماً
قبيحاً فى بعض الوحدات ، هو الإنسان الكلى الذى ندركه بالفكر
والبصيرة والضمير ، حين نستعرض الكائنات الأرضية ونراه فيها ذا تفرد
وذاتية خاصة ، وقدرة على التسامى إلى الله ، والأخذ من علمه تعالى
وأمرار صنعه ؟

وهل يمكن أن يكون الإنسان المنشود هو ذلك الداهل عن نفسه ،
وعن دخوله إلى الحياة ، وعن خروجه منها من غير اختيار ، وعن رحلته
بين الأزل والأبد على هذه الأرض تلك الرحلة الغامضة فى ذلك الكون
الجهول الصامت الذى لا نعلم حدوده ، ولا ندرك أبعاده ؟

كلا ! لن يكون الإنسان المنشود المدرك لنفسه ووضعه هو هذا الذى
نراه رهين المقابيح والغفلات ، صريع الدهول والجماقات !

إن الأمر جَلَلٌ خطير ، تحتبس من الفكر فيه الأنفاس ، وتتلاحق النبضات ، وتحترق الخطرات !

وإن الوقوف عنده وقوف على « نقطة البدء » في الحياة ، ومن ورائها زمام الأمر كله ومقاليده !

الربحمة بالكمال : ولما كنت عشاق الحق المطلق والجمال المطلق ، وقد استحضرتُ في نفسى صوراً منهما ، ومن أحلام السعادة في ظلالهما ، وآمنت بهما إيمان الموقن أن الإنسانية مخلوقة لتسمو إليهما مهما كانت الطريق إليهما ذات وعورة وامتداد . . . لذلك لم أُلْقِ بالآ إلى النقص والفساد والقبیح الذى يشيع فى الناس الآن ، وثبتُّ على الإيمان بالسمو الاجتماعى وإمكان الوصول إليه ، لما وجدت أن بالإنسانية حينئذٍ إليه ، وقدرة على اطراد التقدم فى سبيله . ولم أبال بالمعوقات والشرور ، ولم أجعل لها وزناً واعترافاً إلا بمقدار الاحتراس منها ، والجهاد فيها .

وربما يكون مبعث هذا الإيمان هو السير وراء الفكر وحده لا وراء الغرائز والواقع . . ولكن مهما يكن من شىء فهذا الإيمان هو القوة الدافعة الوحيدة التى يمكن استغلالها للتقدم والارتقاء .

ألا يحس كثير منا أنه يجد صور الخير والجمال كاملة فى نفسه ، ويود لو وجدها كذلك فى خارج نفسه . . فى أسواق الحياة ؟ نعم هو يجد أضدادها تملك عليه طرق الحياة ، كما تتراكم الزبالات والقاذورات فى طريق الرجل المتطهر . . فيضطر ليعوض فيها سعيًا وراء القطيع ، وأداء لواجبات المعاملات والضرورات المعاشية القاسية . . وكثيراً ما تلوّثه

أو تبتلعه أو تحوِّله إلى خادم من خدامها ، لأنه عاجز ضئيل لا يستطيع أن يقاوم تيار أوحالها وينهض وحده بمصارعتها ؟

لا مضرع للواقع : فلا يحملنا واقع الحياة السيء على التكفر بها في نصائبها الأعلى من الجمال والصلاح والكمال الذي يوصى به الحق والفن الرفيع والمثل الأعلى الذي يملأ تخيلاتنا ، ويشير أرواحنا : ذلك الذي يدل على أنه من الممكن أن الله شغل به أجلامنا ، وكلفنا السعى إليه . فلو لم يكن ممكناً ما كلفنا إيابه ، ولا شغل به أرواحنا ، ولا أودعه إلهامنا . نعم إننا لن نصل إلى أبواب المعاني الإنسانية إلا بعد جهاد عنيف في اختراق الحجب الكثيفة التي غشّاها التاريخ على الأفكار والنفوس ، وجعلها تفهم أن الإنسان المقصود هو ذلك الذي يرويه الآن يملأ أسواق الحياة بالجرائم والنكبات والجهالات .

وقد يكون الوصول إلى أبواب المعاني الإنسانية سهلاً ميسوراً لو أننا حافظنا على فطرة الخير في الطفولة ، من أن يتطرق إليها ما تطرق إلينا وأفسد فطرتنا . فإن أبواب المعاني الإنسانية يمكن الوصول فيه إلى المحصول الذي حصلنا على مثله في الزروع وأنسال الخيل وما إليها من أنواع الحيوان والنبات التي يجري العلماء في تشيئها وتعهدها وتحسينها تجاربهم ويحصلون على نتائج قيمة .

والمشقة كل المشقة هي في إقناع الناس أن ينتقلوا من المكان الذي قدفتهم فيه قوى الشر ، إلى المكان الذي كان من الواجب أن يكونوا فيه ليروا مقاطع الناظر الصادق الصحيح ؛ حتى ولو لم يعلموا به في الحياة .

ولا يُوثِّقنا من ذلك بُعد الشُّقَّة بين المكنانين ، بعد أن رأينا ابن آدم استطاع أن يَرُوض الأساد والتمور والقرود ، ويعلم الكلاب والخيول والخيول رياضات هذبتها وأنسها كثيراً من شرور طباعها .

وباب الأمل هو أن تشرع الإنسانية في التجرد من أخطاء العصور السابقة : عصور الجهل والقصور وغلط التفسير والتأويل في وجهات الحياة ، ثم تسلم نفوسها للطبيعة الصريحة التي كشفت عن وجهها النقاب ، وعن أسرارها الحجاب ، فبانَ وجهها ، ووضحت دروبها .

وفي الواقع أننا نعيش بأكثر أفكار السابقين وآرائهم وعاداتهم التي أخذوها من موحيات أزمنتهم .

ونفوس الناشئة « كأفلام » التصوير الشمسي قبل أن يقع عليها الضوء . . . فلماذا نترك القبح والفوضى والشر تسبق إشعاعاتها إليها وتسقط عليها أولاً فتنتطع فيها ، قبل أن تصل إليها أشعة الجمال والنظام والخير ؟

وأعتقد أن أسرع الوسائل لانقاذ الحياة الاجتماعية من شرورها هو استئناف تنظيم المجتمع على أيدي علماء الطبيعة والنفوس المخلصين ، الذين يجب أن تفوض إليهم الأمم رسم خطط الاجتماع على أساس ما أدركوه من الطبيعة والنفوس ؛ لا على أيدي محترفي السياسة وسمايرة المال والغافلين عن وجوب الانسجام بين الحياة الانسانية والحياة الطبيعية .

وقد يكون الأقرب لدى وجهة النظر الاسلامية أن ندعو إلى أن الاسلام هو الكفيل باقرار قضية الايمان والثقة بالانسانية ؛ لأن « كتابه » رفع من

شأنها ، ودان بتقديس حرمانها والثقة بمستقبلها ، ولأنه لو لم يكن ديناً
لكان مذهباً عقلياً طبيعياً يسارع إليه كل من أسلم نفسه للطبيعة واسترشد
بهدى الله المبثوث في آفاقها .

ولكن هذه الدعوة منا في الوقت الحاضر الذي لا يزال أكثر الأمم
فيه متأثراً بالدعايات الكاذبة عن الاسلام ورسوله ونظمه ، ولم يقم المسلمون
فيه بأى عمل جدى يزيل آثار تلك الدعايات ، ستُحْمَل على محمل التعصب
منا والتطبع والتحيز الموروث . . . وستقابل بردود وسخریات ومناقشات
من أهل الأديان الأخرى .

ولذلك نرى مؤقتاً من وجهة النظر العالمية ، أن نستعرض « المسألة
الانسانية » كما هي في الطبيعة بدون ألفاظ القرآن ، حتى يتأتى لغير المسلمين
أن يشعروا بالعقائد الانسانية منقولة عن الطبيعة مباشرة . . . وسيكون وحي
الطبيعة مع هذا هو رأى الاسلام نفسه ، ولكن بعنوان آخر أو بغير عنوان . .
وما يضير هذا الدين فى شىء ؛ لأن القرآن وهدى رسوله وسيلة لغاية هي
إدراك الطبيعة والنفس الانسانية ومعرفةهما والتحاكم اليهما ، وإدراك
بارئهما وصفاته مستنتجةً منهما بعد ذلك .

وعلى الأخص أن لفظ « الاسلام » معناه تسليم النفس وتوجيهها للذى
فطر الطبيعة ، وليس معناه الانتساب إلى شخص أو جنس أو مكان .

هل سمعنا ؟ ولكن هل يملك أمثالنا أن يقدموا فكرة للعالم
تنزل منزلة العقيدة الأولى للاسلام ، نحن « الشرقيين » النكرات المغمورين
فى عالم القوة والسيطرة الغربية ؟ ؟

قد يقال : يا له من غرور !

ولكن لماذا ؟ ألسنا أصحاب أفكار إنسانية أودع الله إيانا مرها ، وجعلها تملك الانبات والتفرع والتكاثر ؟ بلى ! وإن لكل فكرة القوة على أن تنمو متى هيء لها الجو الصالح والبيئة الطيبة ، كما أن لكل بذرة ونواة قوة الانبات متى هيء لها الجو والتربة والماء .

فبذور الأفكار كبذور النبات : تلقى إحداها في ظلام الأرض وتتممّد ، فلا تلبث أن تتخذ طريقها إلى الحياة أو تتخذ الحياة طريقها إليها ... فأكثر واقعيات الحياة أصلها أفكار وأحلام .

نعم إن الفرد الواحد الضئيل الذكرة المغرور المحدود ، حينما يتحرك فكرة ما تستبذ بخواطره وتستولى على قلبه ، أملاً في حل مشكلات العيش والفكر عن طريقها ، بعد انحسار ظلال الأفكار القائمة والاعتقادات السيئة ، لا بد أن يشعر بدوار عنيف البعد الشقة بين ما في رأسه وقلبه وبين واقع الحياة السيء الذي يرفده عباب التاريخ ، وروافد الوراثات الجاهلية في القرون والأجيال الموغلة في القدم ، وإن ينقذه من ذلك اليأس والدوار إلا نفحات من الايمان ، ولمعات من الآمال ، تحدث نفسه أن كل صوت من أصوات الحق التي صاح بها ذلك الهاتف الغامض الدائم الذي يسمونه الضمير البشرى ، لا بد أن يجد صداه القريب أو البعيد ، وأنه ليس على الفكر المخلص لأمانات الحياة ، الباحث عن سننها العليا إلا أن يسجل ما يدركه من الحقائق ، ويضعه أمام العقول العامة ، ويعرضه في أسواق الدعوات . . . لعل شارباً قويا مدركا مؤمناً يشتريه وينميه ويذيعه في الناس عن طريق السطوة أو حذق الدعوة !

ولماذا لا نعتقد أن لنا الحق في أن نقول للعالم الكلمة التي نؤمن بها ؟
ألا أن الدولة في العالم ليست لنا ؟ قد يكون . . ولكن هذا لا يمنعنا أن
نؤثر في الغالبين ونحن مغلوبون ، كما أثر اليونان قديما في الرومان ثقافيا
وفتحوهم فكريا ، وهم الذين غلبوهم سياسيا وحربيا . . وكما أثرت المسيحية
الضعيفة المضطهدة في الرومان الغالبين القاهرين وحولتهم خداما . . وكما
أثر الاسلام المنكوب المقهور في التتار القاهرين ، فحولهم اليه وجنّدهم له بعد
فترة وجيزة من سقوط بغداد في أيديهم .

إن الضعف السامى قد أثر في الحياة ويؤثر فيها ما لا تؤثر القوة
السافلة . . وربما يكون للضعفاء وحدهم ، وهم الأكثر عددا ، حق الحديث
في الحقوق والواجبات والعدالة والإخاء والمساواة ، وحق الملاحظة والتنظيم
والتنقيح للنظم القائمة ، ولا يكون ذلك للأقوياء الذين لا يعرفون مطالب
الضعفاء ورغباتهم و« المضعف أمير الركب » كما يقول (محمد) خادم
الانسانية الأكبر .

وينحيل إلى أن العالم الغربي ، وخاصة الأوربي ، على استعداد لأن
يسمع كلاما جديدا غير مألفه في السياسة والحياة والاجتماع . ونحن —
سكان الشرق الأدنى والأوسط — أقرب المجموعات البشرية إلى المجموعة
الأوربية ، وأدناها منها مزاجا وروحا . ومثلنا العليا في الدين والخلق
والاجتماع قد انتقلت اليهم ودأبوا بها حقبا طويلا من الزمان . فمن غير
الصعب أن يستمعوا إلينا ، ولكن على شرط أن نكون مخلصين في
دعوتنا ، محترمين لأنفسنا ، مؤمنين بما عندنا ، نقول لهم بأسلوبهم وعقليتهم

في غير زهو ولا تعصب ، وانما بتقديم مَوَدَّة ، وشعور رحمة لهؤلاء الذين
نقمونا وخففوا آلامنا بجهادهم المادى ، وسهلوا لنا سبل الحياة بالجسم . .
ونحن ورثة هدى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . . أولئك الآباء
الذين عذبوا في سبيل الانسانية ، وقدموا لها وهى في مهد حياتها رسالات
الروح والخلق ، نستطيع أن نقدم شيئاً من ميراثهم فى الهدى ، وإلا كُنّا
غير جديرين أن نكون سكان ديارهم ، وأقرب الناس إلى فهمهم .

وأنا أعلم أن جماعة منا سَيُنْفِضُونَ رءوسهم سخريّة حين نذكر لهم
هذا الكلام . . ذلك لأنهم اصطنعوا الواقعية المادية التى لا تؤمن ولا تلبى
دعوات السمو والمَوَدَّة التى أقرتها الأديان والحكمة والفلسفات السامية فى
ضمير الشعوب . وهؤلاء هم علّة الملل فى بقاء الشرق متخلفاً عن الغرب فى
كل شىء حتى فى « معارك السلام » كتخلفه فى معارك الحرب والقوة المادية .

إن الشعوب الأوروبية قد شربت من الدم والوحل حتى بَشِمَتْ
وزهدت ، وتريد أن تسمع صوتاً يفتح لها حديث الرحمة والحب والتعاطف
بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها . ولكن عصابات السياسيين والسامرة
و « الرأسماليين » هم الذين سيشوِّشون عليها قصدها ، ويفوتون غرضها ،
إن لم تَجْلَجَلْ فى آذانهم دعوة جديدة للسلام وحياة الروح . وسكان
الشرق الأدنى والأوسط وهم مزيج مؤتلف مُتَسَاخِرٍ من أتباع الأديان
الثلاثة ، يستطيعون أن يكونوا رسلاً لهذه الدعوة لو تسامحوا وعلّموا أنهم
ورثة الدعاة الأولين للحياة بالروح أولاً . . .

وهبوا أن هذه الفكرة لا تتحقق ولا يستمع لها ؛ أفليست من

من الأحلام الجميلة التي يَلدّ الحديث فيها ، ويجب التنويه والتذكير بها
كمثل أعلى تتمناه الإنسانية ؟

إن القلوب الكبيرة التي أطلّت على العالم بالرحمة والحب والعلم واليقين
كان سر عبقريتها وعظمتها أنها لم تعترف أبداً بالواقع السيئ في زمانها .
وأنها حين رأت الإنسانية في عصورها الأولى تقبل جميعاً على الوثنيات
وتعكّف على الجهالات وسفك الدماء ، صاحت صيحاتها ، ونادت ضمير
البشرية الذي تكفل خالقه أن لا يموت أبداً وأن لا تنطفئ شعلته ،
وقاومت بجهدا حتى حوات مجرى التاريخ إلى تمجيد الحق والسلام والرحمة .
وقد أفلحت في ذلك كثيراً من الفلاح ، وعمّا قليل تفلح كل الفلاح ،
إذا حل مشاعل دعوتها دائماً قوم مؤمنون بالإنسانية ، عالمون بأسرار
وجودها وسمو الغاية من حياتها في هذه الأرض ، حريصون عليها ،
راصدون لتاريخها ، متفائلون في مستقبلها ، غافرون خطايا طفولتها وبقايا
جاهليتها ، عاذرون لحقها وطيشها في بعض الظروف ، ناظرون إليها نظرة
بارئها الحليم العليم الذي لا بد أن يكون له في أفاعيل حياتها وسفالاتها
الظاهرة حكمة خفية !

وعلى أي حال ، إذا لم تنفع هذه الدعوات فلن تضر . ولكن نفعها
محقق ، حتى ولو كان مجرد نشر روح التفاؤل ، لنستسيغ متاع الحياة ، وننتسلي
عن همومها ، أو لجرد المكافحة بين الشر وضده الخالد العظيم : الخير !

ربّاسي : « وبعد » إن كان الانسان تافه القيمة ، ووضعُه في الحياة
على حالته الفاسدة هذه ، هو من طبيعة نظام هذا العالم ، ولا يمكن تغيير

فساده ، بل يكون شره بهذه النسبة الحالية ضربة لازِب ، ولا يمكن تخفيفه ، فعمدناذ يجوزُ لنا أن نشاءم ، وأن نُضمر الشر لنعيش في محيط الشر ، ونختبِط فيه خَبِطَ عَشَوَاءَ مع أهل الأرض جميعا حتى نفارق الحياة ... ولكنى أرى ، ويرى معى كل متأمل منصف ، أن الانسانية كأى حقل نباتى أو حيوانى خاضع للتحسين والتصفية والاستصلاح والتعهد والاخراج الصالح ، وخصوصا في هذه المرحلة الزمنية التى كشف فيها العلم عن وسائل التربية النفسية والجسمية وإبادة آفاتها بسرعة فائقة .

وليس الانسان جزءا من هذه الطبيعة المادية الجامدة التى لا يمكن تغييرها وتبديلها ، وإنما هو جزء مَرِن خاضع للتبديل والتغيير باختلاف التربية والتعهد .

وفعلا قد تحقق في التاريخ ذلك الذى ننشده الآن : فبعض الدول الاسلامية الأولى قد عاشت فيما بينها كدولة ، وفيما بينها وبين غيرها من الدول على صور سامية من الاعتراف بالحقوق والتعاطف وترك الشرور إلى حدها ، فرضى الله عنها ورضيت هى عنه وعن الحياة . وبعض الأمم الأوربية الشمالية قبيل هذه الحرب ، قد عاشت فيما بينها كدولة على صورة سامية رحيمة كريمة ، ولكنها قد تعود إلى الأسلوب الوحشى المنحط مع غيرها من الأجناس والأقوام ، فليس لها ذلك الايمان العميق بالانسانية جميعها .

إذاً لا يأس من الانسان ، ولا يأس من الحياة تبعاله وتأثر من جرائمه ، ومن نوازع الشر الحالية فيه ، مادام الدليل التاريخى قد أثبت له صورا عظيمة من السمو ، وما دمنا نستطيع أن نغير حياته العَرَنَة إلى

الصالح بتغيير أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية .

لقد قال العلم والدين إن الإنسان خرج الى هذه الدنيا كاملا جميلا قويا « في أحسن تقويم » ثم تطرقت اليه عوامل العطب والعجز والمرض والفساد والتفازع ، لضيق فكره وعجز يده عن وسائل التغلب على محيطه حقا من الدهر ، فأورثته الفساد والاختلال ، حتى وصل إلى زمنه هذا فاستطاع أن يعثر على مفاتيح راحته باهتدائه إلى سنن التكوين والتخريب ، وإخضاع الكثير منها لخدمته وانتفاعه . إذا لامبرر لتشائمه وتنازعه وسخطه بعد أن رأى من كنوز رحمة ربه ما رأى ... وإنما الواجب أن يسعى إلى أفق الفجر بعد أن بزغ ، ولا يستدبره ويستقبل أفق الليل والظلام .

فاذا أمكن — وهو ممكن جدا — رفعه من أسفل سافلين ، ورجعه إلى نصابه الأعلى الذى خلق عليه في أحسن تقويم ... يكون التواني والاهمال والتشاؤم في هذا السبيل قصورا معيبا وجريمة كبرى .

وانى أرى — ولعلى واهم ! — أن الإنسانية الآن ينتفض جسمها العملاق ليعمل ويسترد مكانه في عِلِّيَّين ! وقد صار لأفرادها الآن من الحقوق التى تتصل بالعدالة ، ومن مزايا التمتع والراحة وثبات الأرض تحت أقدامها ، ومن أحاديث الحريات والكرامات فى مؤتمراتها الدولية العامة والخاصة ، وصار لها من القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة ، ومن المقام المرموق بين الكائنات ... ما يبعث فى صدرها الثقة والايمان بامتيازها وقداستها والأمل فى مستقبلها والصبر على احتمال آلام حاضرها .

وقد وجب عليها الآن أن تعجّل أموراً ثلاثة : —

- (١) إزالة الدعايات القومية الحادة والنّعرات الجنسية الضيقة التي توحى بالتفرق والشتات ، وتورث التعصب والتحيز الممقوت .
- (٢) إيجاد لغة إضافية عالمية مشتركة لتكون لغة « المواطن » العالمي ، ولتموحى إلى كل ناشئ بمعاني الانتساب إلى الإنسانية الواحدة بجانب انتسابه إلى قومه ، ولتسهل على الأفراد سبل التفاهم والتعارف بالثقافة العالمية التي لا بد أن تضمها أسفارها ونشراتها الدّورية .
- (٣) توزيع المواد الاقتصادية بدون جشع واغتصاب واحتكار وحب استئثار واستغلال للضعفاء .

وأريد أن أقول في ختام هذا التمهيد كلمة لسماسة المال ومحترفي السياسة لشهوة الحكم وحب القهر ، لا للخدمة ولا للوصاية على الشعوب القاصرة ، هي كلمة الحق والإيقاظ للطّور الجديد الذي تقبل عليه الإنسانية : أن يقوموا جماعات وفُرَادَى ، ثم يتفكروا في الوضع الحالي للإنسان ، وأن يزيحوا عن أعينهم الفِشَاوَات القديمة التي هي سرُّ تطاحن الإنسان وتصادمه في ظلمات المطامع وشهوات الاقتناء والقهر والافتراس .

وليعلموا أنهم هم العقبة الوحيدة الآن في طريق الإنسانية إلى حياتها المنشودة ، وأنهم هم الذين يحولون أخوة البشرية وبركات العلم وثروات الأرض التي أودعها الله فيها بمقادير كبرى تكفي حاجات كل فرد وكل أمة ، إلى وقود يحترق به جامعوه والناس جميعا .

إنهم هم الذين يقودون البشر في الحرب بالقول لا ذوالذهب ... وهم كذلك يستطيعون أن يشتركوا في أن يقودوهم بهما حياة السلام ، إذا أراحوا عن أعينهم غشاوات القرون الأولى : قرون الوحشية وحب اللعب بالشعوب وجمع الحطام ومجد الشهرة على الجحاح والأشلاء .

إنهم يستطيعون أن يشتركوا في قيادة البشر وتجنيدهم جميعا للوصول إلى أملاهم الأكبر : وهو كشف مجهولات الكون وتسخير قواه للنفع العام ، والعيشة في إخاء وأمن وسلام .

وأريد أن أقول كلمة أخرى إلى عشاق الحق والصلاح ، الذين يؤمنون بالروح الإلهي والسمو الانساني : وهي أن أشد ما يُخشى على العالم أن يعزلوا ويُخلَّوا بين عملية بناء العالم بعد هذه الحرب وبين من لا يحسنون أن يقيموا حضارة تتوازن فيها العناصر وتتلاقى الروافد والتيارات الروحية والمادية بمقدار موزون !

فإذا وقعت معارك الحرب فليعلنوا هم « معركة السلام » !
وهم لا بد منصورون بتوفيق الله مكرم الانسان !

في موازين الحس والفكر والضهير

عُقْدَةُ الثَّمَرَةِ

من هذا الكتاب

صِيحَةُ الْمُعْتَقِدِ . مُعَادِلَةُ رِيَاضِيَّةٍ . وَصِيَّةٌ إِلَى الْمُنْدَبِينَ

أُوْمِنُ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي أَحْمَلُهُ فِي جَسَدِي ، وَأُسْتَوْحِيهِ فِي فِكْرِي ،
وَأُبَادِلُهُ مَا صَحَّحَ وَمَا فَسَدَ مِنْ شَأْنِي !

أُوْمِنُ بِهِ إِيمَانًا عَمِيقًا بِصِيرَآ .. وَأَرْصُدُهُ رَصْدًا مُسْتَوْعِبًا يُطِيفُ بِهِ
فِي جَمِيعِ بَقَاعِهِ ، وَتَخْتَلِفُ أَوْضَاعُهُ ، وَأُسْتَوْحِي نَظْرَةَ اللَّهِ إِلَيْهِ وَرَحْمَتَهُ بِهِ
وَتَسْدِيدَهُ إِيَّاهُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مُسْتَقْبَلٍ مَجْهُولٍ !

أُوْمِنُ بِهِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي سَاءَ الظَّنُّ بِهِ فِيهَا ، وَقَبَّحَ الرَّأْيُ
بِقِيَمَتِهِ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُ بِنَفْسِهِ ، وَسَخِطَ عَلَى حَيَاتِهِ ، وَبَدَتْ فِيهَا خُبَائِثُهُ
وَمَكَأَيْدُهُ وَقَسْوَتُهُ ، وَذَاقَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِ الْبَأْسِ الشَّدِيدِ وَالشَّقَاءِ الْمُنْكَرِ !
وَحَطَمَتْ حَيَاتُهُ عَوَادِي فَنَاءَ صَنَعِهَا هُوَ عَلَى أَسْلُوبِ الصَّوْأَقِ وَالزَّلَازِلِ
وَالْبَرَاكِينِ ، وَسَائِرِ غَضَبَاتِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي طَالَمَا جَآرَ إِلَى اللَّهِ بِالْدُّعَاءِ وَالْبُكَاءِ
أَنْ يَحْفَظَهُ مِنْهَا ، وَيَحْفَظَ الْأَرْضَ بِمَا حَمَلَتْ مِنْ مَوَارِيثِ صَنَاعَاتِهِ وَابْتِكَارَاتِهِ
وَأَمْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَعِيَالِهِ مِنْ سُوءِ عُقْبَاهَا فِي التَّدْمِيرِ وَالْإِبَادَةِ .

أُوْمِنُ بِهِ لِأُوْمِنَ بِاللَّيْلِ وَرَبِّ الْكَوْنِ ! فَلَنْ يُؤْمِنَ الْفَرْدُ الْإِنْسَانِي
بِهِمَا إِنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِنَوْعِهِ .. لِأَنَّ عَقْلَ النَّوْعِ هُوَ الْمَنْظَارُ الَّذِي نَدْرِكُهُمَا بِهِ ..

فان أهْدَرنا قيمة الانسان أهْدَرنا عقله . . فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا !! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ، تضطرب بهم مجهولات الكون ومعلوماته كفرق طافين على أكف الأمواج . . لا يعقلون شيئاً ولا يؤمنون بالكون والنفس ولا بربهما ، وإنما يعيشون في ذهول وشك وبَلْبَلَة ، ثم يَمْضُون إلى ظلمات القبور .

وتلك قضية فكرية أشبه ما تكون «بمعادلة رياضية» . . وهي قضية هذا الكتاب من الناحية الفلسفية النظرية ، ولها ما بعدها من قضايا الخلقية والعملية . وهي عندى القضية الفكرية الأولى في الدين والعلم والفلسفة .

وأوصي به «المتدينين» الناظرين إلى حاضره في بأس وقنوط ، وإلى مستقبله في تشاؤم . . فما ينبغي للذين آمنوا بالمثل العليا ، وعرفوا أن الانسان مخلوقة لادراكها ، أن يُزَلَّزَلوا عنها ويأسوا منها إذا ما أصاب الناس نَكْسةٌ إلى جهالة قديمة وارتداد إلى أعراض السَّفَه الأول . . بل عليهم أن يرفعوا شعلة تلك المثل وسط احتدام الظلام والظلم ، حتى يمسك بخيوط نورها من يجتهد ألا تجرف رُوحه أمواج الظلمات !

ولو طأوعناه على مقتضى قساوته وشقاوته ، لأنكرنا كل مثل كريم هبط من السماء أو صعد من الأرض . . ولأخلدنا معه إلى عالم الجحيم الذى فتح أبوابه على نفسه في أعجب البقاع لديها : في لندن وبرلين . . !

نظرة المفارق لنفسه ونوعه !

خارج الشبكة . في نصابه الأعلى . نور في وعاء من طين . محرر المعاني
والنفوس المسجونة . في عالم القوى العمياء والروح الواعي . تاريخه
مصباحه . قانون ينمو في كل اتجاه . عصب الأرض . أحياء الشرقة ؟ .
إيقاظه بالدين الطبيعي والفن الرفيع

لكي ندرك اللّمحات التي تتراءى في أعماق « الانسانية » ، نحاول
أن نتحرر ونتجرد ونخرج من نفوسنا ونوعنا ، ونرصّد الانسان بعيون
المفارقين لنفوسهم ، الخارجين بالفكر عن حدود وجودهم ، الناظرين
لحياتهم نظرات الملائكة الأعلى ممن هم فوق الانسان ، والملائكة الأدنى مما
هُنَّ دُونَهُ .

إننا حينئذ نرى كثيراً مما خفي على الذين يلبثون سجناء رهناء في
الشبكة التي تلقّهم مع سائر أفراد القطيع .

ولا بد لذلك أن نترك الجدليات القديمة حول الشك في قيمة الانسان ؛
فقد هدرت شقاشقها حين كان عاجزاً عن شق الطريق أمام فكره ، وأن
نخرج من غبار التاريخ القديم ونفتح عيوننا على العالم كمخلوقين الآن ،
تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر ، وأن ننظر إلى
الانسان في نصابه الأعلى دائماً ولا ننظر اليه في حضيضه الأدنى ؛ فإن

من طبيعة كل كائن حيّ أرضيّ أن يكون له جذر في الطين والعفونات ،
أو أصل في الدم والقاذورات .

وإن النطفة التي خلق منها الانسان أخلاطٌ وأمشاجٌ أخذت من
العناصر الحادة والقوى العمياء ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء .

وإن الفرد يحمل في مجارى طعامه وفي أحشائه أو ضاراً وأقذاراً
تشمئز منها نفس حاملها . . ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه
والرأس الذى يحمل الشخصية وقوى الفكر . . فينبغى ألا ننظر دائماً
إلى الذين هم فضلاتٌ قدرة في جسم الانسانية ونتخذ منهم « مقطع »
النظر اليها جميعاً ، فيحملنا ذلك على التشاؤم والسخط والشك في الخير
والجمال الذى فيها . هم كالثمار الفجة المعطوبة ، عطبت وتلوثت وسقطت
لضعف روابطها بفروع الشجرة التي تسمو .

إننا نحمل أقباساً مطهرة من عالم الحق والجمال والطهر ، ولكنها
وضعت في أجسامنا : تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن . . فمن الناس
من يدوم على تطهير وعائه وصلقه حتى يستحيل إلى زجاجة شفيفة
رائحة تساعد ذلك القبس على السطوع والاشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب فيظل
مُعْتِمًا ويحول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل .

ومنهم من يضيف إلى ذلك الوعاء ما يزيد عتمة وكثافة تظنى
على ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام .

فلا جُلُ النور ! ينبغي أن ننبه كل مصباح إلى رسالته ، ونحوّل بين
الظلام وبين زجاجته !

ولا نحمّلنا حياة الظلام الراهن على أن نتشاءم ونسخط ونحطم ما بقى
لنا من مصابيح ، فنعيش في عمياء نهارها كليلها .

ولو أنكرنا مكانة الانسان وجحدنا قيمته ، لم يبق لنا شيء في
الأرض نلوذُ به ونأنس اليه من وحشة الصمت المطلق والسكون المطبق ،
والبكم والصمم والعمى التي تغمر غيره من كائنات لم تدع في الحياة حديثا
مفهوما عن غايات الحياة .

واننى ما أبهرت شيئا غيره تعمق معه الحياة وتنسع وتركب ويتنوع
الاحساس بها . ولولاه لكنت صندوقا أبكم فارغا إلا من معانى غرائز
ممطلة ، وتجارب شهوات قليلا ما تتحرك . . ولاضطربت بي مجهولات
الكون كغريق يطفو على أكف الأمواج .

إن كل شيء في الطبيعة صامت جامد لا يعطى جوابا عن غايات الحياة
إلا هذا النوع .

فمن قلوبه وعقوله تنبثق المعانى المكتومة المسجونة في أطوار
المواد والقوى .

وفي بيانه أصوات ربطت الكون كله ، ولأءمت بين نسبه
المختلفة ، ولخصته واختزلته ووضعت أمام الفكر ملموما . .

وفيه نعمة مفهومة رقيقة وسط صخب الأمواج التي لا عدد لها في

البحار ، والمهبّات التي لا عدد لها في الأجواء . .
إنه مشبّوب الحاجة دائماً ، واسع الآمال والخيال في تشكيل المواد
وتنويعها وتصريفها وتسخيرها والاحتفاء بكل سر فيها .

لقد استمرت الأرض من قبله جامدة لا يتغير فيها شيء إلا الدورات
الأبدية المكررة ، وبدا من الطبيعة أن كل شيء فيها كان ينتظر وجود
هذا النوع ليقول لفكره ويده : هاأنذا لكما !

وما زالت المرأة التي فيه وهي عقله تنطبع فيها صور الكائنات واحداً
وراء آخر ، وهو يحوّلها وينقلها من عالم الجاد والعصمت إلى عالم الأسماء
والبيان والصور والتعبير .

وما زال يدور حول ظواهر المادة وصورها وأشكالها ، ويحللها ويُنشِشُ
فيها ويسبّر أغوارها ، حتى وصل إلى عالم الكهارب والأثير . وهو الآن
يُجرى اختباراتِه وتحليلاته على هذه الأصول الأولى للمادة ليكتشفها أو يرقّقها ،
ويتمكّن في إخراج أنواعها ، بعد أن وصلت يده إلى مفاتيح توجيهها .

إنه تعمق في عالم الأجسام والقوى حتى وصل إلى مصادر الحياة
الآلئية ومادة الوجود الأولية ، وتعمق في عالم المعاني والأفكار حتى وصل
إلى الحفقات الروحية العليا ، والرياضيات العليا التي قام عليها تخطيط
الطبيعة وهندستها .

وإنه ليُرَكّب ما في السكون من المعاني كما يركب ما فيه من مواد ،
فيقيم الكتب العاصرة ، والمقالات الحكيمة والصلوات المطهرة ، والألحان

الساحرة ، كما يقيم القصر الكامل الجميل ، والصرح المشيد ، والقاطرة والطائرة والباخرة .

وإنه ليسافر بفكره في الآفاق العليا كما يسافر بصوته وصورته في صندوق الراديو . . .

وهكذا هو يتوجه في عالم المادة والقوى العمياء ، كما يتوجه في عالم الروح الواعي والفكر المميز المبصر الحاكم !

وهكذا هو رباط بين العالم الساكن الخفي ، وبين العالم المتحرك المرئي .

تاريخ مصباحه : ولنتعرض تاريخ الانسان على هذه الأرض ، لنندرك مدى مركزه فيها ، ولنعطيه من تاريخه مصباحاً يرى به نفسه : إن الله أسلمه الأرض ، وليس فيها شيء معقد التركيب غير الأجسام العضوية الحية ، وهي أجسامه وأجسام الحيوان والنبات . أما الجوامد فأسلمها اليه بسيطة في صورها الأولى وخاماتها البكر ، فما زال يدور حولها ويعيث فيها وينبش ويخرج أسرارها واحداً بعد آخر ، حتى حدثته أخبارها وأخرجت له أنقالها ، ووضعت بين يديه أجنتها وعيالها . . . واستفاد من تجاربه فيها عقله وحكمه — والعقل هو حفظ التجارب والحكم بمقتضاها — وعلمه ووثائق سيرته ومدونات فكره .

وكما أنماها وعقد نموها ، أنمت هي فكره وعقدته — والتجارب بين المادة والفكر قانون — حتى ملأ الأرض بما ولده منها ، وأخرجه من كوامنها ، وركبه من بسائطها .

وشاء الله أن تكون قوة الفكر في الانسان تكاد تكون لاحد لها ،
فصارت تخاريجُ المادة وفُرُوقها وتمايزُها لاحد لها .

وتارة يكون كشفه عن أسرارها بطريق الصدفة ، فيلقط ويدون
كما هو واضح من نمو علم الكيمياء ؛ فان كل أمورها تجريبية لا دخل
للفروض والظنون والتجريدات فيها . . وتارة يكون الفكر سابقا قادراً
على الفروض وقياس النَّسَب الغائبة على الحاضرة .

أى تارة تكون الطبيعة سابقة في الوحي اليه وزيادة علمه وفكره ،
وتارة يكون هو سابقا في الوحي اليها وزيادة أشكال موجوداتها ومشاهداتها .
وإني لأستعرض أعماله في الطبيعة منذ أن كان هائماً لا سقف له ،
يصنع من ورق الشجر ستاراً لسؤأته ، ويتخذ من الحجر خنجراً لسطوته ،
الى أن صنع لباسه الأوربي للمعدن المتنوع المزين الملون ، وصنع بيته من
ناطحات السحاب ، وآلات سطوته من الطوربيد و « سآة مولوتوف »
والقنابل الطائرة ودبابات « تشرشل » ، وصرا كِبِه من الحصون الطائرة ،
واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة في رأسه قبل تركيبها بمساميرها
وحذافيرها . . . وصنع له مجاهر ومُقَرَّبات يقرب بها مشاهد السموات
والسُدُم ، ويحمل عناصرها ، ويكبر بها مناظر الجراثيم ، وقيس بها
الخلايا ، ويحكم بها على كل أولئك حكماً صحيحاً خاضعاً لمقاييس الحس
والفكر . . أستعرض أعماله هذه ، فأراه بعد ذلك رُوحاً نامياً في ذاته ،
وَمُنَمِّياً للطبيعة وصورها وأشكالها كذلك ...

وجميع قوانين الطبيعة قوانين متحجرة صارمة إلا هذا الانسان ، فانه

«قانون» مَرِنٌ يذهب في كل اتجاه . أليس فيه نفخة من روح الله ليست في سواه ؟ ! والله خالق هذه القوانين وواضعها ؛ فلا عجب أن تدفعه هذه النفخة الى كل جهة في مجاهل الكون دائماً .

ان الأطفال يقلدون الكبار بغير رقة التقليد والمحاكاة التي فيهم للاستعداد لمستقبل الفرد ، والكبار يقلدون صنع الله للاستعداد لمستقبل الانسانية كلها . وجميع آلائهم التي ركبوها ، وجدوا نماذجها أمامهم مما خلق الله . فجسم الحيوان هو نموذج الآلات الدقيقة السريعة التي ابتدأ بها الانسان يتسلط على المكان والزمان والمسافات والأبعاد . وجميع أعمالهم في الكهرباء والقوى الخفية إنما وجدوا نماذجها من المجموعات العصبية في الحيوان والنبات ، فأرسلوا الاشارات والصور والأصوات إلى عيون وآذان صناعية عبر المحيطات والصحارى والقارات والجبال الشاهقات ، كما يرسل الجسم الواحد خواطره وصوادره إلى كل خلية في أعضائه .

وعلى ذلك صارت الأرض كجسم ينبض ويترابط ، وإنسانها فيها كالمرآة العصبية في الجسم الحي : تُصدرُ وتلقى الجواب .

حياة الشرنقة : ولكن هل يجوز أن يقف الانسان في ضجة ما صنع من الآلات والمفرقات ضائعاً مغموراً غائباً فيها كما تغيب دودة القز في الشرنقة التي تنسجها ؟

إنه يرسل في الطبيعة لمحات فكره ومضات خواطره ، وصار الأثير

والهواء والماء والتراب مليئاً بهمساته ، وأزير محرّكاته ، وضربات معاوله
إلى أعماق المناجم والرّكاز .

وهذا حسن لو أنه لا ينسى نفسه وسط الضجة والقوة والجبروت
الآلى ، والحديد البليد القاسى ، حتى يختنق ما فيه من وداعة الروح
وتأمل الفكر ، والاحساس بالانفصال عما صنّعه يده .

أجل ، يجب ألا يكون الانسان قوة عمياء تعمل فى المادة بدون شِعر
وإحساس روحى فيما تعمل ولذة به ؛ وإلا استحال إلى قوة متنقلة فى عمليات
التكوين والتركيب أو التخريب بدون وعى ، وفى ذهول وغفلات تشبه
عمى القوى العمياء ..

إن طاعة الحديد البليد القاسى للفكر الطليق البارد ، تركت فى أعصاب
الأمم الصناعية آثاراً عميقة ستطمر لا محالة ، إن لم تقاوم بقوى روحية ،
جوانب من عواطف الرحمة والمروءة فى قلوب أفرادها ، وتمحو آثار
العصور الروحية التى أدرك الانسان نفسه فيها حين كانت النبوات
تتلاحق عليه .

وإنى لأتخيل الآن ماجرى فى ساحات « الفلاندر » أو « أوكرانيا »
أو « صحراء ليبيا » ، فأرى الانسان وهو يدفع الحديد الجبار فيندفع ،
ويطلق البارود الصاعق فينطلق ، والقنابل الصارخة فتصيح فى نكر
وشدة ، ويملأ الجو بالدخان الأسود والنار الحمراء فيمتلئ ، ويسيل النار
من « باصقات » النار فتسيل على الأجسام البيضاء الجميلة ، ذات العيون
الزرقاء ، والشعور الذهبية ، والجاجم المستوية ، وتذيبها كالشمع ، وتسحقها

كالزفّات ، وتذرّوها كالرماد .. ويرفع القلاع الطائرة إلى أجواز الفضاء
فترتفع .. أتخيله وسط هذا كله ، لا يسمع صوت نفسه إذا تحدث ، ولا يعي
خروج نفسه إذا تنفس ، ولا يحس ألمه إذا تألم ، ولا صعق جسمه إذا
تخطم ؛ فهو في جنون الحرب يضرب الأجسام الحية النامية من شجر
أو ضرع أو زرع أو حيوان أو إنسان ، ويخرب العاصر ، ويهدم القائم ...
فأقول : لقد تحول إلى قوى عمياء ، وصار عاتياً كالريح ... جارفاً
كالتيار ... أعمى كالصاعقة ... قاسياً كالحديد ... صابراً كالفلولاذ ...
فظيحاً كالنار !!

ولست أدري متى يُفنيق لنفسه ، ويُعنى بوضعه وتحولات حياته ،
كما يُعنى بمستقبل المواد والقوى ؟ ويربط ما بينه وبين الله مُقيضِ
الفكر والحياة ، كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض ؟ !

إن الآلة لا تدركه وهو يعمل فيها ويقوم عليها ، وهي لا ترجمه من
السحق أو البثر أو الصّقة إذا تعرض لها جاهلاً بقوانين سيرها ، فلا قلب
فيها ولا فكر ، ولا حياة دمٍ وعصبٍ وروح . ولكن ما باله هو لا يفكر في
الاتصال بمن أنشأه وركبه ونسقه وصوّره ، وهو ذو الفكر والروح
والوجدان والنزوع والإرادة والاختيار والتطلع والخزر والخذر والقدرة
على قياس ما غاب بما حضر ؟ !

إن الاستسلام لغيوبة الحياة الآلية ضياع وتطبعٌ بطبع الحديد البليد
الأعمى الدائر في غير وعى وإحساس . وأخوف ما يُخاف على الإنسان
أن يُترك هكذا فريسة وضحية للآلات والماديات يعيش معها وحدها ، ويقدم

لها وَقُودُها إلى أنْ يَفْنَى وقود حياتِه هو وينطفئُ . مصباحه ، ويذهب إلى
ظلمة القبور بدون بصيرة روحية منيرة ، يسمى نورها بين يديه في العالم
الباقى غير المنظور .

وعلى هذا ينبغي أن تَنشَطَ في الناس دعوات إلى الإحساس بالنفس ،
واليقظة الدائمة لها ، وتزكيتها ، والرفع من قيمتها . وهذا لا يكون إلا بالدين
والفن الرفيع : الدين العقلى الطبيعى المبني على إسلام النفس لله البارىء
واللطبيعة الأستاذة ! والفن الرفيع الذى يخلق جواً يحضر للقلب بعض
المعاني الغائبة التى تُرى الانسانَ وَضَعَهُ الممتاز الفريد الطليق ، وسط
ما فى الكون من المواد والقوى والمخلوقات السجينة !

تلك المعانى التى تتراءى وراء بيان ذوى البيان النظيف ، وألحان
ذوى الأصدااء البعيدة ، وعيون ذوى الصفاء والادراك !

استعراض وتفصيل

أسئلة في حدود البداهة — مجهر وربشة وإزميل وترجان — أسرار
ورموز في قصة خلقه — نظرة الله العليم الغفور — سجود الملائكة لآدم
ولإبلاء إبليس — الشر للخير — منطقة الشهوات

مما يثير اهتمامي كثيرا في بحوث الفلسفة والعلم ، شك بعض المفكرين
في القيمة السامية التي للانسان ، ومحاولة تصوير حياته كحياة النبات
والحيوان والحشرات : ليست أكثر من ظواهر طبيعية ودورات أبدية
تأتى بها أيام وتذهب أيام إلى الفناء المطلق .

ومعرفة الوضع الحقيقي للانسان فى الكون هى ، كما بينت سابقا ،
أولى القضايا الدينية والفلسفية .

فالذى يذْهَل ولا يسترعى انتباهه ، ويشير اهتمامه هذا الكائن المتحرك
« المحسوس » الناطق المفكر ذو الارادة والاختيار ، لا يمكن أن يتنبه
للصمت المطلق والاطراد المطلق فى الطبيعة .. ودع ما وراء الطبيعة من العالم
الخفى الذى لا يناله الانسان بالحواس والأفكار .

واسأل نفسك : هل رأيت نوعا آخر متسلطا على الأرض يغير
أوضاعها ، ويتصرف فى موادها ، ويسخر قواها وينقح الطبيعة : يزيد
فيها وينقص منها ، متنوع المرافق ، متجدد الأفكار ، له حياة فكرية
وقلبية تكاد تكون لحدود لمظاهرها ؟

وهل رأيت غير الإنسان اخترع شيئاً يزيد على ضرورات حفظ حياته ؟ هل رأيت يكتب تاريخه أو يتطلع لمستقبله ، أو يركب آلات معقدة ، أو يغنى أغاني مُفَنِّنة ، أو يستخرج أصواتاً موسيقية من الجلد والخشب والمعادن ، أو يقيم أهراماً وعمارات ذات أرساد وأوضاع محبوكه وفنون بارعة ؟

وهل رأيت نوعاً آخر اخترع طائرة وسيارة وتلفراف وتليفون وتلفزيون وغيرها وغيرهما يصيده الاصوات ويقتنص الأضواء والمسافات ؟
نعم هل رأيت نوعاً آخر يسكر « ويحشش » ويدخن « ويشم » ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بذكاء ومهارة ؟

هل رأيت غيره يزارع ويتاجر ويضارب بعمليات اقتصادية معقدة غاية التعقيد !

هل رأيت غيره يحارب بالآلات كلها إبداع وبراعة تكاد تجعلها عند المتطاعمين لما يولد في السكون من عجائب والمتوسمين لما في حياة الإنسان من بدع ، فرجة من فُرَج القلوب تُعلَى شأن الحروب ؟ !

تخيل جميع الأساطيل الجوية والبحرية وجميع الجيوش البرية انطلقت في الجو والبحر والبر ، يعبثها ويزجها وينسقها الإنسان ذو الجمجمة العجيبة ، تملأ الأثير بلوعات فكره وومضات خواطره . . لتعلم أيُّ فن إلهي هذا الإنسان المخلوق من ماء مُمَين !

تخيل مدينة عظيمة كنيويورك أو لندن أو برلين أو القاهرة بما فيها من فنون الحياة والأفكار والشعور ، وما يغمرها من الأضواء والألوان ،

وما يضطرب في أحشائها من المصانع والمعاهد والمعابد ، وما يشوي فيها من دور الكتب والآثار ، ومخازن التحف وأدوات الجمال ، وما تسيل به شوارعها من وسائل الانتقال ، وما تَصْجُّجُ به من الأصوات والمقالات والخطب والأسمار والأحاديث ، وما يتوزع فيها من الأعمال والأموال والحرف ... تختمل هذا ثم قل : هل رأيت في الحياة منذ دخولك إليها نوعاً غير الإنسان يقيم أسواقاً للحياة مثل هذه الأسواق ؟ ثم هل رأيت نوعاً آخر يعمل بالحياة حتى يأتي في علوه بالعجب العجيب ... ويسفل بها حتى يأتي في السفالة بالعجب العجيب ؟ ... وهل رأيت نوعاً آخر يفتن في وسائل متاعه هذا الافتنان الذي تراه في السينما والمسرح ومخازن الملابس والفرش وأدوات الزينة ؟ .

هل رأيت ... وهل رأيت ؟

وأخيراً هل رأيت نوعاً آخر يترقى في سلم الحياة باطراد وخطى ثابتة ، وقياس متناسب ، بعد أن أتى عليه « حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » كما قال القرآن ؟

فكيف بعد هذا تسوى بين قيمة الإنسان أبي العجائب ، وبين قيم النباتات والحيوان ، وتسلكه في سلاك الفناء المطلق الذي يأتي على أجسامها وأرواحها بدون مآل أسمى ومصيراً كمال ؟ !

وكيف تضرب عليه ماضر بته عليها من الأحكام المنحطة ، وتحشر أفراده في مليارات أفراد الحيوان والحشرات التي تعيش على العشب والجيف والروث والنفونات ؟ !

إنى لأستعرض تنوع حياة الأمم والأفراد ، وأنصفح الوجوه والنفوس
وأسمع حديث الأطفال والعجائز ، والنساء والفتاك ، والفقراء والأغنياء ،
والعلماء والجهلاء ، والذكور والإناث . . . فأجدنى بعد هذا الاستعراض
فى دوار من الفكر !

وإنى لأخرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر أنه كان لابد أيضاً
فى الأرض مما نسميه الشر والضلال ليدوم ظهور أسرار التكوين !

إن شئت فقل إن الإنسان أشبه بمجهر تمر من خلاله الطبيعة
الأرضية بخصائصها التى كانت « غيباً » مستوراً قبل ظهور هذا النوع ،
فتساقط على عينيه أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى
خيال شيمه عطورها ونفحاتها ، وعلى ملامسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع
على إحساسه العام ثقل المادة ، وصعق الكهرباء ، وشدة الجاذبية ، وتمر
على فكره معانى الوجود ومعانى العدم . . . ثم يترجم كل هذه الكلمات
الصامتة بكلمات ناطقة من بيانه الذى اختصه به بارئ الطبيعة . . . فمكل
شئ فى الطبيعة الأرضية كان لابد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره
ليأخذ حدوده ومميزاته ويرمز إليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله فى الأرض .
وإذا صح ما أثبتته تحليل ضوء العناصر ، من أن العناصر التى فى
النجوم والكواكب هى بعينها العناصر التى فى الأرض ، كان فى هذا
زيادة فى النظر لقيمة الإنسان كترجم ومحدد لعناصر الطبيعة فى غير
الأرض أيضاً .

وإن شئت فقل إن الإنسان آلة في يد الخالق يتمم بها التنويع والتفريع والتركيب في خلق المادة الميتة الجامدة وتصويرها وصقلها وتزويقها وتوشيعها ، حتى تصل إلى الدقة المتناهية في تركيب تروس الآلات ومساميرها الصغيرة ، وإلى الزركشة والنخمة في الثياب والأثاث . وعندئذ يكون الإنسان امتداداً لعوامل التكوين والإنشاء والتعمير التي في يد الله . . يكون إزميلاً في يد المبدع الأعظم ، وريشة بين أصبعيه ، يشكل بهما المادة أشكالا ويملؤها بهما تزاويق وتهاويل !

ولذلك كان العلم بأسرار الطبيعة أشرف عبادات هذا النوع ، مادام متوجها فيه إلى رب الحياة ومتعرفاً إليه به .

واقراً قصة خلق الإنسان كما وردت في القرآن الكريم اترى منها العجب الذي رأيناه :

« وإذ قال رَبُّكَ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدمَ الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلمُ غيب السموات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون . . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس . . »

وأرجو أن تقف طويلاً أمام قوله تعالى « إني أعلم ما لا تعلمون » رداً على سؤال الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ... » لتعلم أن الله تعالى نظر نظرة سماح وافتقار لما تستلزمه حياة الإنسان في مجموعته بالجسم الحيواني من الشرور والآثام ؛ إذ قد علم ما وراء فتوح الإنسان في « غيب السموات والأرض » من آثار علمية وعملية ترجع على ما يرتكبه من شرور وفساد وسفك دماء . . .

كما أرجو أن تقف وقفة أطول أمام عجز الملائكة عن علم ما علمه الله آدم ، وما اختصه به من ترجمة كلماته في الطبيعة الصامتة ، ومن نبش في « غيب » السموات والأرض ، واستخراج لأسرار ذلك الغيب .

ثم قف وقفة أطول أمام أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم . . . وسجودهم له وإبلاء إبليس . . . لتفهم تلك الرمزية العجيبة التي ترمز إلى تشريف الله لهذا الجنس الذي تحمله في جسده وتستوحيه في فكره ، وإلى طاعة جميع قوى الطبيعة الأرضية للبصرة والعمياء له ، إذا ما احتفظ في نفسه بأقباس الطهر والعلم كما وضعها الله فيه — إلاقوة الشر التي يمثلها إبليس ، فإنها أثبت أن تشترك في تشريفه ، وأن تطيع الله في الاعتراف بخصوصياته من علم بالأسماء التي في غيب السموات والأرض .

وإذك لتعجب حين ترى مصداق هذه القصة بحذافيرها وجزئياتها فيما وصل إليه الإنسان في هذه العصور الأخيرة : من عثوره المتوالى على كثير من مفاتيح الطبيعة ، وفتح أبوابها باباً فباباً ، ومن خلع الأسماء على كل شيء ، وإبرازه إلى عالم الفكر في قالب من البيان ، بعد أن مضت عاياه

دهور وهو غائب مبهم ، وتسخير كثير من قواها لخدمته وطاعته ، ومن
لأن روحه الحية للمواد الميتة الجامدة ، وجعلها تحيا حياة آليّة بعقله ،
وتخطو بسرعة فـكره !

وإنك لـيبلغ العجب منك مبلغه ، حين ترى أن « قوة الشر »
لا تزال هي الوحيدة الفريدة التي لم تشترك في تشريف حياته ، والاعتراف
بعلمه ، والدخول في طاعته . . بل على العكس تحاول دائماً تحويل حسناته
إلى سيئات ، وعلومه إلى جهالات ، إذ هي بالغة الفطنة ، شديدة الفتنة ،
ضارية اللعنة !

ولكن الله وملائكته وسائر قوى الخير في الطبيعة مع الإنسان !
ولذلك كتب له النصر في كفاحه ضد كثير من جنود الشر ، وأصبحت
كلمات الحق والإيمان والعدالة والعلم والمساواة ، مزامير صلوات لأئمه وأفراده ،
وقد انكشف له وجه الأرض وجسم الانسانية جميعها ، وابتدأ يعرف مكانه
ووضعه في الطبيعة ويراها رأى العين .

وقد رصد الله له رحمته الواسعة ، وحلمه العظيم ، وغفرانه السّمح ، منذ
أن قال للملائكة : « إني أعلم ما لا تعلمون » حتى يبلغ الغاية التي قدرها له .
« والله غالب على أمره » « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » !

فلا يَهْوُلَنَّكَ ما تراه من الجريمة والفساد والأوباء والنكبات التي
تحتاج حياة الإنسان ... فإن الذي خلق هذا النوع متيقظ له ، دائم الرعاية
عليه ، يسوقه في طريق مرسوم حتى يبلغ غايته ، برغم كل مانسميه الشر
والفساد والباطل الذي ما خلق إلا للحق والصلاح ...

فلولا الأمراض ، مازهرت علوم الطب التي كشفت لنا عن ملايين من
عوامل الجراثيم ، وكانت حياتها مستورة في « غيب السموات والأرض » ،
ولولا الحروب ما تقدمت أدوات الانتقال السريع واختزال المسافات ،
وما تنافس الناس على استخراج مافي المناجم من الرّكاز ، وكان كل ذلك
« غيباً » محجوباً في الأرض . . .

ولولا الفرائز السفلى كالطمع والجشع والأنانية ، مارأيت في الأرض
هذه الحياة العنيفة الحركات في التعمير والاقتناء والتسابق على كشف
بقاع الأرض المجهولة وإظهار غيوبها ، وإقامة معالم الحياة العلمية
المتحضرة فيها .

ولولا البأس الشديد في الحديد والنفار ، ماتكونت الامبراطوريات
الواسعة التي ربطت بين كثير من أمم الأرض برناط التفاهم والحب والخدمة
المشتركة ، وما ابتدأت البشرية الآن تفكر في جامعة عامة لجميع الشعوب
والأمم ، تجمعها على أسس العدالة والسلامة الإجتماعية ، وخدمة العلم خدمة
مشتركة ، وتقيها من شرور التدمير والتخريب وما تنتجه الحروب .

ونظرة إلى تاريخ البشرية ترينا التقدم المطرد في سبيل التجميع
والتوحيد . فقد كان الإنسان فرداً ثم صار أسرة ثم صار قبيلة ثم صار
أمة ثم صار أمبراطورية وولايات متحدة ، ثم بدأ يصير « جامعة أمم »
ولابد من ذلك في يوم ما ، قريباً كان أم بعيداً .

فالشر هو الذي يدفع دائماً إلى تقوية الروح بالجهاد للخير . فإن
الأرواح لا تقوى إلا بالمجاهدة ، كما أن الأجسام لا تقوى عضلاتها إلا
بالمقاومة .

وان قيادة الانسان إلى الله رب الطبيعة قد صارت الآن من أسهل الأمور لأن العلم قد ألقى كثيراً من أشعته على مواقع يد الله في الطبيعة ، وعلى كثير من الأبواب التي توصل إليه ...

ولسكن كثيرين جداً من الذين يحترفون قيادة الأرواح أغبياء محدودون عميان .. فكيف يقودون في طريق مملوءة بكثير من جثث الخرافات والأباطيل التي لصقت بالدين في زمن الجهل والظلام ، والتي صرعاها العلم الواضح والعقل الطلق المستنير ؟ !

وأريد أن أخص « منطقة الشهوات » في النفس البشرية بالتفاته : قالت للملائكة وهم الأبرار الطائعون المخلصون حياتهم لله والخير : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون » وكذلك كل ما نراه من الفلسفات والخطرات المبنية على سوء فعل الإنسان ، وسوء الظن به ، والسخط عليه ، إنما هو ناشيء من طبيعة السموي نفوس لا ترى الحياة إلا في مثلها الأعلى الذي رضيقه لذاتها هي . . .

وما ضر منطقة « العقيدة » ومنطقة « العبادة » ومنطقة « العلم » ومنطقة « المعاملة » في الدين إلا الخلط والازج بينها وبين منطقة « الشهوات » وفي اليوم الذي يفهم فيه الحل والفصل المعقول بين هذه المناطق ، يمكن أن نرد إلى حظيرة الدين ، عدداً كبيراً من الآبقين الهاربين الجاهلين باختلاف مناطقه واتساع آفاقه ومفادحه . . .

ويريد بعض المحدودين ، أن يجعلوا تدبير الله كتدبيرهم ، وقياسه على قياس تفكيرهم المحدود .. ولو كان كذلك لحسف بالظالمين الأرض ونكل بالأشرار تنكيلا بدون حلم وإمهال .

ولكنه تعالى واسع العلم والحلم ، غفار ستار ، سَمِيح مطلع على القلوب ، ذو وزن دقيق للأعصاب والوراثات . وهو لا شك ينظر للفساد الظاهر في حياة الانسانية نظرة وزن لما تورثه أمشاج النطفة الآخذة من القوى الحيوانية ، والعناصر العمياء الحادة .

اننا — نحن القاصرين — نفتقر للطفولة عيشها وحقها وطيمشها وجرائعها ولو كانت القتل ، لأنها لا تدرك .. فكيف نريد أن نجعل حلم الله وتقديره للظروف أقل من تقديرنا !

إن الأمر في ذلك يحتاج إلى التنويه والتنبية إلى أن الانسان كان إلى عهد قريب في دور الشباب ، وأن ذلك كان علة صبر الله وحلمه عليه في سبيل وصوله إلى دور الرشد والعقل ، وإن من العدالة أن نرحم الطفولة المجرمة .. كما أن من العدالة أيضا القصاص الشديد من الرجولة المجرمة العابثة بحدود الحياة وحرمانها . وهذا ما كان في هذه الحرب ؛ فقد أثبتت للناس أنهم وصلوا إلى درجة من النضج ، لا تحتل العيب بحرمات الحق والعدالة ، وأن حربهم وجرائعها صارت كحرب « الآلهة » لا الخصام الأطفال .. فليحذروا من الآن ، ولينتبهوا إلى نفوسهم وما صار لها من قدرة خطيرة ! وإلى أن الله حينما أباحهم أخيراً بعض أسرار علمه في

التكوين والتخريب ، إنما أرادهم أن يستخدموه فيما يوحى به رشد الرجولة العاقلة ، لا حق الطفولة الطائشة !

والحق أن ما يتلاقى في مجموع الانسان عالم عجيب متناقض ! فهو بين تلك القوى الملكية البارة العاقلة الخيرة . . وبين تلك القوى العمياء الشيطانية الطائشة . فلا عجب أن يكون بينهما على اضطراب شديد وابتلاء عنيف ، يستحق من أجلهما نظرة حليلة راثية رحيمة توحى بالتفكير الدائم في وسائل إنقاذه من طغيان قوى الشر والجريمة والشهوة الخسيسة .

فوق الموازنة

تأكيد إنكار — نظرية النشوء والترقى — سعى الإنسان للخلود بالجسم
والفكر والصورة والصوت والحركة والروح — اهتمام الإنسانية بنفسها
وتبقيتها لسير تاريخها — الانقلاب الإسلامى — انقلاب القرن السابع
عشر — مزاعم عامية

نعود فنؤكد إنكار أن يسوى بين حياة أى نوع من الحيوان
والنبات ، وحياة الانسان أبى العجائب . . . الإنسان الذى يفكر فيها
ويدرسها ويصورها ويكتب عنها ويتصرف فيها ويتغلب عليها ، وهى
لا تفعل شيئاً من ذلك . . الإنسان الذى يولد وهو أقل منها قدرة على
التغذى والدفاع عن نفسه ، ثم ينمو ويترقى إلى ما لا نهاية له فى الفكر
والعلم بما يزيد عن ضرورات حياته ، بينما هى تقف فى نموها وإدراكها
عند حدود حفظ حياتها . . .

الإنسان الذى خلقت هى له ، بدليل تسميته إياها فى خدمته ، ولم
يخلق هو لها ، بدليل أنها لم تغلب عليه وتسيطره وتتصرف فيه .

الإنسان الذى خطا فى ستة آلاف سنة — هى عمر التاريخ الذى
نعرفه — خطوات واسعة ثابتة متلاحقة ، فتغيرت حياته من العُرى
والبساطة فى المسكن والملبس والمدرسة والحرفة والعبادة تغيراً عجيباً ، يكاد
يجن منه آباؤنا الأولون لو بعثوا ورأوا ما وصلنا إليه . . . بينما الحيوانات

والحشرات واقفة كما هي منذ عهد أجدادنا الأولين بها .
وهنا الدليل القاطع على وجود روح سامٍ من الله في الإنسان ، يدفعه
إلى الأمام دائماً في هذا العالم ، حتى يكشف عن كل سر في الطبيعة
ويتصرف فيه ، ويدفعه إلى إدراك الكمال التام الذي ينتظره في عالم آخر
فإن لم نعترف بقيمة سامية الإنسان خارجة عن نطاق حياته
الحيوانية ، فسوف تختلط أمام الفكر المثل ، وتلتوى السبل ، ونضل
ضلالاً بعيداً يؤثر في خدمتنا للعلوم والآداب الرفيعة والعمران تأثيراً رديئاً
وإن سوء الفهم لنظرية النشوء والترقي من أكثر الذين درسوها
دراسة سطحية ، هي التي لوّنت نظرة الكثيرين إلى قيمة الإنسان بهذه
الألوان المزرية التي تبعث على تحقيره وإسقاطه من العرش الذي أجلسه
عليه الدين منذ أقدم العصور .

فبناء على تلك النظرة المبنية على سوء فهم للنظرية ، ذهبت عن
الإنسان قداسته ، واختلت مقاييس الأخلاق وموازينها ، وكان في هذا
أكبر دافع في العصر الحديث إلى التراجع إلى قوانين الأدغال التي لا مجد
فيها إلا للقوة العمياء والشهوات والسيطرة الوحشية التي لا تؤمن بخدمة
الفكر والعلم ولذة الحياة في مثل أعلى .

وعلى فرض ثبوت نظرية النشوء — وهي الآن لا تزال فرضاً نظرياً
يحتاج إلى حلقات مفقودة ليصير حقيقة علمية — لا يجوز لنا أن نخلط
بين الحياة الآلية التي هي « مضروب مشترك » في أجسام جميع الأنواع ،
وبين الروح الإنساني الملموح في رقي الإنسان الدائم السريع ، ونزوعه

المستمر إلى الأكل ، ونفاذ فكره في عالم المعاني المجردة التي تبدو عجيبة رائعة في الرياضيات العليا ، والخفقات الروحية العليا ، والمثاليات العليا التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً « بيولوجياً » أو « فسيولوجياً » .

ولقد أحس الإنسان ، حتى في عصور جهالته ، بتفرد وامتيازهِ على سائر ما يحيط به في الطبيعة ؛ إذ وجد نفسه أقوى قدرةً ، وأوسع حيلة في التغلب على المشقات ، وفي الرقي بالحياة رُقيّاً مطرداً ، ولذلك لم يستطع أن ينظر إلى القبر كأنه نهاية أبدية لتلك الحياة ؛ بل وجد في إلهامه أن لا بد وراء موته من امتداد لحياته على أسلوب آخر أو على أسلوب الدنيا . فما باله يشك الآن في قيمته السامية ، بعد أن تضخم أمامه ميراث علومه وآدابه ، وعمر الأرض عمرانا ، واقتنّ فيها افتناناً ، وصار فطناً لما فيها من جمال وأسرار ؟ !

إنه ما فتى منذ وجوده وهو يسعى خلوده ، ليظل مغموراً بهذا الإحساس العجيب بالحياة ، ولم يكن يستطيع أن يتصور الخلود في أول الأمر بأكثر من أن يعطى شعلة حياته إلى ولده . وقد وجد في ولده أكبر عزاء له عن موته وفنائه ، ولكنه لم يقنع بهذا بل ظل يبحث جاهداً عن وسائل خلود جسده هو بذاته ، فحنطه ونقش صورته على الألواح والتماثيل ، ثم خطا خطوة أخرى فخلد فكره بالكتابة ، ثم خطا خطوات متلاحقة في العصر الحديث نحو هذه الغاية ، فخلد صورته الحقيقية « بالفوتوغراف » وصوته « بالفونوغراف » وأنغام نفسه « بنوتة » الموسيقى ، وحركات جسمه « بالسينما » ، ثم تصرف في الصوت والصورة والحركة ونقلها

على أمواج الأثير ، فاخترق الحدود والكثافات بالراديو والتلفزيون في أقل من لحظة ، ثم هو الآن يتجه ببحوته إلى عالم الروح ، لعله يستطيع أن يتصرف فيها ... والله أعلم بمستقبل هذا النوع العجيب الذي ارتضاه خليفة له في أرضه ... !

فأنت ترى أنه مشغول دائماً بخلود حياته ، إذ يحس إحساساً فطرياً وعقلياً أنها لا يليق بها الفناء الأبدى الذي يرجعها إلى العدم المطلق ... وأحب أن ألفت الفكر إلى أمر هام جداً وذو قيمة كبرى في النظر إلى قيمة الإنسان : وهو أن حياة هذا النوع منذ ابتداء تيقظه لها في العصر التاريخي ، وتقييد خطواته فيها ، حياة مطردة الرقي ، سائرة بسرعة إلى الوضوح والانكشاف .

ولقد عاش أدهاراً طويلة وهو يجهل أجناسه وأنواعه ، غائباً في أوطانه الضيقة ، يحسبها هي وحدها كل الدنيا ، لا يعلم حدود اليابس والماء ، منشوراً لا رابطة تجمعهم ، جاهلاً بما في الكون من عوالم وأسرار ، وقد كانت أديانه أدياناً خاصة . كل قرية فيها نذير يسدد حياتها بحسب ظروفها هي وحدها .

ثم كان الانقلاب الإسلامي قمة النضوج في العقيدة الدينية ، إذ جعلها عقيدة طبيعة عقلية دولية وضعت فيها الأسس لوحدة البشر وتلاقيهم على المعاني المشتركة بينهم ، حتى يتأتى من وراء ذلك ، السعي إلى وحدة العمل والخدمة المشتركة ، ولذلك لم تنتظر الأرض أن يأتيها هدى من السماء على يد رسول بعد رسول الإسلام ، وأحست أن الله أغلق باب « الوحي » ،

وجعل محمداً « خاتم النبيين » ، وقد صدق الزمان ذلك فلا مجال للجدال . فلم تعد الإنسانية تقبل ظهور البطل في صورة نبي . وقد نبه إلى ذلك « كارليل » في كتاب « الأبطال » . وهذا هو معنى قول محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبة حجة الوداع : « إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أى أن الإنسانية قد بدأت بعد الانقلاب الإسلامى دورة زمنية جديدة .

وحقاً يجد كل من يتفرس ويستقري التاريخ ، أن عصرأ عقلياً جديداً قد ابتدأ بظهور الإسلام ، وانفساح الأمبراطورية العربية التى احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه وأنمتها وحملتها إلى العالم الحديث . فالانقلاب الإسلامى ينبغى أن يجعله الإنسانية كلها بدء تاريخ رشد للعقل ووحدة للدين ، وستفعل ذلك فى يوم لا ريب فيه .

والآن صارت الأرض كقطر واحد بأدوات الاتصال السريع ، وكل أمة تعلمت لغات غيرها ، وارتبطت مجموعات كبيرة من الأمم برباط واحد ، واختلط الأبيض بالزنجى ، والشرق بالغربى ، وسكان الجزر النائية الغائبة فى المحيطات بسكان القارات ، وصار الإنسان العادى يطامع كل صباح ومساء على أخبار العالم الأرضى كله ، ويرى حياة جميع الأمم فى السينما ... وهذه كلها مقدمات لنتائج لا شك فيها عند من يقيس ويعتبر بالماضى .

وكما ثبت أن الانقلاب الإسلامى كان بدء عهد عقلى وقلبى الانسان ، قد ثبت أن القرن السابع عشر الميلادى كان بدء عهد عملى وعلمى له .

وبذلك طار الإنسان بجناحين قوين من الحياة الفكرية والحياة العملية إلى الغاية من خلقه .

فليس من الصواب ولا من الإنصاف أن ننظر نظرة تشاؤم إلى حاضره ومستقبله ، بعد أن رأيناه يبني حياته على العلم والنظام بناء كان يعد في الماضي من أعمال السحر وخوارق العادات ...

ومن النظر العامي أن نزع أن الإنسانية الآن أخط منها في الماضي .. ولست أدري ما مبعث هذا الزعم ؟ أهو ملاحظة فساد في العقيدة الدينية ؟ إن العقيدة الدينية الآن أصح منها في الماضي ، فهي في أكثر الأمم المتعلمة ، بعيدة عن الشرك والوثنيات والخضوع الأعمى للكهنة ... وما أصدق أن عاقلاً يُغلي الطبيعة من عقل يدبرها . ولكنه ليس آلهة الكهنة ، وعما قريب يذهب ما في بعض الأديان من بقايا الوثنية والإشراك ، ولن يبقى للإنسانية إلا دين الفطرة والعقل بغير عنوان وانتساب إلى جنس أو شخص أو مكان . وهذا هو المعنى الحرفي لكلمة « الإسلام » . فأى امرئ يؤمن بخالق واحد للطبيعة ، ويحسن العمل في الدنيا فهو « مسلم » والمعنى الحرفي لكلمة « إسلام » هو الانقياد لحكم الله وقوانينه في الطبيعة .

واقراً إن شئت : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . تلك أمانيهم ... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ... والآيات كثيرة في هذا ، ولا محل الآن للخوض في هذا الموضوع ...

وقد صارت الأديان التي تحتضن بقايا الوثنيات تختفى وتفر من نور العلم والفكر الحر ، ويزعم سدّنتها أن الدين لا مناقشة ولا تحاكم للعقل فيه .. وهذا أول الاعتراف منهم بأنهم على باطل عما قليل يذهب مذموماً مدحوراً إلى قبور الخرافات والباطيل .

أم يكون مبعث هذا الزعم هو فساد الأخلاق الاجتماعية ؟ ولا هذا أيضاً .. فإن الأخلاق الاجتماعية تترقى باطراد في كثير من الأمم التي بنت حياتها على العقل والنظام رقياً لا يمارى فيه إلا من يرسل الكلام بدون هدى ولادليل منير . فحكم الشورى هو الحكم الغالب ، وحرية الفرد وحقوقه صارت مكفولة معترفاً بها ، وقد نظم الإحسان ، وحوربت لأمراض وطرودت الجرائم ، وصار التعليم والصحة والقوت حقاً للفرد على الدولة ، ومجّدت صفات البطولة والنبيل ، وأقيمت لها النصب والتماثيل والأوسمة وحفلات التكريم ، ووطدت وحدة الأمة وتكافلها بأروع المظاهر كما في بعض الأمم العظيمة .

أظن أن مبعث الزعم بالمحطاط الإنسان هو انطلاق الانسان وراء شهواته ، وافتنانه في إشباعها .

وعلى فرض صحة هذا الزعم فإن منطقة الشهوات منطقة منفصلة عن منطقة العقيدة الأصلية في الدين والحياة ، ولا يجوز أن تكون سبباً لهذا التشاؤم الذي قد يصل إلى الكفر والاعتراض الصريح على الله ، حتى من بعض كبار المتدينين الذين أرسلوا إلى منذ حين ، وكانوا من أعظم الأسباب لتحرير هذا الكتاب : إذ أن أحدهم وصل به الحال إلى أن يقول :

إن الله تعالى غلب على أمره . ! إذ لم تتحقق غايته من خلق الإنسان
وهى العبادة . . . وبعضهم يتهم الله تعالى بالأنانية ! لأنه لا يبالي بما يصيبنا
من الآلام والعذاب فى عبادته . . !

وما أكثر ما يجنى قصور الفهم والتوجيه للنصوص على الناس !
وما أعظم مَسْخَ الألفاظ بكثرة مضعفها بدون إدراك ! وما أعظم جنابة
التقليد الأعمى فى أخطر أفكار الحياة وهى فكرة الإيمان !

وقد بينت معنى « العبادة » فى كتاب « الحياة صادقة » المهيأ للطبع
بما أعتقد أنه يقضى على بواعث مثل هذه الاعتراضات فلا داعى
لذكره هنا .

في معترك الآراء

في حدود البداهة أيضا — فليكن قرداً نهض على قدميه ، ثم ماذا ؟ —
وارث الحياة — الشر يلد والعلم يدفن — الأشقياء الهالكون —
نتائج الإيمان ونتائج الإنكار — أخلاق العلماء — الألمان والانجليز والعرب
الهندوس وعبادة الأبقار والأفاعي — صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية
تتحقق — استعلان سر الوجود على تفاوت — برغوث أبي العلاء —
مذهب هدام — قترات التمهيد لظهور الانسان — لانقص في غرائز
الانسان — العلم أضاف حياة للحياة — ما شئت بجمع أخلاق الانسان —
الدولة كائن عضوي واحد — تقدم العلم وتخلف الخلق — لو آمن
بنفسه — يوم قريب — لغير المؤمنين

كتب صديقي الباحث الفاضل الأستاذ زكي نجيب محمود مقالا
في العدد ١١٧ من مجلة « الرسالة » الغراء ، أخرجته مخرج الإنكار لما
ذهبت اليه من رأى في القيمة السامية لحياة الانسان وتفردته بالسيادة بين
غيره من سكان الأرض ، وبتوجه منافع ما في الأرض كلها اليه ، وبتفرد
بالتغلب على كثير من قوى الطبيعة وتسخيرها إياها ، وببساطة الحياة في
الأرض بدونه ، وبقدرته على إيجاد عوالم ومعان وصناعات ومدن وآثار
ورسالات لم يكن في الحياة شيء منها ، وبقيامه وسط دورات الأرض
الأبدية المكررة المحدودة ، بحياة حرة تذهب في كل اتجاه ، وتكاد تكون
منفصلة عن الحياة الطبيعية .

وقد رددت عليه بمقال أرى ضرورة نشره هنا لصلته بما قبله . ولم

أكرر في ردّي ما سبق لي من معانٍ يمكن توجيهها للرد عليه أيضاً .
قلت : أود أن أزيد هنا بعض أفكار ، أقدم قبلها أسئلة في حدود
البداية [التي كثيراً مايجنى على الحق إهمال التحاكم إليها وترك
الاسترشاد بهداها والاعتصام بها من أمواج الفروض والشكوك والنظريات
الفكرية الطليقة . . .] ألقها إلى صديقي خليفة (سليمان بن داود)
مفهم الطير والبهايم والمرآة ، والفراش المبعوث ، والبموض والبرغوث .
هل رأى أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت
إنساناً ووضعته في قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرساً أو حماراً ألجم إنساناً وركبه ، أو حرث
عليه حقله أو وضع على ظهره حملاً ؟

وهل رأى أو سمع أن جملاً أو فيلاً أو ديكاً أو خروفاً قدم لإنسان
حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن برغوثاً أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء
ووضعت في مضخة ثم أطلقتها على الإنسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله ؟

وهل رأى أو سمع أن حيواناً ما ، قطف زهرة ووضعها في أصيص
يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه ، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار
أو منتجات الحيوان والإنسان ؟

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ، ثارت على جزار
وأمسكت به وذبحته وسلخته ، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره

منافع ؟ أو على الأقل أدركت لماذا تساق هي إلى المذابح ؟
هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة
الإنسان ومكايده وحبائله ؟

أترك لصدى زكى أن يدرك سير الحياة بالإنسان ، ووضعه بين
الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة .

ثم لنفرض مايقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقى صحيحاً ، من أن
الإنسان أصله قرد نهض على قدميه ... ثم ماذا ؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع ... إذاً هو وحده كان محفوظاً
بمعناية الذى خلق الأنواع كلها ، حتى جعله في قمة الحياة العضوية الحيوانية ،
ثم بثق في رأسه بثقاً صار منبع عالم جديد عريض فائق سابق على سائر
حياة الأحياء المعهودة ، إذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان
وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهيز
والتقريب ، ولم تر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد فريسته . ولم تر أمة من
أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التى تعانى نقلها من مكان إلى
مكان ، ولم تر أمة من أمم النحل تفكر فى دفع عدوان الإنسان على عسلها
الذى تتعب وتدأب فى جنيته واشتيماره من رحيق الأزهار ونوَّار الثمار ،
على كثرة ما جربت من غزواته لها . وكل حيوان يعيش فى نطاق ضرورات
حياته لا يتجاوزه .

فلئن كان قانوننا « الانتخاب الطبيعي » و « بقاء الأصالح » أقتنومين
عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقى ، كما يعترف بذلك أنصارها

— وصديقي زكى منهم — فهما اللذان وضعنا الإنسان هذا الموضع الممتاز . . . موضع القمة في سلسلة الأنواع . وما دام الإنسان استطاع أن يتغلب على حيوان الأرض ، يستبقى منه ماله فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ، ويجد من الطبيعة إقبالاً عليه وكرماً في إمداده بوسائل التغلب على ما يريد إبادته ، ولا يصدّه صادّ عن اقتحام الغابات والأحجار والبحار والمنافع للصيد والقلمى بالقتل . . . ما دام الإنسان استطاع أن يفعل كل هذا ، والطبيعة تساعد على فعله ، فهو إذاً الابن البكر للحياة في الأرض ، وهو المقصود بها بحكم قانون « انتخاب الأصلح » ، وهو وارثها لأنه الأقوى . . .

سيقول صديقي زكى : « وماذا أنت قائل في الجرائم التي تفتك ببدن الإنسان لتعيش ؟ تلك التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ » .

وأقول : إن مصير هذه الجرائم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الإنسان التي تغلب عليها وتمحى منها ، وأبشك أن ينظف الأرض من غوائلها . . . وإن تاريخ كشفه لها قريب جداً ، ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها في المسكن والملبس والمطعم والمستنشق . وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها ، وسلط عليها حرساً من الجاهر والخباير والعقاقير ، فهو لاشك وأصل إلى التغلب عليها في سائر البقاع ، ما دام قد تغلب عليها في مناطق المستشفيات ودور النقاها وكثير من المنازل والمدن التي لا تهمل وسائل الوقاية العلمية . . .

وإنه لجهاد مشكور وأمر عظيم ، أن يقتحم الإنسان بعلمه وأدواته
هذه المناطق التي عاشت دهوراً وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ...

وإنها لعناية من باري الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحداً
واحداً ، ويمكن له في الأسباب حتى يتغلب عليها جميعاً ...

وإنه لبدء حياة جديدة لهذا الإنسان في الأرض ، أن يعلم ما خفي
وما استعلن من هؤلاء الأعداء ...

فلتلد بطون الشر والألم ما نستطيع من أطفالها ... فستلد قوانين العلم
مقاميع ومهالك لهذه الأطفال ..

وإن الأشقياء المالكين في الحياة الدنيا ، هم الكافرون بالعلم وبالإنسان
الذي أنتج هذا العلم ...

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلة العاجزة ، وينظرون
إلى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الإنسان وعقله ، ونظر القاصرين
الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الإنسانية في مدى قصير جداً
من الزمن ، وهو أربعة آلاف سنة أو خمسة أوسمة ، وهي عمر التاريخ
الذي نعرفه ...

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الإنسان في السنوات الخمسين
الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيراً من أحلامه في الانطلاق والسيطرة
والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره ، واختزال
المسافات والأبعاد ، وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة .

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا إلا حدود البقعة التي ولدوا فيها ، أو القطر الذي ينتمون إليه ... ولم يكونوا يعرفون أن في الأرض محيطات هائلة ، وقارات مجهولة ، وعوالم مستورة ، وأن الأرض ما هي إلا كرة صغيرة جداً كذرة رمل في صحراء ... الذين كانوا يبيتون في الظلام والبرد ، وأنهار النور والنار على بُعد ضربة مِقْوَلٍ منهم في منابع النفط والبتروك ... ويعيشون تحت رحمة غَيْضِ الماء وَفَيْضِهِ بدون أن يقيموا سداً أو خزاناً يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء ... والذين كانوا يأكلون الموت ويشربونه في المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم والآفات ...

أولئك الذين كان كفرهم بالإنسان ، وعدم إدراكهم اسموه وتفردده بين سائر الأنواع ، السبب الأكبر فيما نراه يسود حياته من اصطناع أساليب الحيوان الفاتك الضاري المتشهى الغافل الذاهل عما يدور في السماء ويجرى في الأرض من المعجائب والمعجزات وأفانين الحياة ...

« وبعد » فليكن الإنسان في مقاييس ما وراء الطبيعة ما يكون ، ولتعمل قيمته هناك أو لتسفل ، فإن هناك شيئاً واحداً هو الحياة الاجتماعية التي تستلزم إعلاء لقيمته ، لتسعد فيها .

وما يجز الشر والإثم والسفالة على النفس الإنسانية إلا غفلتها عن مقامها الممتاز في الحياة ، وإلا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية ، التي تجعلها والحيوان في حظيرة واحدة .

وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خَطَّوْا بها خطوات واسعة إلى

الأمم ، إلا نتيجة لإدراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما في غيرها من سكان الأرض ...

وأخلاق العلماء شيء عظيم عميق ، لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الإنسانية . وقد قال سقراط « الفضيلة معرفة ، والرذيلة جهل » . والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التي سنهبا « نيتشه » الألمان . فكان إدراكهم معنى السيادة ، وحديثهم حولها ، أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التي جعلتهم يفهمون في أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس .

وأخلاق الإنجليز المبنية على ثقافتهم بأنفسهم ، وتفرؤدهم من بين سائر البشر بطبيعة ممتازة وروح ممتازة ، هي التي جعلتهم فوق المستوى الإنساني الحالي في الصبر والاحتمال والثبات وسعة الخيلة والوقار والسكينة في السلم والحرب . فهم يؤدون لهذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرها من الفعال الكريمة ، والصبر الجميل ، والدم العزيز ، والمال المبدول ، والمساكن المترفة . وقدما كانت العرب أمة ضائعة المكانة ، لما كانت مفقودة الاحساس بسمو نفوسها ومواهبها ، مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مدحجة فيها ، عابدة للحقير والجليل منها ، حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكلب ويربوع وحنظلة ، إلى آخر أسماء ما يحيط بهم ، وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين فلما أيقظهم موقفهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها ، فلا يليق بها أن تلتبس لشيء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن تبتغى

إليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم إليه قرباناً من دماؤها ودموعها وسائر
قُرْبَاتِها ؛ بل يجب أن تبتغى بذلك كله وجهاً أسمى وقدرة أعظم ، لاتدركها
الآبصار ولا تستوعبها الأفكار . . . حين هذا بدا السراخفى فى هذه
النفوس الضائعة ، واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضاً فى الآفاق ،
ومضى أفرادها إلى فجاج الأرض ، حاملين رسالة ، وموطين دولة ،
ومقيمين حضارة .

وها نحن أولاء نرى « الهندوس » يأتون فى عبادتهم للأبقار
والحيات وكثير من الحيوان ، مخازى وسخافات تلمطخ وجه الانسانية بالحياء
والخجل والعار . . . كل هذا لأنهم توهوا أن فى البقر والشعابين سرّاً
وروحاً مقدساً يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهم فى الشوارع والبيوت
والطرق ، وهاموا وراءها ، وأكلوا روثها ، وشربوا بولها ، وتقربوا للشعابين
ورحبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابها ، وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار
التي تترك حتى تشيخ وتصير عشاً للجراثيم التي تنتقل منها إلى عابديها
وساكنتي بلادها . . . والأبقار المسكينة فى ذهول وغفلة عن قُرْبَات هذا
الانسان الضال وتقديسه إياها . . . فهي تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه .

وهكذا كان الانسان فريسة للالوهام وعبادة الأحجار والأبقار
والجملان والقطط والحيات وغيرها ، حين لم يكن مؤمناً بنفسه وطيد
الثقة بها ، فاهما أن جميع ما فى الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته .

ولست أدري من منا الذى أوغل فى لفائف الصوفية وشرودها
أنا أم صديقى زكى ؟

إن صوفيتي مادية تؤمن بالعالم ، وتعترف بدولة الأجسام ، ولا تشرد وراء الأوهام ، فلا تتخيل أن الانسان العظيم الحصيم المبين المفكر المبتكر ، مخلوق ليكون طعاماً للبراغيث والبعوض والقمل . . . وإنما تعلم أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الانسان على تنظيف جسده وثيابه ومسكنه وبئشته من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة . . . فلولها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل .

وقد كانت هذه الحشرات تعيش في الأصل على النبات والحيوان ، ثم لصقت بجسم الانسان وتطورت بلصوقها به . فلا يصح أن يقال إن الانسان خلق لأجلها .

وصوفيتي لا تخيل إلى « أن سر الوجود يستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الانسان والقرد والأفعى ! » كلا . . . هناك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله في الجرثومة ذات الخلية الواحدة ، ذات الوظيفة الواحدة ، وبين استعلانها في الانسان ذى الخلايا التي لا عدد لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة في مجاميع ومنتجة حياة كلية . هو كالفرق بين جُزىء صغير في قالب حجر موضوع في عمارة من ناطحات السحاب ، وبين العمارة نفسها بما فيها من زخرف وزينة . . . وفي هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل .

نعم إن الجرثومة شيء ثمين عظيم كأول خطوة في سبيل الحياة . . . ولكنها لن تبلغ مبلغ الانسان الذي هو آخر خطوات الحياة وحلقها النهائية كما تقول نظرية النشوء .

وما أعتقد أن خالقاً عظيماً حكماً ، يخلق كرة أرضية هائلة ، ويجعل فيها رواسب من فوقها ، ويجري فيها بحارها وأنهارها ، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمل أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها ، يستطيع أن يضع الحمل بجوار الذئب والأسد بجوار الغزال ، وكل عدو بجوار عدوه ، كما هو الحال في حدائق الحيوان . إن الحياة حينئذ تكون عبثاً وفيضاً لا يتلقاه أحد يعي ويفكر ويعمل في الأرض عملاً مجيداً .

وإن الصوفية التي تقول بهذا ، ماهي إلا شرود وراء الأوهام وعدم الإدراك لغايات الحياة والتميز بين آفاقها .

إنها صوفية كصوفية « أبي العلاء المعري » المريض شاذ الطبيعة الذي يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً !
كلاهما يتوقى والحياة له غريزة ويروم العيش مهتاجاً
ولنتصور الناس جميعاً على مذهب أبي العلاء وبعض متصوفة الهند .
لا يأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا يستغلون سائر منافع الحيوان ،
ويتركون البراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات
والسباع والبهائم حرة طليقة في الحياة ، ما دامت الأرض ميراثاً مشتركاً
بينها وبينهم ، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة ، وما دام « سر الوجود »
قد استعلن فيها استعلاناً في الإنسان ... فماذا تكون النتيجة ؟

هي فناء الإنسان بفناء أقواته التي تأكلها قطعان الأنعام والسباع

وعَراجِل الحمير وأَسراب الطير والحشرات وغيرها . . . هذا إن عاشت
وعمرت دهرًا ، وإن تركته ولم تأكله وتدمر حياته . فإن فنيَت ،
فالأرض خراب . . .

تساءل صديقي على لسان إحدى حشراتهِ : مَنْ ذا كان يستمتع
بمنافع الكائنات في الأرض قبل ظهور الإنسان ؟ .

وأجيبُ : كان يستمتع بعضها ببعض ، ويعيش بعضها على بعض
كما هو الحال الآن . . . فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النباتات ،
والحشرات يعيش بعضها على النبات ، وبعضها على الحيوان . . .

واسكن ينبغي أن نعلم مايقوله العلم من أن الحياة الحيوانية على الأرض
لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الإنسان . . . نظرًا
لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التي لم
تكن تسمح بحياة كائن ضعيف ، فلما استقرت القشرة الأرضية قليلاً ،
وهذأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة بعض
الصالح ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ، ثم انقرضت بفعل
الزلازل والفيضات واختلافات الطقس . . .

ثم سرت الأرض بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع
التي نراها تعمر الأرض . . . وكان كل هذا تمهيداً لإخراج ذلك النوع
الذي صار خليفة الأرض ، وفتح أغلقها ومخرج أسرارها . . .

وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها
معترض بأنها ضاعت هباء . . . فإن أيام الله ليست كأيامنا ، تقاس بالسنين

الشمسية والقمرية ، بل هي دهور بالنسبة لنا ، ولكنها لحظات بالنسبة
للذى خلق الأزمان ، ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها . . . والله
أعلم متى ينضج الثمار

* * *

زعمت فراشة الأستاذ ، أن علم الإنسان وأخلاقه هما سر تبيحه ودعواه
الامتياز ، مع أن علمه يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، ومع أن
أخلاقه فى مثلها الأعلى الذى تحلم به ، هى دون ما يسود ممالك النمل والنحل
من أخلاق ...

وأنا أنكر إنكاراً باتاً أن يكون فى غرائز الإنسان نقص يحتاج إلى
تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل . . . وإنما أرى أن غرائزه التى
تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن
يعيش بها فى مفتتح حياته وتكفيه . . . فإذا نظرنا للعالم على أنه نتيجة
لغريزة حب الاستطلاع فهو إذاً أثر من آثار هذه الغريزة ، ولكن
لا يقال إنه تكميل لها ، إذ لا نقص فيها ...

العلم نتيجة لهذه الغريزة ، كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية . وحب
الاستطلاع غريزة مشتركة فى جميع أنواع الحيوان ، ولكنها فيما عدا الإنسان
محدودة بحياة ضرورات حياة الأنواع ، وفى الإنسان لا حد لها . ولذلك
أنتجت للإنسان علماً زائداً عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أى حيوان .
وهذه القابلية الطبيعية الدائمة فى هذه الغريزة ، هى التى أنتجت نمو علم
الإنسان وفكره ونمو الحياة به دائماً ...

والانسان الفطرى المحدود الذكاء ، يكاد يعيش بالفريزة وحدها ، فهو لا ينوع ماورثه من الحياة ولا يزيد عليه ، ولا ينقص منه كثيرا ؛ وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال ...

فغرائز الإنسان التى تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية .

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الطبيعة ...
فأقول بأن علم الإنسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، قول غير مفهوم ...

وأما أخلاق الانسان الحالية فلم أَدافع عنها ، بل نعتت عليها من بعض الوجوه واعترفت بفسادها وقصورها إلا فى قليل من الأمم ، وهى التى أدركت أن للحياة الإنسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها ...

واعتقادت أن الدولة كائن عضوى يسرى عليه ما يسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضرر ... الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شئ فاسد ولو كان ظفراً وإلا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح ، بل يجب أن يصح كله ...

والقلب فى الجسم يقذف الدم إلى كل خلية لتجيا ، وكذلك يجب أن يقذف « قلب الدولة » إلى كل فرد غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة .

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين ، يتلقى الرغبات ويصدر

الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها ...
فإننا لم أشد بأخلاق الإنسان الفردية الحالية ، وإنما أشدت بعلمه
وفتوحه في مجاهل الكون ، وأريد من وراء هذه الاشارة بقظة النفس
الدائرة مع الحديد البليد القاسى في غير وعى وإحساس ، إلى آثارها
وتفردتها بين الكائنات ، حتى تعلم وضعها الصحيح . فتصلح من أخلاقها
والواقع أن أخلاق الإنسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره ، بل
لا يزال يعيش بموارث التاريخ السيئة المغلوطة ، ولم يجد له في العصر
الحديث زعماء انقلاب في روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب في ماديته ..
فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى في حياة الإنسان لم يصحبه
انقلاب نفسى يجعله يصفى تركات الماضى في الأخلاق ، ويتحرر من موارث
التاريخ السيئة ، ويقم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التى
أقامها في مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الإنسان بالإنسان ، وأدرك مدى الرحلة التى رحلها في الحياة ،
والخطوات التى سارها في التاريخ ، ومركزه بين الكائنات كخليفة في
الأرض خلف الله على مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان
في الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله
ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والإنشاء والافتنان إلا وهو
به حَقِيقٌ ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، وإياه مسدد وموفق ، ولتطوراته
مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ؛ لو آمن بهذا كله لأسرع إلى إقامة

الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه ، من العدل الموزون ، والرحمة السابغة والتوزيع الكريم .

فإذا لم يذهب الإنسان إلى هذا طائعا مختاراً كما فعلت أمم الشمال في أوربا ، فسوف يذهب إليه مكرها بالحديد والنفار في يوم أحسبه قريباً ...

مِلْ ، يديّ الاثنتين نعوص من القرآن ، تثبت أن جميع ما في الأرض خلقه الله للإنسان ، وخوِّله إياه ، واستخلفه عليه ، وجعله متاعاً وتذكيرة له ، واسكنني آثرت أن أقدم حججاً من الفكر الطليق ، والنظر الحر ، والعلم المعصرى ؛ حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين ...

مسرح هائل

وممثل واحد !

نظرة واسعة — من الحياة ؟ — ممثل مجهول ... — زواج الفكر
بالمادة — أعماق الكون — الحياة هي الإنسان — الباقيات — أمومة
الأخلاق وأبوة العلوم — نوعان من الرجال — المعكازتان ...

في السماء : كل نجم عليه غشاء سَرْمَدِيٌّ من السكون ... ولو أقيمت
نظرة على النجوم والكواكب ، لم تر شيئاً إلا لحظة عينك أنت ، واختلاج
ضوء يكاد يكون من خداع النظر ...

وفي الأرض : كل شيء يسير في حركات محدودة وسنن مطردة ، وتكاد
لا تسمع إلا أصوات هَبّوات الريح ، أو لطحات الموج ، أو أصواتاً تظهر
من تلاقى الريح بالأشياء ، أو عبث الأمواج بالأشياء ... وما عدا ذلك
فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح
أن تلحقها بعزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار ، أو هدير
الأمواج ، ذلك الصوت الواحد المكرر على توالي الأزمان .

ولا ترى إلا تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار ، وربيع وخريف
وشتاء وصيف ، ورياح وأمطار ، وفيضانات دورية ، وأرحام تدفع وأرض
تبلع ، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك ...

تلك هي الحياة في الأرض من غير الإنسان ... لا تجديد في أساليبها

ولا تنويع ، الا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار ، والجُدد
البيض والحمر في السفوح والجبال . وإلا ما تنقله الرياح والمياه في دوراتها
من مكان إلى مكان . وإلا ما توزعه قوى الطبيعة بالمسكيات الوافى
والوزن الواسع ؛ فلا يضاف للطبيعة شيء لم يكن منها ، ولا يقلقل فيها
شيء من موضعه ، ولا ينقح فيها شيء يستحق التنقيح .

إذا لمن هذا كله ؟ لمن الليل والنهار ، وهذه الآلات الهائلة التي تدار ،
والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار ، والأنهار والجبال ، وألوان
الشفق في الأصائل والأسحار ؟ أهو للحمير والقروود والنمور والثعالب والقبيلة
والآساد والفهود والثعابين والخفافيش والبوم والحشرات والديدان ؟ !

كلا ! ليس في هؤلاء من يصح أن يفقه شيئاً من ذلك الإبداع
والجمال ، ولا أن يسند إليه الدور الأول في رواية الحياة ... وإنما هن
أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ، ودواب لحل الأدوات والآلات
إليه ... أو إن شئت فقل إن هؤلاء «حروف» في أبجدية «الأسماء» التي
يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التي يمثلها ممثل آخر ... ممثل لا بد أن
يكون حراً يذهب في أى اتجاه على المسرح ، ويجدد في التمثيل والإخراج
كل يوم ، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ، ويتمثل فيه الابتكار
الذى يجعل رواية الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظائر من سكان
السماء ، وسكان الأرض من الراصدين الواعين .. ويحشر كل شيء في
تمثيل أدواره ، ويضع عقله وقلبه على كل شيء ...

ومن هذا غير الإنسان ؟ !

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية ، فجعل

أفئدة من الناس تهوى خدمة شيء ، وأفئدة أخرى تهوى خدمة شيء آخر ، كي لا يتعطل أفق من آفاق الوجود من غير نظر إليه وتفرس فيه ، ولكي يزاحج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام عليها ، وتبين حكمته المخبوء وراء أسرارها ، وتطلع العقول على فنه وإحاطة علمه بكل شيء

قانون المزاوجة هذا أيضا : فبين فكر الإنسان وبين أسرار المادة زوجية تنمج علماً أو فناً أو إحساساً أو شعوراً ...

فالأرض من غير الإنسان هي ذلك البيت الصامت ، وذلك الدولاب الدائر ، وتلك الدورات الأبدية التي لا غاية لها ، ولا يد تتلقى فيضها وتنفع بقواها ، ولا أطراد في ارتقائها ، ولا تغير في أوضاعها ، ولا زيادة فيها ...

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة ؟ وأين الباب إلى ماهو أعظم وأوسع ؟

إن عمق النفس هو الذي يؤكد سعة الدنيا وتنوع المناظر . فإذا خرج المرء من عمق نفسه ، خيّل له أن الوجود في وحدة قوانينه وتشابه دوراته ماهو إلا شيء محدود ...

والإنسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه ، وعرف الطريق إلى الكمالات والصور التي لا تنتهاى لما عرف باطن نفسه ، وخرج إلى عالمٍ أرحب وأوسع لما أطال النظر في نفسه . وما عرفت الإنسانية جلال الله ، ولا تبينت صفاته وتوضحت لها

حكمته ، إلا من عقل الانسان الفائق الذى أطلال النظر فى الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة ، وأطلال النظر فى النفس ذات الدورات غير المحدودة ، وزواج بين هذه وتلك .

وهذا يُسلّمنا إلى أن نقول : إن الإنسان هو الحياة الأرضية بالمعنى الممقد المركب غير المتناهى ...

ولا حد للحياة إذا التقت الطبيعة بالعقل الإنسانى الذى الحساس الفكر .

ولا دخل للطبيعة إلا فى تقديم المواد الخامة إلى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنويع ...

ويخيل إلى أن فى روحه ميراثاً خفياً من نظام عمله نظام « الجنة » وجمالها وراحتها واتساعها . ولعله يحاول بعد طرده منها أن يوجد صوراً فى الأرض ...

وإذا كان كل شيء فى هذا الوجود يرمز إلى معنى بسيط ، فإن النوع الإنسانى يرمز إلى جميع أنواع الحياة وألوانها ، مضروباً بعضها فى بعض ، كما يضرب عدد هائل من الأرقام فى نفسه ، من الواحد إلى آخر العدد إن كان للعدد آخر ...

فالإنسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كاه ، ليحدث من التقاء كل شيء بكل شيء منفردتين نتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض ، نتائج وصورة معقدة ، لا يمكن تفريها إلا للعقول الكبيرة التى لا تنكاد تدركها إلا بالوهم ، أو بالذهن

الرياضى صتياد الأخيـلة والأحلام والفروض . .

وَعَمَّارُ عالم الفكر بتلك المعاني الناتجة عنه هو ، وتنوعُها إلى ما لا نهاية له ، أمره مُعْجِب ! وخصوصاً إذا تصورنا أنها معان محدودة بمحدود الروس البشرية ، معدومة في غيرها ، إلا إذا خرجت وتجسدت وتشكلت في قميص مادي .

تُترى ، هل هي ذات وزن وحياة عندالله الكبير ذى العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهل هي على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذاتُ قِيمٍ عنده ؟ أم هي مَلَاهِ وسلويات لذلك النوع المدلل في الأرض ، تموت معه وليس لها في سجل الوجود أثر بعده ؟

إن تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التي تتداول عقول الانسانية ، كاف وحده أن يقذف في قلوبنا الايمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ، ويمجنى ذلك القِطاف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية في الانسان .

أُسْرَتَانِ اثنتان من أفكار الانسان هما الباقيتان ، فيما أرى ، على وجه الزمان في سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلقية ، وأسرة الأفكار العلمية التجريبية .
والأسرة الأولى هي التي سددها إلى غايته ، وهيأته للخلافة في الأرض وتحدّرت في أعصابه ، وأيقظته إلى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه . .

وإلى تلك الأسرة ينتمى الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للإنسان ونزل إليه وحيا .

والأسرة الثانية هى التى مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهى التى أنمت ثقته بنفسه ، وأظهرت آثار وجوده ، وجعلته متصرفاً فى المادة بما لا طاقة لغيره من الأنواع به .

والأسرة الأولى كانت الأساس فى بناء الحياة المدنية ، وإتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع فى حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس فى توجيه روح الفرد إلى المثل العليا ، وبناء مكارم الإنسانية .

وقد استصبحت الإنسانية بأنوار الأنبياء بُنَاة الأخلاق ، قبل أن تستصبح بأنوار « العلماء » بمئات القرون . . وكانت الأخلاق للحياة يمكن الأمم الرحيمة ، تنمو فى رعايتها الطفولة وتُشَبِّ وتُرْشَد ، وكانت العلوم يمكن الأبوّة الساعية الجاهدة .

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين فى أطواء الروح الإنسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقين إلى إدراك سموها وتفردها ، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية ، الرائدin بأبصارهم وبصائرهم كل أفق فى الأرض والسماء ، المستنزلين لها أسرار السماء بالإخلاص والبكاء . . . وهؤلاء الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود

الكشافات والسدود والقيود المادية ، بل أَرْحَبُوا وَأَفْضَوْا فَأَتَوْا بِالْخَيْرِ
والتفاؤل والاطمئنان .

والنوع الثانى هو نوع العلماء المخترعين الذين يزدون فى وسائل
راحة الأجسام ، ويخففون المشقات والآلام ، وينموت قوة الخلق
والتقليد فى يد الإنسان ، ويزيدون صور الحياة بالتنويع والترصيع
والتوشيع والافتنان .

وإن كان النوع الثانى هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن ،
لكثرة مافتح عليهم من بركات الأرض ، فينبغى ألا ينسى المفكرون
أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الإنسانية ، والآخذ بيد البشرية
حتى بلغت دور الرشد . وهو الأكبر خدمة ، والأبعد أثراً ، إذ هو الذى
بعث فى النفوس طمأنينتها على قيمتها ، وأيقظها لذاتها ، وأرشد لها
لذخرات روحها وعقلها ، وهو الذى أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع
وما تنتظر .

وستستحيل كل بركات العلم إلى آفات ونقم وشُرور ، إذا لم تتذكر
الإنسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقيم حياتها الجديدة على أسس
ما أنفوا أعمارهم فى وضعه وتوسيده ، وما قُتلوا وصُلِبوا فى سبيل
إعلانه وتشيده .

غير هاتين الأسرتين للسالفتين من الأفكار فهو زَبَدٌ يذهب جُفَاء

هو باطل لاحقيقة له ثابتة دائمة . هو صور عابرة لتسليمية النوع في جهاده
وتخفيف إعذاته .

ويخيل إلى حتى درجة الظن ... أن فكر الإنسان لا يجدى عليه
شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد في عالم أخلاقه ، أو في عالم المادة للانتفاع
بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها واستخدامها ، وأنه ما وضع في
الحياة موضعاً أصيلاً إلا في هذين الموضعين ...

فمعرفة بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوى الذى ليس فيه عقبات
وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقائيل الطفولة ، وتفرغه للعمل المثمر
الدائم في المادة .

ومعرفة بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها ، وتنتج له
بركات من السماء والأرض ، وترقيه وتفرغه للعبادة بالفكر والعمل .
أما فترات التفلسف النظري والهيام وراء البدوات والفروض ، فتلك
لا محصول وراءها ، أو هناك محصول ضئيل .

هاتان عصوان لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونهما خطوة واحدة ،
وإنما يدور على نفسه كما كان في العصور الأولى ، ولو كان في
القرن العشرين .

ولا يعيش بإحداها ويترك الأخرى إلا أصيب بالعرَج والتعثر .
فأمم الروح بدون علم وعمل في المادة ، أمم بائدة مستضعفة معطلة
القوى ، محدودة الحياة ، مسلوطة الحقوق .

وأَمِّ العلم بدون الروح ، سباع ضارية ، يأكل بعضها بعضاً وتأكل غيرها ، ويتجه كل علمها وفنها إلى خدمة الشر والإثم ، وتستحيل بركات العلم فيها إلى نفع ، كما يتجه كل العلم والهندسة في الشوكة إلى قتلها الحادة وكما يستحيل الدسم في الطعام إلى سم إذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه .

فبعت ثقة الانسان بنفسه ونوعه هما العلم والخلق معاً . فالأول يريه أن فكره ، موضع تجلي أسرار الله في التكوين ، وإن الله يُدبِّحُه به كثيراً من أسرار ملكه ، لأنه مفتاحه ، ولأنه يعطيه من القدرة ما به يكون وينحرب ويشعر أنه صاحب سلطان .

والثاني يريه أن قلبه موضع إلقاء أسرار رحمة الله وعدله ورأفته وجماله وطهره ، وموضع إلقاء كثير من الأذواق الموجود من المعاني والصور . والأذواق هي الحياة في الواقع ، فالصور الفكرية المادية بدون أذواق ، أجسام ميتة . الذوق هو الذي يحياها ويحددها ويدخل معنى الحياة الى القلوب بها .

وقد نرى الشيء يوماً حسناً ويوماً قبيحاً ، بينما هو هو لم يتغير ، وإنما تفسير ذوقنا له . والواقع أن قلب الانسان هو مكثف مشاهد الأرض بالنسبة لنا ، ولولاه لذهب الجمال والفن .

الانتظار !

الطبيعة تنتظر — عالم جديد من الفكر والحديد —
حيوانات ووحوش حديثة — قدرة الفكر — الثقة
بالإنسان — كنوز مدخرة — حياة عريضة

كل شيء في الطبيعة يبدو عليه انتظار غاية الحياة الإنسانية ، ويبدو
على الإنسان كذلك انتظار غاية مجهولة في حياته على الأرض . . .
كل شيء ينتظر بلوغ الإنسان إلى غايته ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ
طفل عزيز . . .

وكل شيء في البيت مسخر للطفل : تعرض أمامه أشياء البيت
وحيوانه ودواجنه ولعبه . . .

وهكذا أرى الطبيعة تنتظر صابرة غير متعائلة أن يسير هذا
الطفل ويهتدى إلى الطريق المقصودة المرصودة . . . وهو لا يزال يتعثر
ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتد وينتفكس ، ويمتلك ويمترب ،
ويُخلد إلى تراب الطريق يعث فيه في ذهول وغفلة ، لا يعرف كيف يمد
بصره إلى حدود الأفق البعيد الذي يناديه : انظر إلى دائماً ، واضرب
بيديك ورجليك في العقبات والسدود حتى تصل .

وكان لعبته وتلبيته عذراً فيما مضى ، أيام كان يدور على نفسه وسط
المهمات والأغاز ، وأيام كانت طريق حياته ملتوية مُعْتَمَة ، تُلْفُها جهالات ،

وتحيط بها أهوال . . . كل ما فيها غامض مغلق ، سواء أكان جامداً أم
حيّاً ، صائغاً أم ناطقاً أم ساكناً . . . فهو لا يرحم سائلاً ولا يجيبه . . .
كهوف وأغوار ، ورياح مجهولة المهاب ، وأمطار غير مدفوعة بتدبير ،
وصرخات وحش وطير وبهايم ، ونجوم تطلع وتغور ، وشمس تشرق وتغرب ،
وجبال واقفة لا تريم ولا تزول ، وما لا عدد له من الأهوال والأحوال . . .
والكنه الآن راكب الريح والماء والأثير ، وطاوي الأرض في
خطافات ، ورائد السماء بالمقرّبات ، وكاشف الجن المستور بالمكبرات ،
وقائس أبعاد النجوم وأضوائها بدقيق المقاييسات ، وصانع « الحيوان »
و« الوحوش » الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والطاقرات
والماخزات والغائصات ؛ فلا يليق به أن يصر على العبث والزحام على
التراب بمد أن رأى السكنوز في كل أفق تنفتح اعينيه . . .

وكان قدراً مقدوراً أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ
أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليداً لها ومحاكاة لنماذجها . . .
فحين عجز الحصان وضاعت طاقته عن إشباع شهوة السرعة عنده ،
ركب آلات سرعتها كذا ألفاً من الأحصنة . . .

وحين عجز الزيت والشمع عن إشباع شهوته للضوء صنع مصباح
الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفاً من الشموع . . . « وحين هدد بفناء
أقواته ولباسه ابتداء يركب أقواته من العناصر التي يتركب منها النبات
واللحم . . . وصار يصنع الصوف والحريز من اللبن والخشب . . . وصار يأخذ
الزبد والدهن من الـ . . . بمد أن يحلل ويعزل ويطهر بالترشيح والتبخير

والتكثيف ، كما ترفع الشمس والهواء الغازات والأمواه المقطرة من الأبال
والأقذار ، وتعيدها إلى الأرض صالحة في دوراتها الأبدية . . .

وقد رصد لكل قوة في الطبيعة مقياساً يقيس قوتها ، ويبين اتجاهها ،
حتى يحترس منها ويتقى وينتفع . . . فلأمطار مقياس ، وللضغط الجوى
مقياس ، ولاتجاه الرياح مقياس ، وللزمان مقياس ، والمكان مقياس ،
وللحرارة والرطوبة وغيرها مقاييس .

وأظنه بهذا ، قد وضع عينه وفكره على حركة كل شيء واتجاه
كل شيء في الطبيعة . وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التي ابتداءً
يطرحها على قوى الطبيعة التي تنفعه أو تضره في مرافق حياته . . . وهذه
الأرصاء التي رصدها لابد ستنتج له عالماً فكرياً جديداً يجب أن يسلم
روحه إلى عالم روحى جديد .

أجل ، إنه عالم جديد من الفكر والحديد . . ! الفكر المطلق البارد
القائض لأسرار المادة والقوة . . . والحديد الطائع البليد القاسى المتمم
لإرادات الرجال . . . الذى وجد فيه القلب الإنسانى أعظم معبر عن بأسه
وتصميمه فى اختراق السدود ، فصره وشكله بنار غزوه ، قبل أن يصهره
بنار كبره ، ويشكله بمطرقة .

واقدر ضمرت أظفار الإنسان منذ أن اعتمد عليه . وكان كشفه مبدأ
انقلاب فى حياته ، والآن يبتدىء به انقلاباً أعظم ، بعد أن ساط عليه
خياله وعلمه ، وصار بطير به ويرحف ويدفع ويمجر .

وهل تظنون أن هذه الأهوال التي يشهدها الإنسان الآن لا تترك في نفسه آثارها المحتومة فتخلقه خلقاً آخر ؟

أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرها رؤية هذه الطرق الحديثة في البناء والإفناء والهدم والسرعة والانقراض والحشد والتعبئة ومعاشره هذه الوحوش والحيوانات الحديدية ؟

إن من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التي أظهرت قوة الآلة واختفى وراءها الإنسان ، يوقن أنه ستختفي بعد هذه الحرب أشياء وتظهر أخرى ...

وأتوقع ألا يقام للفردية والأنانية الشخصية والقومية بعد هذه المرحلة وزن ، بعد أن رأى الفكر أن ملايين من الجماجم والقلوب البشرية تُسحق وتُحرق بمصهور النار ، وملايين من المعابد والمعاهد والمنازل المقدسة العامرة بالتحف ومخلفات العلم والفن والجمال ، تنسف وتُذرى في الريح هشياً وهباءً ودخاناً ...

لقد احترق الإنسان الأوربي مع جميع ما جمعه من الذهب وأقامه من البيوت والمحاريب والتماثيل ...

ولقد اختفت ملابس روح الحياة الرفيعة الهادئة الضعيفة المائلة في اللحم والدم والأعصاب والإحساس ، وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد يكاد يكون غير مصحوب بإحساس ...

وقد لبس الفكر أجساماً من المادة العمياء ، وكأنه قد انفصل عن الأجسام الإنسانية ، واختبأ واستسّر في السيارة المصفحة والدبابه والطائرة .

وصار يدبّ ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذى يختفى فيه جسم واحد . فهو الآلة كالروح والعقل فى الجسم الحى . وقد صنع الآلات أحشاء فيها حرارة ونبض ، ولكن ينقصها السر الإلهى الذى فى « الأميبة » ذات الخلية الواحدة ، ويخيل إلى أن الإنسان هو ذلك السر الإلهى لتلك « الحيوانات » الحديدية !

وحين قصرت دواب الأرض التى سخرها فى خدمته عن سرعة عقله ، صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويلبسها أجساماً من الجاد ، ويسيرها بها بطاقة عظيمة مصحوبة بفكره وتسديده . فهى أطوع للإنسان من الحصان ، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره . وآخر خطواته فى هذا الطريق الآن هو استخدامه اللاسلكى فى إدارة الآلات والسيطرة عليها ورصدها وملابستها بفكره من بُعد . . . ولا ندري ما يأتى به الغد من أعاجيبه فى هذا السبيل .

والفكر المجرد طليق فى غير حدود . والوجدان والاحساس مقيدان فى حدود الأذواق والمشاعر . فإذا لم يصحب الفكر بالوجدان والاحساس اخترق الإنسان به الآفاق فى سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب ، بل هو أسرع من الشعاع . بل ليس شئ أسرع من الفكر

ولقد يخيل لفكر الإنسان أنه يستطيع أن يضع يده فى النار فلا تلتحقق ويمشى برجليه على الماء فلا يغرق ، ويسلم جسمه لاريح فيطير ، وينظر بعينه وراء السدود فيرى الآفاق . فالفكر لا يرى كل أولئك مستحيلًا . .

ولكن الوجدان والاحساس يقيدانه بالحدود الموضوعية للمادة ، ويهددان الجسم بالآلم إذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين .

وقد خيل الفكر لبعض « السفسطائيين » اليونانيين القدماء ، أن كثافة الأجسام وهم من الأوهام ، وأقام الدليل النظرى لمعارضيه على ذلك ، فتحدّوه أن يخترق بجسمه الجدار الذى أمامه ، فقام واندفع اليه بقوة ، وكانت النتيجة المحتومة : تحطم جسده وفدّخ رأسه .

إن فكر السفسطائى لم يخطئ ، فى توهمه استطاعة اختراق الجدار ، ولكنه أخطأ حساب الوجدان والاحساس . والحقيقة أن الفكر لأحدود له مادام يسير وراء القوانين الطبيعية .. فلقد استطاع أن يخترق الجدران والجبال بالصوت والصورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعية فخفضت هى له كذلك . ولست أدري أقرب أم بعيد ذلك اليوم الذى يستطيع الانسان فيه أن يخترق الاجسام بالاجسام ، مع وجود الانتقام وعدم الصّدام ، وأن ينقل الأجسام من مكان إلى مكان كما ينقل الصور والحركات والاصوات ، وبالسّرعة ذاتها التى يجرى بها هذه المدهشات ؟ !

إن الثقة بالعقل الانسانى بعد أن فعل ما فعل فى تغيير الأرض ينبغى أن تكون من البدائه ، للانتفاع بها فى بناء الحياة الجديدة .

وكما آمنّا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ، ينبغى أن نؤمن بعلم النفس لتنظيم حياة الأرواح .

وقد كان الانسان فى الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسه ، إسكثرة ضغط عوامل الطبيعة عليه ، وكثرة العقبات التى تعترض مسيله وتجعله

يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية .

ولكنه بعد أن تمكن من صنع أغلب الأشياء لنفسه ، والانتفاع
بأكثر القوى ، والمناعة ضد الأوباء والطوفان والقحط والصواعق ، يجب
أن يكون إيمانه بعقله إيماناً أصيلاً ليصنع به مستقبله صنفاً يريجه ويرقيه
ويجمله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادراً هكذا . . . !

إن الإنسان يأتي بأعمال عظيمة في صميم غايات الحياة وهو عنها غافل
لا يدرك ماذا تكون نتائجها في مستقبله ومركزه .

وإن مصانع « الولايات المتحدة الأمريكية » وحدها مثلاً تخرج في
كل دقيقة سيارة كاملة ! هذا جبروت وملاكوته إنسانى واسع يفتتح أمام
عيون الراصدين لحركات الإنسان .

فهذه السيارات « حيوانات » حديدية ، تولد كاملة من « أصلاب »
المصانع و « أرحامها » ! ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة الحيوانية ، وإنما
تسير بسرعة الفكر الإنسانى كما قدمنا في هذا المقال .

وهى وأشباهها مما نتج من اللقاح بين الفكر والحديد ، قد ملأت
الأرض وأدالت دولة الخيل والبغال والإبل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك
الناس أن يحتفظوا بها في المتاحف أو حدائق الحيوان .

في كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولعة شعاع ، وخفقة نسيم ، كنز
مدخر لمستقبل الإنسان على الأرض .

فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك

الذين يشيرون الحروب من أجل الطمع والاعتصاب « أن تكون أمة هي أزبى من أمة » .

وليسلموا قياد الإنسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم في الأرض والماء والهواء والشعاع .

ولنأخذ الحياة عريضة ، بالانتفاع بكل ما في الأرض ، وباستعمال جميع قوى الإنسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز ، وباستنزال كل معلق من الشعاع والماء والهواء ، وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شيء أمام كل شيء لينشأ من الأوضاع المختلفة التي لا عدد لها ، حيوات جديدة معقدة لا عدد لها ، يترقى بها الفكر والحياة ويفزُر فيضهما ، وترحُب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها أن الكون مليء بالأسرار وكلمات الله التي لا تنفذ !

منابع الفكر ومصابه !

انتقال أسرار الطبيعة إلى الفكر — من أمارات جبروت الفكر — من عجائب
حيرته — خليفة القهار — إدراك المادة ثم النفس ثم الله — لا عمق في
العالم المادى — للفكر مجال مؤقت ومجال منتظر — باب مفتوح وباب
مغلق — مضى عهد مضغ الكلام — لاسدود أمام الانسان — الطبيعة
هى الحكم فيما يمكن وما يستحيل — تربية تعلم غزو الطبيعة — الطبيعة
الطبعة — عصر الاحساس بقدرة الفكر — أسئلة يجب ترديدها دائماً

يرى الفكر البشرى نفسه وحيداً كملاح تائه وسط هذا الكون
الفسيح ، وليس له إلا دليله الخالص الذى أخذه من نواميس متحدة
فى النفس وخارج النفس .

وقد ألقت الطبيعة أكثر صورها إلى فكر الإنسان ، وانتقل إلى
ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يتلذذها ويصنع فى
موادها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحرير ، ويسلط
بعضها على بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين
والتخريب فيها .

وقد وصلت يده إلى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن فى
الذرة والكهرب ، ليعرف المبادئ الأولى للمادة والقوة ، والدفعة الأولى
التي ابتعثتهما ودفعتهما ...

ومن أمارات جبروت الفكر البشرى أن يحاول فى كثير من

الأحيان أن يتدخل في تخطيط الكون ، ويرسم له صوراً مبتدعة ،
ويقترح له وجوهاً أخرى غير ما هو عليه !

بل هو يحاول أن يفرض نفسه غريباً عن الكون ويدخله كمتفرج
من عالم آخر ، فيحكم عليه ويصفه ويعجب به ، وكأنه موفد من عالم آخر
وكان له كيانه يستمد من منبع غير طينة الكون المادى .

بل هو يحاول أن يحكم على الله العلى الكبير بمقتضى إدراكه هو !
وكانه يفرض أن علمه بقوانين الرياضة والميكانيكا والجمال والتكوين ،
سابق على الكون ذاته !

إن هذا يدل على أن الفكر البشرى عميق المآخذ والمصادر .
ومرئاً جميع هذا ومنشؤه ، أن فيه سرا من روح الله الكامل
القادر العالم الجبار .

ومن عجائب حيرة الفكر البشرى ، كشفه عن حيرته ذاتها في
تعرف القانون المادى العام الذى يسير الكون ، وتردده بين الأخذ
بقانون « السببية » الصارم ، وبين مذهب « الاحتمالات » الذى يقول به
بعض علماء الطبيعة فى العصر الحديث . وهذا يكشف عن أن وضع الفكر
فى الكون هو وضع المتفرج الحائر الذى يدس يده فى مصانع الله التى
يصنع بها الطبيعة وظواهر الوجود ، فيدهش .

ولعل فى ذنبه الفكر بين الأخذ بالوجهين حملاً للفكر نفسه على
الافتراء ويضل فيجعل الخالق نفسه خاضعاً لقوانين الطبيعة فتتحكم فيه كما
تتحكم فى غيره ؛ أى أنه يجب أن يعلم من خلال حيرته بين القولين ، أن

بارىء الكون قد يجوز أن يسيره بقوانين متناقضة ليبرهن على أنه تعالى غير خاضع لأحدها . فهو يخاق بالقانون وتقيضه في الوقت ذاته .

وإن وضع الفكر في الكون هذا الوضع الحر الحاكم المتردد في أحكامه ، المدرك لوجوه الصنعة المختلفة المتناقضة الأسباب والتعليلات ، لدليل على أنه من روح الله الذي لا يخضع للكون المادى وقوانينه ، لأنه هو خالقه وخالقها . فالفكر كذلك قد جعله الله على شاكله مصفرة من روحه تعالى ، أى أنه يعلو فوق مستوى وجوه التناقض الذى قد يبدو لبعض العقول ، ويفتفع بها جميعا .

هذا على فرض أن مذهب الاحتمالات صحيح وأنه ليس [موددة] يقول بها بعض علماء الطبيعة .

وفى رأي أن قانون السببية هو القانون الذى يعمر الكون كله فى أعماقه وظواهره ، ويتفق مع منطق الحياة على الأرض ومنطق الانسان العام ، ويحفظ على الفكر البشرى يقينه وألفته فى أحكامه ، وتنتفع به الإرادة البشرية والجهد الانسانى ، بخلاف مذهب الاحتمالات الذى لا يورث إلا الشك والحيرة والذبذبة وعدم اليقين بسبب ما .

ويخيل إلى أن مذهب الاحتمالات إنما أوحى به إلى بعض العلماء أنهم رأوا يد الله طليقة فى الطبيعة غير مقيدة ، فهى تنتج الشئ من سببه المعروف ، وقد تنتجه من نقيض ذلك السبب فى بعض حالات الشذوذ التى تشير إلى القاعدة العامة للفت الأنظار إليها والتنبيه عليها .

مذهب « الاحتمالات » هو نظرة البارىء إلى الكون المادى الذى

يبدو متحجراً لدى كثير من العقول التي لم تعرف ما عند الله من القدرة .
وأما نظرة الإنسان المحدود العاجز فينبغي ألا تتخذ الاحتمالات محوراً
لتفكيرها فتضيع في عباب الفروض .

* * *

إن الله قاهر فوق الطبيعة ؛ وهو يدرب «خليفته» في الأرض على
التغلب على العقبات التي تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة
من قيود المواد الثقيلة . والله أنشأه في الضرورات والآلام ليفتح الحيلة
للخلاص منها . وإذا طرد السير على منهاج تاريخه الذي عرفناه ، فسوف
يتغلب على أكثر العقبات .

إن فكر الإنسان يتدرج غير واقف عند نهاية ؛ ونموه في ذاته يجعل
الطبيعة نامية به . وأرجو أن يفهم هذا القول فهماً عميقاً ، لأننا إذا فهمناه
هذا الفهم أدركنا موضعه ورسالته في الوجود ، وأحلامنا محلاً رقيقاً يدفعه
إلى العمل والسير في منهج واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائماً بقوانين
تحفظه من الارتداد والضلال ، ونتدرج به حتى نستوعب كل مباحث
المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها السكينة ، وننتقل به نقلة تسلطنا
إلى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم الروح ...

ويبدو أن إدراك عالم الروح لا يتأتى إلا بعد إدراكنا مافي السكون
المادى إدراكاً كاملاً ؛ وهذا هو سر قلقنا ونبشنا في الطبيعة وعدم إخلادنا
إلى ركن واحد منها ؛ فنحن كلما أخذنا من الطبيعة سراً ، أحسبنا أننا

نقترب به إلى إدراك روحنا الجزئية ، لنذكر من وراء ذلك علماً من الروح الأكبر !

أجل . إن إدراك الـكون المادى كان لابد منه لإدراك الروح ؛ إذ أن الفكر صار يرى كل عمق فى الحياة المادية ضحلاً بعد ترديد النظر عليه واستيعابه بالإدراك . وطبيعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ، وأن ترى آفاق الحياة المادية عديدة لا أكثر ، وليس لها عمق ولا نهائية ؛ فهى فى موجودات الطبيعة ومستحدثات الإنسان لاتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التى تزيد قليلاً على التسعين .

وما يخيل إلى البعض من أن هناك أعماقاً وأغواراً لاتنتهى فى المادة ، إنما هو صورة مما يحدث للناظر إلى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية مثيرة للشعور بالانتهائية ؛ حتى إذا ما كشط سطحها قليلاً ، تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخمين وبراءة فى بسط الأصباغ والأضواء والظلال وقبضها ، وتكشّف له السطح الزاخر بالانتهائية عن باطن محدود لايتعدى ألوان الطيف السبعة !

إن الإنسان لم يعد يؤلّه الماء والنار والهواء والتراب ، ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها فى ذهنه قديماً ، بعد أن حلل عناصرها وركّبها وتسلط عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التى تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء ، أو أغوار التراب ، أو جحمة النار ، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عمياء محكومة بقوانين أخذتها النفس

في حوزتها ، وجعلتها من مدخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها
ناراً وهواء وماء

إنى أشعر حينما أقلب بصرى في آفاق السماء وآفاق الأرض ، أن
فكرى لا يسترسل في التعمق فيها إلى ما لا نهاية ، بل يقف عند نهايات
معينة هي العناصر المحدودة التي تألفت منها مادة السماء والأرض ، والنسب
الهندسية والحسابية التي قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ؛ ثم يبدأ
الإحساس بعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه .

وطبيعى أن نظرتى هذه لا يكون وراءها إحساس بخشية من الطبيعة
ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين ، لأن عناصرها
حلت ، وأسرارها عرفت ، وصورها طبعت في النفس ، ولكن يكون
وراء هذه النظرة إحساس بخشية ورهبة من ذلك العالم القادر الذى خلقها
هائلة هكذا ، وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوى الدائمة الجبارة .



إذا ما هو المجال الحيوى غير المحدود لهذا الفكر الإنسانى الذى يرى
عمق الكون المادى ضحلاً بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه
وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

إنه لا بد عالم لانهاى لا تدركه الأبصار والمناظير ، ولا تحلله الحايير ،
ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير ، ولا تدركه علوم الزمان والمكان !

وطبيعى أن هذا المجال الحيوى بهذا الوصف ، لا يمكن أن يكون
للفكر الإنسانى قدرة على إدراكه هنا في هذه الدار التى نعيش فيها

بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، والفكر المحدود .
ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الإنساني عن محاولة اقتحام هذه
السُّبُحات ، ويتوجه إلى المجال المحدود المؤقت الذي وضعنا فيه لنذكره
هو أولاً ، ونفرغ من استيعاب أسرارهِ وظواهرهِ .

وإن من يريد التعمق الآن في إدراك ما وراء الطبيعة ، ولا يقنع
منه بالمحطات والخطافات ، فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخبال .

وقد برهن تاريخ الإنسان على ذلك . فالأم التي لاتزال تطلب في
هذا العصر علم اليقين بالنفس وبالله ، قبل إدراك قوانين العلم الطبيعي ،
والتي لاتزال تطلب الله على طريق الشعر والوجدان وحده « كالهندوس »
ولا تطلبه عن طريق البحث في أرضه وهوانه ومائه ، والتطلع العلمي إلى
سمائه ، ولا تقص آثار يده في صنع نماذج الطبيعة ، لتعرف مقدار ما عنده
من العلم والإحاطة بالجزئيات والكمكيات ، ولا تلخص أسرار صنعته
وتختزلها في قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكي نماذج الطبيعة ،
إنما هي أم بدائية ضالة طريق تحقيق الأوطار والأشواق إليه ، جل تجده !
قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفد ، تعرفه عن طريق العواطف
والرموز ، لاعن طريق الفكر والوضوح .

إن الإرادة العليا مصرة على إغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام
فكر الإنسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من إدراك كل مافي
الطبيعة أولاً .

أما الطبيعة ذاتها ، فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا

اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاربتها وأطفأها وموجوداتها ، يقلبون النظر والفكر واليد فيها ، ثم يتكلمون بعد ذلك .
إن الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لاختزان المعاني التي تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية الحقائق المرفوعة من الأجسام إلى عالم التعبير والصور والأرقام . فلا يصح أن يمتلئ بتكاذيب الأماني وتخيلات الأحلام ، إلا أن تكون تمهيداً من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع . وكثيراً ما هدت سوانح الشعر إلى حقائق العلم .

فلا يضمن أحد السدود النظرية أمام عمل الإنسان في الطبيعة مادامت هي تلبّيه وتفتح له وتنتج . ولا يجوز حمله على السكون والركون إلى مواريث الأفكار القديمة التي تجعل الطبيعة أمام الإنسان حرماً مقدساً ، يجب التهيّب من الشروع في تغيير شيء فيه ، أو تنقيحه بالزيادة أو النقصان .

فهى وحدها الحكم الذى ترضى حكومته فيما يمكن وما يستحيل .
فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار ، فليدخل وليتوغل ، وهو موقن بأن هذا من عمله الذى خلق من أجله ... وليس إبقاء الطبيعة كما هى بدون تغيير عبادة ، كما كان الزعم القديم ، ولكن صار تغيير الطبيعة إلى الأصلح هو العبادة ...

والتربية الناجحة هى التى توحى للنفس ألا تنهقر وتتضاءل وتزوى فى نفسها أمام قوى الطبيعة ، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير

سالية ، تؤثر في الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح ...

والتربية الشرقية على العموم ، لاتزال تؤوّل قصور النفس الناشئة
عن الجهل والسكران والعجز أمام الطبيعة ، بتأويلات تحمل فيها الأقدار
العلوية أكثر مما تحتمل ، وتقر من وجه السدود والعوائق ، تحت تأثير
قناعة مصطنعة ، تحيكمها أخيلة طفولية ، ولا تأخذ مافي الحياة ، وإنما
بأخذها مافي الحياة .

وكان الشرقيين لما وجد المرء منهم نفسه ضعيف الحجم وسط هذا
الكون العظيم ، استكثره على نفسه فاحتقرها بالنسبة له ، وأثار في نفسه
شكوكا في قيمتها فذشأ عجزه ، أو قل امتد عجز آباءه القدماء اليه ، فاضطربت
حياته ، وصار رهين الأرض وأسراضها .

وقد كان الاعتماد على « القوى السحرية » هو أساس العمل لتحقيق
الأماني عند الشرقيين على الأخص ؛ والآن صار الاعتماد على القوى الآلية
في الطبيعة هو أساس ذلك العمل .

وأعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئا
من الهول والاجتياح والاتساع : فمدافع « كروب » الثقيلة البعيدة المدى
والقنابل الشديدة الانفجار ، والقنابل الطائرة البعيدة المدى ، والقلاع الطائرة
والمناطيد ، والحزانات العظيمة ، والمحطات الكبرى لتوليد الكهرباء ،
والمصانع ، والإذاعة المباشرة باللاسلكي ، وتعبيد الطرق العظيمة كطريق
(نيويورك - ميامي) مثلاً ، أو إكسبريس الشرق ، وغير ذلك ... كلها
أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والجهد الجبار .

فإذا ينتظر الفكر الإنسانى بعد فراغه من هذا التسلط ؟ وماهى النتائج ؟ وأين مصائبه التى يصب فيها تياراته وفيض عبقرياته ؟ أهى المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية ؟ إن هذه النتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالى ، ولا يصح أن تكون أهدافاً لهذه العسكرة وهذا الجلد العظيم الذى تسير به الحياة وقوانينها فى خدمته ... وإن المغالبة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة ، ينبغي أن تكون غير ذات خطر عنده بعد أن عرف آفاقاً جديدة لشهوات رفيعة ، وهى تحقيق أحلامه فى الكشف العلمية والانطلاق السريع بالطيران والسيح والسبق وإزالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية ، وغير هذا من طلائع مجده وملكوته المرتقب !

فلنبدا عصر يقظة لحياتنا الممتازة ، وإحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة . وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا : كيف خلقنا ؟ وكيف اقتدرنا ؟ وكيف نعلم ؟ وكيف نعمل ؟

والراحة الدائمة هى فى أن ندفع بأجسامنا وأفكارنا إلى رحاب الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين ... و بأرواحنا بين يدي ربها متعرفين اليه صابرين على الدهشة والحيرة والإيمان بالغيب حتى يأتينا اليقين فى الآفاق وفى الأنفس . ولا بد وراء ذلك من تأويل و يقين !

قد تطير الطير فى أجواز الفضاء وهى فى ذهول ...

وقد يسبح الخوت في جوف العُباب وهو في ذهول ...
وقد تَدْرُجُ الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهنَّ
في ذهول ...

ولكن ابن الانسان ينبغى له أن يتساءل دائماً : كيف أحياء ؟ !
كيف أفكر ؟ ! كيف أدرُج ؟ ! كيف أسبح ؟ ! كيف أطير ؟ ! ثم
كيف أريد وأقتدر ؟ !

وينبغي له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة :
ما الذى أخرج الإنسان من رُكَّام المَوَّات والجود ومختلط القوى
العمياء التى يزخر بها الكون ؟

وما الذى وضع فكر الإنسان واختياره وسط الدورات الجبرية التى
تداول الأرض ؟

وما الذى هبَّ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور
وتدافع القوى العمياء ؟

إن رحلة واحدة في جوف الماء الزاخر ، أو الهواء الدافع ، أو النار
المَوَّارة ، أو التراب الثقيل الفادح المتراكم . . . كافية أن تشير لنا إلى
موضعنا وخصوصياتنا في الكون ، وإلى رعاية من أخرجنا وسط هذه
الأحوال والقوى العارمة المجنونة ، في مهَاد من رحمته ، بين عوامل
جبروته وسطوته !

أدركت الثمار وآن القطاف !

آلهة وحيوانات — عمل الطبيعة في تكوين الانسان الواحد — عصر
الفوران والغليان — مدينة خالدة ذات سلطان عجيب شامل — جثثنا
لنحيا لآلئوت — الحياة بالفكر في المجاهل والعامل

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها
وأنواعها وأشكالها ، ظهر لنا أن البون بعيد جداً بين الإنسان الذي
أخرجته الطبيعة ، وهذا الإنسان الذي غيرته الصناعة وتعقيد الفكر ،
وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خالقه هو . ولكنّه عالم
غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان . بخلاف مخلوقات الله في
الطبيعة فإنها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكما فكرت في الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة ، وبين
حياة رجل ألماني أو أمريكي أو إنجليزي ، وعقدت موازنة بينهما في المأكل
 والملبس والملهى والمركب والعمل والإنتاج والفكر ، والإحاطة بآفاق
الدنيا ، والتسلط على الطبيعة ، ظهر لى أن الأول يكاد يكون في صفوف
نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل والإيمان ليكون
الإنسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه ،

وخلفه في الماديات خلافة واسعة ، ونمت طلي يده الحياة وتنوعت ،
وتشقت مجاريها وتوسعت ...

ولا يجوز عقلاً أو شرعاً أن يعطى الأول كرامة الحياة وغزتها ، وأن
يتسلط على الثاني ، مادام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن
يسخر إنساناً .

وكما استعرضت معارف الإنسان المدني المدونة في كتبه وصحفه وألواحه
وأرضه وآثاره ، أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة ، وأسرار الدنيا .
ولا شك أن الإنسان المدني العادي الذي يقرأ صحيفة يومية ، يحمل
ذهنه من قضايا للعالم وأخباره في الصباح والمساء ، ما لم يكن في حِسبان أحد
من السابقين ووجدانه ...

ولا شك كذلك أن هذا قد ترك أثره الواسع الشامل في تكوين
الذهن الإنساني الحالي ، وتكليف أعصابه وإحساسه بالحياة على غير
ما كان عليه الناس في زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

فالأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل
معارف الحياة العصرية .

ومن الأعمال العظيمة التي تقوم بها الحياة الآن ، عملها في تكوين
الإنسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها
العظيمة ، ونعيش في غيبوبة عن خطواتها بنا ، لا يدرك منا هذا التأثير
إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة
وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون ناديين عن حبال الشبكة

التي تَلَفُ غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات ، فصارت القارات كالقمرى ، وملايين الجنود
كأصابع اليد ، والدبابات كالنعال ، والطائرات كالعصافير ، وأخبار العالم
الإنسانى كله كأخبار الحى الواحد !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الإنسان ، وتختزل صورها
العظيمة فى أرقام وحروف . . .



هذا العصر جدير أن يسمى « عصر القوران والغليان » — على
سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة
ساكناً فى عصورها السالفة ، لا يتحرك إلا حركات موضعية ، كما يلبث
سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى إذا وصلت حرارته إلى درجة
الغليان ، هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول . . .

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل معه إلى
درجة الإنضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً . وكذلك عصر
الإنسانية الحالى ، هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً
شديداً متلاحقاً .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ، فطعوا أنواعهم ولغاتهم
وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة .

وقد كانوا ضائعين مغمورين نائمين كأسرة مفرقة ، فرقها حادث ،
ثم جمعهم الظروف مرة ثانية .

إنى أتخيل صورة الدنيا فى عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن فى عقول بنينا المثقفين ، فيصيبني دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوها .

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وخدمهم هم المدركين وجهات الحياة . وكانوا فى الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعى بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون إليه . ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعاً كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء .

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيه غلب الأسرار وحن قطافها !

انظر فى بقاع الأرض جميعها ، تجمد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة ، وتشترك فيها وتتناق مع غيرها فى خدمتها . وقد زال الإبهام والغموض اللذان كانت عقول الإنسانية القديمة والمتوسطة تراهما فى ظواهر الحياة ، وصار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة فى الإنتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأماني ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار وحدها .

ولتنتقلت إلى الماضى كثيراً ، لتدرك مدى ما كسبناه وحصلناه كإنسانية واحدة من محصولات الحياة التى وضع كل شعب وكل حضارة أمانة

في بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التي اقتحمت كل قطر وكل مدينة في الأرض ، وصارت من قدر الله الذي لا مرد له ولا مقر منه .
إنها حضارة باقية خالدة ، ان تبيلد ولن تفنى ولن ترتد ! إذ أن بذورها أقيت في كل مكان ونبتت فيه . فأتين ذهبت أوروبا إلى الخراب والدمار ، لسوف تبقى أمريكا .. وأتت ذهبتامعاً ، لسوف يحمل المشعل أمة الشرق وتلك الأمم المنشورة في القارات وجزر المحيطات ، وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هي نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة ، التي لا مقر من الإيمان بها والعمل لها ، وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى القطف التي زرعتها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة في ميراثها حتى صار فيها من كل قطر ورْدٌ ، ومن كل أمة مدد ورِفْدٌ .

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً : فرضت آلامها وشروورها ، كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً ، بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً ...

هي قدر لازم لا فِكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ...

ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة ، انتشارها في كل مكان وأنها ليست كالمذنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية ؛ لأنها قامت على العلم الذي لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة .

وكانت المذنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع شجرة عظيمة هي هذه المدنية الحالية .

ولم يحدث في الماضي أن صيغت مدنية الناس جميعاً كما فعلت هذه المدنية ، نخضع لها الموحد والوثنى ، والملحد والمؤمن ، والزنجى والإسكىمى ، والشرقى والغربى .

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين الاشتراك العلمى والآلى والصناعى والسياسى والأدبى فى رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة ، ومسهولة الانتقال ، وتبادل المنافع ، وتشعب الاحتياجات .
ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة فى مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأى مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟
أى طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأى جو لم تخفق فيه الطائرة ؟
وأى بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟ وأى قطار لم يعرف ما عند غيره ؟
إن هذه المدنية تحيط بالإنسان فى كل أفق من آفاق حياته . وإنى أستعرض الآن كل ما يحيط بى وأنا أكتب ، فأجد جميع ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة ، وقد صار إحساسى بها كإحساسى بضرورات حياتى . وأكاد لا أرى شيئاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمى ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الخلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الإنسان فيها ، وما عقده وركبه ،

لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ، ومدى العالم الذى أحدثه هو ...
وإذا ألقيت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن أو القاهرة ،
يرُوعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره ، وآثار الأيدي التى عملت فيه ،
حتى لا تستطيع بمض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه ، من طول
الألفة وطول الغفلة عن التفكير فى مبادئ الحياة ...

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذا كبر للطبيعة ، مدرك لمبادئها
لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ، ومقدار قوتكم الابتداعية ، فتتلفتوا
لأنفسكم متمجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والإنتاجية
من الضياع والذهول والغفلات !

إن أفراح الحياة تغمر قلبي حين أطوف بجسمى فى المدن العظيمة ،
أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان
فى عوالم المواد والمعانى .

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة
منها ترسل فى قلبي دقيقة من التعجب والإيمان ...

ما جئنا للحيات للموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ! والقبر
ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية . . . فعلى الذين يجعلون القبور
نُصب أعينهم فيهنّوا من أجلها كل عظيم ، ولو كان الصحة أو العلم
أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله
من شئ ، وينتفعوا بالطيبات والزينات التى أخرج الله لعباده .

ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للآفات وعوامل الشؤم ،

انتظاراً للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتنا ...

كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ، إيمان البصير الواقف بأن عمل النفس البشرية في المادة ومتاعها بها مع تذكر الله تعالى ، باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلاء الأغرار !

إنى لأعيش في نفسي وحدها ، ولكنى أعيش في نفوس بني الدنيا الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاتهم ، حتى أخرج من الدنيا ومعى كثير من أسرار الحياة في القلوب والعقول .

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدي أن يستحدثوا في قلوبهم ونظراتهم ما استحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى إيمان مضاعف يغمر قلوبهم .

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فإن هذا هو الوضع الحقيقى لحياة الفكر ، والاستخدام المعقول للروح وقوى الجسم .

لنعش بأفكارنا وأرواحنا دائماً ، سواء أكنّا فى غابات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكرٌ غير مفوضة ، لم يطعمها إنس ولا جان ..! أم فى مصانع « فورد » بأمریکا ، حيث يدور الفكر مع الحديد فى ضجة وتعقيد وقدرة !

حيث الأُنسُ بالإنسان !

زال عهد الصمت والجلود — رسالة يبعثها سر الإنسان — ضآلة لا تبعث
على الاستكانة — لا تتمجلوا النتائج — موارد فياضة معطلة تنتظر الصناعة
السيد هو إنسان الصناعة — بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ — مضى
زمن التخريف في الله وثق التخريف في الإنسان — برزخ على هوة !
سر ظهور الدين قبل العلم — أسس خفية لحياة الاجتماع — أباطل أصلح
للحياة من الحق ؟ — مم تفجر نبع الضمير ؟ — حيث الأُنس بالإنسان .

قديمًا كان كل شيء في الطبيعة صامتًا جامدًا ، أيام بدء ظهور
الإنسان ، فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضا أ بكم محبوس اللسان
لا يتكلم إلا بمقاطع ساذجة ، وأصوات وجدانية ، وكانت وجوه الطبيعة
جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة .

والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار .
أنطقها الإنسان الذي علمه الله البيان ، فعلمه هو بدوره إياها ، وجرد منها
حفاجر تحدته وتعيد عليه حديثه ، لتؤنسه في رحلته إلى صوب مجهول . . !
ولقد زادت عجائب السكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب
الإلهية في الطبيعة ، وكان كفر الإنسان بالله ناشئًا من ذهوله عن بدائع
مخلوقاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئًا من ذهوله
عن مصنوعاته هو !

ألا إن حملة على الإيمان بنفسه ، رسالة لا تحتاج إلى رسل يبعثهم

سرّ السماء إلى الأرض ، وإنما تحتاج إلى رسل يبعثهم سر الإنسان ووحى أعماله في الأرض . . . !

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا الطريق . . إلى الحياة والملكوت . . افعل هذا واترك هذا . . كن كذا ولا تكن كذا . . حتى أدرك جاذبة الحياة الكبرى ، وبانت له نباشير المدنية المنشودة التي كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات . . فأسرع إليها وغمرت حواسه دهشتها وأعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير في نفسه ، فعاش في ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز في الشرقة .

وقد خلق الله بينه وبين الحياة ، بعد أن ترك له وصاياه في الصحف الأولى . . .

قد يقول قائل من ذوي الروح المتشائمة المعطاة : ماذا يريد ذلك الإنسان المحدود من ضجته في الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ إنه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل : فهو شيء صغير على سطح الأرض ، وهي ذرّة سابحة مع ملايين الملايين من النجوم والكواكب ؛ فماذا عساه أن يصنع ، حتى لو ركب الأرض نفسها وصرف مقاليد سيرها كما يصرف مقاليد طياراته وجراراته ؟ أليس الفناء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم . . . لاتعجلوا نتائج حياة الإنسان ولا تشكوا أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون ، بعد أن رأيتم من فعله ما لوراه آباؤكم لما تواروا عجباً .

إنكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله ملاءم وسلوكيات في شئون خاصة ، كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان .

كذلك قال الذين لا يعلمون من آباءكم مثل قولكم ، إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب ... !

ولكن الأمر في حياة الإنسان وخلوده ليس ، كما تتوهمون ، أمراً متعجباً . إنه ثمرة لا بد من نضجها في زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة ، وأسرار مخبوءة ، لها صلة وثيقة بالكون الطبيعى نفسه ، وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة .

ومادام الإنسان لم يصل الى حدود جامدة لا وراء بعدها فى الكشف والاختراعات والوقوف على أسرار الطبيعة ، فثمت له بقاء ، ولوجوده غايات ، هو لا يذهب من الأرض حتى يحقق جميع الغايات من خلقه .

إن كل شئ يبدو عليه انتظار تحقق تلك الغايات الجوهلة المرتقبة ، وربما يذهب من الأرض حين يستطيع أن يحول جسمه إلى قوى وطاقات تعبر الأرض فى لحظة وتوجد كما تريد باذن الله !

وسيرى الذين يذهبون الآن ، أنهم بعد الموت فى دور انكشاف وظهور ، إذ لا يعقل أن يمضى هذا « الخالق الصغير » إلى الغناء المطلق . .
ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل إذا ؟ أتريدونه ينام حالماً يدخل النار جيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيعة ؟ أتريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت ، وينشد الأشعار وهو الأحاديث ؟

إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التي يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ، ويشيرها أيما ثورة ، ليدخلها في نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود . ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل ، فوق زورق ضئيل ، يسبح في عَنَمٍ كبير

فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء ، لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ، ولم يفعل في حياته إلا ضرورات احتياجاته . وبالطبع هذا يردّه ضعيفاً مستضعفاً ، شقيماً ، فريسة لغيره كما كان . ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على ضؤولة جسده ، يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه ، إذاً كان هذا عليه أنفع وأجدى ، وكان أشرف له ، إذ يجعله قوة من القوى العاملة في الحياة .

إن الطبيعة تنازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ؛ فالطفل يبحث في محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته ، فيراه ويلمسه ويدوقه ويتسممه ويشمه ، حتى يحيط بخواصه ويشير كوامنه ويطلقها خيراً من تعطيلها وسجنها .

وقد وجدنا كل ما في الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد ، فياضاً بكميات كبيرة جداً ، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع . . . فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة ، انتظاراً لصنعة ستناولها بها يدٌ صناعٌ .

وكما رأيت غزارة الماء — وهو أصل الحياة — وكثرة المقادير التي تصبها الأنهار في البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بحجز قليل جداً منها ، قلت : إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لإخصاب السهول الحافّة بها فقط ، والتي تصل إليها مياهها في سهولة ويسر ، وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضي البور من الصحارى والسهوب الظمأى العقيم ...

وكما رأيت مناجم الأرض تمتلئ بالمعادن والركاز المعطلة ، وهي ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها في صدرها ، حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها في زمن نمو علوم الآليات والكهرباء .

وكما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشعبة بهم ، قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتئين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكناها وتعميرها وتعديل مهوردها وأجوائها وإخصاب بقاعها .

وكما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والحرارة والصناعة ، قلت : هذه قُدُورٌ هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق .

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضي والغابات ، ظلت تُفَيضُ فيوضها بالسكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينفع بها أحد انتفاعاً يبرر غزارتها ، إلى أن أتى عصر تفتح حاجات الإنسان

الصناعية والعمرائية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فإذا بهذه الموارد التي كان يظن البعض أن فيها إمراً قافاً وتبذيراً ، يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افئتنانه .

هذه الحياة الصناعية البارعة والمعقدة الكاشفة عن قوة الإنسان الابتداعية التامية المنمية ، التي بها تفرد وامتيازها بين السكائنات ، وبها تغلبه على غيره من الحيوانات ، بل وتغلب بعض أقوامه على بعض ، قد نمت نمواً عظيماً حتى بدت في هذه القوى الساحقة التي يستخدمها الآن في حربه . ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض . أما إنسان الزراعة فمهما افتن فيها وهندس واجتهد ، فإن حياته حياة بدائية ، لاتعقد الفكر ولا تترك في الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ، وذات تبعية لها .

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية ، على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التي تشيع بين الزراعيين في العادة ، منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على منزل الغيث وباعث الخصب ، ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديمة والبقر المطيعة والأنعام التي تعطى ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حاملة ... !

وطبيعي أن يتغلب من يدرب أطفاله على ركوب « الحيوانات » الحديدية ، وقيادة « الوحوش » الفولاذية ، على من يدرب أطفاله على ركوب

الحير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار ...

وكل ما يحدثه الإنسان في المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها وقدرته على إحداث نسب جديد ، بين العناصر والمواد ... وهذا مالا وجود له في الزراعة .
- ولكي تدرك ما أرمى إليه ، فكرر في الحياة الصناعية من المسار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما .

يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملا الدنيا به ، كما كان ولا يزال يلام على غفلته عما خلقه الله في الطبيعة .

واقعد مضى زمن التخريف والضلال في العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذي كانت تقبل فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها ، ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذي كان من المعطّئين منكري القصد والإرادة والعناية فيها ، وانقضت العقول الأديان التي تعتمد على غير العقل في إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التي تليها ، وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فبقى عليهم ، لتكمل عقائدهم في الحياة ، أن يتيقظوا دائماً لمنشئها ومديرها ، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه ، كما يتقربون — على الأقل — لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً .
ولكن ، جدّ تخريف وضلال في العقيدة بالإنسان ، بسبب فرض لم

يثبت في نظرية النشوء ، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة .
ومقاومة هذا التخريف الأخير هي من أهم رسالات الدين في هذا العصر .

هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم
وبين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يحفلون من التكريم والإحسان
الذين يقول الدين إن الله يصطنعهما في معاملة الإنسان .

وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى — على فرض إيمانهم
به — حياة ضئيلة ، وإن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الإنسانية
على الأرض لا تقدم ولا تؤخر في سير الناموس الأعظم الذي ينتظم الكون .
فسواء على الله وعلى الكون ، أن يضل الإنسان أو يهتدى ، أن
يعرف وأن يشره . . . فتلك شئون خاصة به ، خاضعة لاعتبارات
مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمل والنحل وكل
ما أبسته الحياة ، من غير رُجْمى أو مصير أكمل . . .

ولكن الواقع أن ضجة الإنسانية وحدها ، وتغير الأرض بها وحدها
وتعقد الدنيا بها وحدها ، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها
بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ؛ هي أمور من الحق بحيث
تشغلنا عن سواها ، وهي ذاتها البرزخ الذي نعبر عليه تلك الهوة التي
يبيننا وبين الله !

وما دمنا لم نركائنا غيرنا بعمر الأرض ويشيرها ، ويستحدث فيها
أعاجيب لم تكن ، وما دمنا نؤمن بحكمة باري الوجود الذي أدخلنا إليه ،

إذاً لا نستطيع أن نعتقد أنه ليس بيننا وبين الله برزخ أو صلة ، مع أننا نرى أنفسنا كل شيء في الأرض ...

وعندما ينظر السطحيون لظاهر مجموع الناس ، يخيل إليهم أنه لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء ، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الإعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الفرائض الخطرة ، وتوجد « طمأنينة الكفر ! » وينظر الإنسان للإنسان على أنه شيء تافه ، يصح سلبه واستعباده وقتله .

ولكن عندما ننظر للحياة الإنسانية من داخل الأرواح والأفكار والقلوب ، نجد النظر يخلق المنظور خلقاً آخر جليلاً ، ويشعر الناظر أن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق .

فما أعظم أثر هذا في طمأنينة النفس حتى لو كان باطلاً ! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هي ! مع أن الهوة التي بينها وبين الله سحيقة ، إذا استسلم الإنسان للحس وحده في عبورها لن يتمكن ! إذ يجد مكانه في الوجود يكاد يكون لا شيء ... إذ الأرض ذاتها لا شيء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد الضئيل فيها ؟

هذا النظر الروحي العميق يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة ، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً في الوجود ، حين يجد علاقته وثيقة بصاحب الوجود مباشرة .

ومن العجائب في ظهور حياة الإنسان وتدرجها ، أن حياة الروح والتدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم .

ولو قد سبق العلمُ الدينَ ، إذاً لكان موقف الإنسان في الحياة موقف ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذي لم يجد أباً وأماً يأخذ من حنانها حناناً لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب ، بل يجد نفسه مدركا رشيداً ، ذكياً قاسياً ، على قارعة الطريق ، تدافعه زحمته القاسية ، يعرف جرائم الحياة وجفائها ، وأخلاق الشوارع والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخوة والبنوة ووصايا الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة ...

علام يقوم بناء الحياة الانسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو إمبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون في تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم في دقة وموازنة وجمال وأمانة ، كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسي :

من الذي أقام بناء هذه الحياة الانسانية في تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟ !

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة
وأهداف موحدة؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية الواحدة التى تجعلها تسلك فى
أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجعلها وصفقها وسار بها شوطاً بعيداً
من عيشة الوحشية والتأبد ، إلى هذه الإنسانية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر « والعائلات » على التراحم ، وجمع أطفالها
ورجالها على الحب ؟

إنه لاشك سر النبوات التى هبطت على القلوب الكبيرة التى كانت
الإنسانية فى مهد نشوئها ، كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسددة .

إن هذا لاشك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية
وذهب بناؤها مطرداً فى العلو والسموق .

فجاءوا المعانى الكريمة التى اكتشفت فى الطبع الإنسانى هم الأنبياء .

وقد صارت المعانى الأخلاقية السامية هى أساس بناء الدول المحكمة
الوضع ، بعد أن كانت فى أول أمرها معانى شخصية فى قلوب هؤلاء
الأفراد القلائل . ونسبة المؤمنين الآن أكبر من نسبة المشركين والمعطّلين
وصارت الأديان السماوية ممثلة فى أعظم أمم الأرض .

فلئن غابت ، الآن هذه الأسس المعنوية لحياة الاجتماع عن الأنظار
القاصرة والأفكار المشلولة ، فسكنا تغيب أسس الأبنية العظيمة فى
باطن الأرض ، لأتري ولا يعرفها إلا الناظرون فى الأعماق ...

واقدمات الرّعييل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقي الأبناء
دليلاً متجدداً عليهم .

نم نسال : أيهما أصلح للحياة ؟ أن يمتقد الإنسان أن الله به حفيّ ،
وأن يؤمن بالإنسان فيحتفل لولادته ، ويقوم لجنائزته ، ويؤثره على نفسه ،
ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش في سجون الأخلاق التي تسمو
بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق ، وتنمي المدنية وتحيط الإنسان
بجو من سكينه العلم ورقّة الفن ، وتسخر العلم في خدمته وتخفيف ويلاته ،
وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً علياً ، وفلسفة يطردها الوفاق ؛ وتعمل
إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقما يتطلع
إليها ... ؟ أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان ؛
فاذا ولد فكجروا الكلاب أو سخل النعاج ؛ يسخر ويلعب به ، ولا
عِرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنّها آلىّ وعلمها للتدمير والغلبة ،
ومثّلها وصولية ... وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير
رجعة أو ذكرى أو أمل في مصير أكمل ؟ !

أما والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعاً باطلاً ، لكان أعظم أثراً
في صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ،
فاذا تركه الإنسان كان عليه أن يرتد إلى حياة الغابات . وقد ارتد بعضه
فعلا الآن ، ولكنه سيعود ...

ولست أدري : ما هو غرام بعض الناس في أن يزعموا أنهم كشفوا

تيارات واتجاهات في الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التي
نمت موارث علومهم وأخلاقيهم في أحضانها ؟
إن كل ما يضر حياة الجماعة هو شر يميم الضمير وينزع منه
الإيمان بالخير ويُسلم إلى النكسة والارتداد . فينبغي ألا يفلسف به .

على أسوأ الافتراضات في تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه في الوجود ،
فتفجّر نبع الضمير في قلبه ، وطواعيته تحت تأثيره ، لا بد أن يكونا بوحى
وضغط من عالم أعلى ...

وهذا الروح اللطيف الذي يوجد في القلب حين الحب ، أو حين
مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتّح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود
بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعاني الكبيرة : كالمرودة
والإيثار والتضحية الصامتة ، أو حين الإيمان العميق الرحب المُشعّ ... هذا
الروح هو مكان رصد الإنسان والأنس به والأمل فيه .

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلاً أخاذاً ، يبعث على التفاؤل
والحب والسعى إلى الاكتمال ... أولى من أن نرصده من مكان آخر
يبدو منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المسكنة ، باعثاً على
التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

الضمير

ووصايته على الحياة

حارس الحدود — لافدسية لمقدس إلامعه — هو الباكورة الأولى —
لاتعجلوا الحلقة الأخيرة — البوصلة الهادية إلى القطب الأعظم — المجرى
الحنى للحضارة — مقدمات الضمير العالمى — بركة من حرب كثير اللعنات —
حديث الانسانية عن نبأ عظيم — لنسكن أبناء الحاضر — بين الحضارة
والثقافة — قلوب قرود فى جلود بشر — فرار إلى العاصم .

كل مذاهب البر ، وحدود العدالة ، ومرافق الرحمة ، ومواضع
الفضيلة فى المجتمعات الإنسانية الراقية والمنحطة ، إنما هى آثار من آثار
الضمير الإنسانى : ذلك النبع العميق الذى يستمد من فيوض الله المقيم
الجبال أوتاداً ، والصفاف سدوداً للغياء أن تطفى وتغلا الأرض بدون
نظام موزون ، والجاعل بين المواد والقوى العمياء حدوداً لحفظ الحياة ،
ونسق الجمال .

وقد جعل للحياة الإنسانية الاجتماعية حدوداً كذلك بحراسة الضمير .
وكل شىء مقدس يتحول إلى عمل حقير مجرم ، إذا لم يصحبه الضمير
والإحساس بالعدالة والحق ، كالأحساس بالنفس .

خذ مثلاً : تشريح جثث الإنسان فى الموت المشتبه فيه ، أو فى حالة
المرضى من الفقراء ، أو للتعليم : يحوله الأطباء الذين لا ضمير لهم ولا حس

بالجماعة عندهم إلى جزارة وإهدار لجسم الإنسان وكرامته في سبيل التمرين ،
حتى لتجد الجماجم البشرية في المزابل ، والمنح الانساني في المراحض ! مع
أن العمل نفسه من أنفع الأعمال .

وخذ مثلاً ثانياً : دراسة القانون للدفاع عن الحق ، ومعرفة الواجب ،
تحولت في أيدي المرتزقة من المحامين إلى مؤاجرة لطمس معالم الحق ،
وتضليل القضاء عنه ، وإلباسه بالباطل ، وإيقاع من لا حيلة لهم ولا قدرة
على الدفاع عن أنفسهم أو عن الحق .

وخذ مثلاً ثالثاً : مهنة التعليم : هي في أصلها وصاية على الناشئين
والجهال ، وإرشاد من يجهلون العلوم والحقائق . ولكنها قد تحولت في
كثير من الأحوال إلى مجرد عمل آلي للملء حافظ التلاميذ بالأرقام
والحروف تحت سيطرة آلية ، وإهدار للأخلاق والشخصيات .

وخذ مثلاً رابعاً : الجندية : إنها أسمى مراتب المروءة وخدمة الحياة ؛
إذ هي جودٌ بالنفس في سبيل الحرمات والمقدسات . ولكنها قد تحولت إلى
وحشية حين فقد القلب نبيل الفروسية ورحمة الأقوياء .

وخذ مثلاً خامساً : حياة التدين : إنها في الأصل فيض ذاتي بين
ضمير الإنسان وضمير الوجود ؛ فإذا بها تتحول إلى ألفاظ جافة وشهادات
ومنافسات ومناقشات وارتزاقات ووظائف ومناصب مدرسية دنيوية ...
وهكذا لو رحت تتقصى سائر أعمال الإنسان المقدسة الكبرى ،
تجدها قد خلت في الأم الضالة من خفقات الروح ومصاحبة الإحساس
الإنساني العالي ، يفعلها الفرد وهو كآلة من الآلات !

ولئن زعموا أن أصل الانسان وحشى منحنط بغير ضمير ، وأن هذا الضمير تاريخه حديث في حياته ، وأنه نشأ من ضغط الحوادث المؤلمة عليه ، ومن تقاديه ماثبت أن به مضره له بعد ارتضاء حياة الجماعة ... فمن الذى جعل فى أخلاقه تلك القابلية وفى أعصابه تلك المرونة التى تتأثر بتلك الحوادث والأخلاق الضارة والنافعة وهواجس الخير والشر ، حتى لتكاد تلك القابلية تكون ميزانا لا يتغير ولا يتبدل فى جميع الأمم الحية إلا بمض أم تعيش على هامش الحضارة ؟

فميزة الانسان على غيره هى هذه القابلية فى أعصابه ، والمرونة فى طبيعته . وليكن مكانه من الأحياء قبل نشوء تلك القابلية فيه ما يكون من الانحطاط والوحشية ؛ فلن يضير النخلة القارعة المثمرة الجميلة أن يكون أصلها نواة ضئيلة محدودة ، وأن يكون البعد بين جذرها القبيح وتاجها الجميل بعداً بالغاً ؛ فإن كل كائن حى أرضى لا بد له من أصل منحنط فى الطين ، ثم يبلغ أوج حياته بعد حين .

ويتأكد عندى يوماً بعد يوم أن الإنسان لم يبلغ بعد درجة نضجه النهائية ، وأن كل حقبة من حقبة التاريخ تظهر جانباً خفياً من طبيعته ، وأن « القطعة » الأخيرة من ثماره لا بد أن تكون هى التى تحمل جميع الأسرار التى أرادها فيه خالق الأنواع ! فمن الإنصاف ألا نحكم عليه حكماً نهائياً قبل أن يبلغ مبلغه الأخير ، وألا نفقد الأمل فيه مادام طريق ترقيه مفتوحاً أمامه ، وما دامت الطبيعة تفتح صدرها له .

أجل ، إنه قانون طبيعى لم تتم دورته لينتج نتائجه النهائية . وإن

الباكورة الأولى من ثمراته إنما كانت تلك الحساسية الدقيقة التي أطلقنا عليها اسم « الضمير » وهي حساسية صادقة مرهفة تتأثر بعوامل نمو الحياة ، وتفتيح لها وتركن إليها وتحميها وتحمي بها ، وتستكثر منها وتسميها « خيراً » ، وتتأثر بعوامل الدمار والألم والفناء وتنقبض عنها وتفر منها وتدفعها وتسميها « شراً » .

ولا شك أن الذي وجه الأنواع كلها إلى طرق حيواتها المختلفة ، لا يجوز أن يكون قد وجه حياة الإنسان إلى غير طريقها . فغير معقول أن يستثنى الإنسان وحده من بين الكائنات الأرضية ، ويدفعه في طريق خاطئ غير طريق حياة قدرها له ؛ فما عهدنا في الطبيعة عبثاً أو استثناء من قواعدها العامة إلى هذا الحد ! وفيما ذا يكون الاستثناء ؟ في الإنسان : الابن البكر الأرض !

لا شك إذاً أن الضمير كان هو المجرى الخفي لحياة الإنسانية ، وأنه ميزان حياتها ، وأنه « إبرة البوصلة » تهديها إلى طريقها المقدر لها ، وتوجهها بها إلى قطب الحياة الأعظم !

وما وقع لي مرة أن أغفل الحق في غمرة من غمرات الشهوة الحقيرة ، إلا وجدت له رهبة تزلزل قدمي وتطمس النور في عيني ! فالحق يقظ جداً . أو قل إن الضمير متيقظ لحراسته جداً .

وأنت إذا تصديت للدفاع عنه ، ثم استعملت في سبيل ذلك الدفاع شيئاً من الباطل ، شعرت — إذا كنت ذا ضمير — شعوراً صاعقاً ، أن ذلك الحق الذي تدافع عنه بالباطل ، انقلب في عقلك الباطن ووعيك الظاهر ، إلى سلاح مهاجم لك يقول : لا ! لا ! لا ! طريقى ليست من هنا ..

أنا ما جئت إلا لأزهق الباطل .. لقد ضللت وأضلت بي .. ارجع !

ومهما يكن من شيء ، فهل أضر نشوء الضمير حياة الإنسان أو نفعها ؟ هل كان من الممكن أن تنشأ تلك الحياة الاجتماعية السامية المعقدة العظيمة في غير ظلاله ؟ وهل قامت حضارة من الحضارات العظيمة التي أثرت في تقدم الانسانية بغير سلطانه ؟ وهل من الممكن أن يحل شيء آخر محله في الوصاية على الحضارة والثقافة والحقوق والواجبات ؟ هل تستطيع حضارتنا هذه على قوتها وعظمتها وتعدد أفاقينها أن تتحرر من سلطانه وما نشأ في أحضانه من أخلاق ، ثم تحيا بعد ذلك وتستمر في نمو وازدهار ؟

إن حدود الخير والشر التي ندين بها ، وصورها التي نعرف ، إنما هي نتائج « عملية » نمت في خفاء في باطن النفوس الإنسانية ، فمزات طائفة من الأخلاق والأفعال واعترفت بها ورضيتها وأسمتها « الخير » أو « البر » أو « المعروف » ، وعزات طائفة أخرى منها أنكرتها وكرهتها وأسمتها « الشر » أو « الإثم » أو « المنكر » . وإن تبادلة ولو كانت متوحشة تنسك بفطرتها أصول الخير والبر التي رضى عنها حضارتنا وتقالم منها ولا تستجيب لها ، وترضى أصول الشر وتُسَرُّ بها وتستجيب لها بفطرتها .

نعم قد تنسك الخير والبر في خارج دائرتها الخاصة وتأبى فله مع غيرها من الأمم ، وترى من الخير لذاتها والبر بها أن تفعل الشر مع الأمم الأجنبية عنها ، ولا تشعر بوحدة الضمير بينها وبين سواها .. ولكن هذا

لا يكون إلا في تلك الجماعات الصغيرة التي لا تزال تعيش على هامش الحضارة ، ولا تزال متخلفة تخلفاً كبيراً عن سير الحياة بالأمم العظيمة .

على أن هذه الظاهرة إن وجدت في المتوحشين ، فيخيل إلى أنها سرعان ما تزول منهم إن نشأ ناشوهم في أحضان مذهبنا الخلقية وحضارتنا وثقافتنا . فليس إنكارهم للخير العام طبعاً أصيلاً في نفوسهم لا يتخلون عنه . وقد مرت جميع الأمم بذلك الدور حين كانت الفردية طابع الحياة الإنسانية . ثم تحوت الفردية والأنانية إلى غيرية وإيثارية في نطاق الأسرة ثم في القبيلة ثم في الجماعة ثم في الأمة ثم في الإمبراطوريات واتحاد الولايات . وإذا اطردت النتائج مع مقدماتها ، فستنشئ معارك هذه الحروب ضميراً عالمياً أوسع وأرهف ، بعد أن وجدت مقدماته من وحدة الثقافة العلمية والفكرية والفنية أو تقاربها في الأمم ، ومن اختزال الأبعاد والمسافات بين بقاع الأرض ، حتى صارت أمريكا بعالمها الجديد النائي جارة للعالم القديم ، ومن اهتمام الكثرة الغالبة بقضايا الإنسانية وإحاطتهم بتفصيلات حيوات الشعوب والأجناس ، ومن اختلاط الناس في نطاق واسع ، واشتباك مصالحهم اشتباكاً ليس منه فكك .

وإني كلما رأيت تلك « التشكيلة » العجيبة التي حشدتها بريطانيا في جيوشها بمصر ، من زنوج إفريقية وهنود آسيا وصُفْرها وبيضها ، ومن جنود أسكتلندا وإرلندا وكندا وجنوب إفريقية ، مضافاً إليهم تلك التشكيلة الأمريكية وسائر الأحلاف .. أشعر شعوراً ساراً متفائلاً ، خصوصاً إذا رأيت الجنود الزنوج والماوري وغيرهم من الأمم التي تعيش

على الفطرة إلى الآن ، يرتدون ملابس الجنود الإنجليز والأمريكان ، ويتحدثون حديثهم ، ويخضعون للنظم العسكرية خضوعهم ، ويمهرون مهارتهم في قيادة الطائرات والسيارات وسائر الآلات الدقيقة ، وقد خرجوا من أديانهم وأكواخهم وصحاريهم وكهوفهم إلى العالم المتحضر ينظرون ويدركون ما يدرك إخوانهم السابقون في العلم والمدنية ، ويشاركون « الرجل الأبيض » أهدافه ويحاولون اللحاق به .

وإن عملية الخلط والمزج هذه التي تجريها هذه الظروف بين شعوب الأرض جميعاً ، هي لا شك من بركات هذه الحرب الكثيرة الاعنات ... وما كان لعامل آخر في ظل التدرج والتطور أن يفعلها ، مادامت هناك نزعات استعمارية ووصاية جائزة جشعة خائنة من الشعوب السابقة على الشعوب المتخلفة .

وأحسب أن هؤلاء الجنود الملونين المتخلفة أمهم ، أن يرضوا بعد عودتهم إلى ديارهم أن يعيشوا عيشهم قبل الحرب ، بل لابد أن يعلو مستواهم ومستوى أمتهم تبعاً لهم ، ولا بد كذلك أن يزول منهم كثير من روح سوء الظن وقبح الثقة بغيرهم من الأمم بعد مخالطتهم إياهم وامتزاج دمائهم في سبيل غاية واحدة .

هذه الإنسانية تتحدث الآن جميعها عن نبأ عظيم واحد : هو المثل العليا المرجوة لحياة الناس بعد هذه الحرب ، وقضايا الحق والعدل ، بعد أن أصابها جميعاً طائف من آلام الحرب وفضائعها ، وقبح آثارها .

ولا بد أن يتسع ضميرها ويخرج من القومية الضيقة والأنانية الغاشمة ، إلى نزعات إنسانية شاملة سامية ، يتجرد فيها الحق والعدل من العنقنات والنعرات الجنسية التي طالما تقسمته وتوزعته ، وخلعت عليه من ضيقها وسفها ما جعله حقاً لدى قوم وباطلاً لدى آخرين ، وما جعله يوماً شرقياً وآخر غربياً . مما أورث كثيرين من المفكرين شكاً في وجود الحق وريبة في تحقق العدالة بمعناها الجليل الجميل المرسوم في الصحف الماثورة وفي الفكر المثالي .

وإذا تجرد الحق والعدل من النعرات والتعصبات ، ووضعاً في نصابهما المثالي أمام الإنسانية جميعها أبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها ، وطبقت آثارها عليها في حراسة الضمير بدون تحيز وتميز ، فقد وصلت الإنسانية حينئذ لفردوسها الموقت للنشود ، وتفرغت لما يجب أن تفرغ له وحده ، وهو فتح مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها ، وتسخير قواها لتقايل المشقة وزيادة المنفعة .

غير أن الناس لسوء ظنهم بأنفسهم ، ولقبيح رأيهم في الإنسانية ، وانعدام أملهم في سمو مستقبلها ، لا يحاولون أن يأخذوا أحداث هذه الحرب وظواهرها أخذ دراسة وتمعن واتعاط بعبرها ، بل يحسبونها طبيعة من طبائع الحياة لا يمكن أن تتخلى عنها الإنسانية . ولذلك لا تحتاج لديهم إلى تفكير وتدبر مخلصين للنجاة من أهوالها بقطع دابر أسبابها .

وسوء ظنهم بأنفسهم ، وقبح رأيهم في الإنسانية أثران من آثار الماضي الجاهلي الذي كان فيه الضمير الإنساني ضيقاً ، والتفكير البشري

محدود الأفق ، والخلق رهين الفرائز المنحطة ، والجهد عاجزاً قاصراً عن إدراك العلوم والأعمال الكثيرة البركات والخففة المشقات .

ولذلك تمنيت ولا أزال أتمنى أن نتحرر من التاريخ ، وأن نكون أبناء الحاضر العظيم الذى سما فيه فكرنا وجهدنا ، وانكشفت لنا فيه من الطبيعة أكثر الوجوه التى كانت مستورة غامضة ، وأدركنا أطراف جسم أمنا الأرض ، وأنواع مواليدها من الجماد والحيوان والنبات إدراكاً بالماييس الدقيقة والمعايير العلمية التى وزنت دقائق صنع الله وأبرزتها لنا واضحة جلية .

والواقع أن الدنيا برغم كثرة المتعلمين والمتحضرين فيها ، لا تزال مجتمعاتها مسيرة بآراء غير آراء المفكرين والعلماء المدركين لحقائق الحياة والباذلين جهودهم لتذليل العقبات وجلب المنافع . والذين يمسون دفة المجتمعات ويديرونها ، هم الذين كان أمثالهم يسيطرون عليها فى القديم . وأكثرهم من السماسرة والدجالين ومحبي الجاه والمناصب للسيادة والخيلاء والانتفاع الشخصى واللعب بالشعوب وشفاء الخزازات والأحقاد .

ولا تزال خبائر الماضى تبت جراثيم الفساد فى الحاضر ، فيبني الجديد بأنقاض القديم . وقد تغير الصور والأشكال ولكن الجوهر باق كما هو . وقد حسب الناس أنهم ماداموا قد لبسوا البس المتحضرين ومشوا برشاقتهم وحركاتهم ، واصطنعوا أدواتهم فى الزينة والرياش وطرق الأحاديث ، فقد تغيرت الدنيا وصاروا فى مدنية القرن العشرين ، بينما قلوبهم وغرائزهم على ما كانت عليه قلوب قوم « نوح » وغرائزهم ...

وينبغي أن نفرق بين الحضارة والثقافة : فالحضارة هي العيشة الجسمية في الحضر، وهي تكسب الأشخاص رقة ورشاقة وخبرة بمواضعات الناس الاجتماعية وزيتهم وحركاتهم ، ولكنها لا تكسبهم ثقافة عقلية خلقية عميقة تتصل بأصول الحياة والآراء والمذاهب والعقائد والأفكار والأخلاق والمعلومات التي يقوم عليها بناء حياة صحيحة . أما الثقافة فهي العيشة العقلية والعقلية بالمعلومات الحديثة والأفكار والآراء الصالحة .

ومع الأسف لا يزال المتحكمون في الشعوب أكثرهم متحضرون غير مثقفين : يدركون صور الحضارة وقشورها ، ولا يدركون جوهرها ولبابها ، ولا يحسون حاجات الزمن ، ولا يعيشون في قمة الفكر والعلم ، بل لا يرونها ؛ إذ ليس لديهم أدوات النظر .

فمن أين هؤلاء الحاكمين أن يسيروا بمن تحت حكمهم من الشعوب إلى أهداف الإنسانية العليا وغاياتها المشتركة ، وأن يفقهوا لغة الحوادث ويسمعوا نداء الزمان ، ويروا تلك الخطوات المطردة التي تخطوها الإنسانية في طريقها إلى غايتها المجهولة ؟ ومن أين لهم أن يقلبوا ضمائر الشعوب الضيقة الأنانية إلى ضمائر إنسانية عالمية تمهد لحياة السلام والاستقرار الدائم ؟

إن الأمل الوحيد هو في المر بين الذين يتولون الناشئين في جميع الشعوب . وواجبهم أن يوقظوا ضمير كل ناشئ ، ويوسعوا مجراه حتى يشعر بمعنى الإنسانية الحقيقي ، فلا تكون حياته المدنية طلاء ودهانا فوق جلدة قرد وخشى !

وحسب الحياة ما لقيته من كيد هؤلاء الذين لهم مسالينخ الآدميين

وقلوب القروء ، وما تحملته من أنانيتهم وسفالاتهم التي شوهت وجهها
وحملتها مأساة دامية !

وكل يوم ، بل كل ساعة تصطدم حواس الذين لهم إخلاص الفكر
والقلب بما يشوه جمال الحياة ، ويضع تحت الأضراس حجارة قاسية من
الغيظ والاضطرام والألم المالح لبشاشات النفوس وإيمانها بالعدالة في
حياة المجتمع !

وما قذف الإيمان بالإنسانية في قلوب هؤلاء المؤمنين ، ونههم إلى
قيمتها الحقيقية ، إلا رؤية هذه الطبائع المسوخة . . . فما كانت الإنسانية
لهذه المهازل والآلام والجرائم والسفالات التي تزخرُ بها المجتمعات الفاسدة
التي يسيطر عليها من يأخذون الحياة كأخذ السباع والذئاب والكلاب
والخنازير ، فهم لا يفهمونها إلا على وجه الختل والسطو والجريمة والفتاح
والعواء والتهويش والانحطاط . . .

ولسنا نحلم بجنة في الأرض كاملة الأوصاف ، فيها ملائكة من الناس
يحكمون ... ولكننا نريد بيئات تدين بمثل عليا على الأقل في الحقوق
العامة — ودع عنهم الحقوق الخاصة .

فإلى الضمير : ذلك المصباح الذي توقده يد الله دائماً في ظلمات القوى
العمياء التي تعجُّ بها متاهات الحياة وحنايا الصدور ، ولن نستطيع أغتني
الأعاصير أن تطفئه أو تخنق شعاعه — إليه يجب الفرار للاعتصام من
أمواج هذا الظلام !

التحرر من التاريخ

التحرر من التاريخ — نحن غير البائدين — تلاميذنا أصبح علماء بالطبيعة من
أرسطو — العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة عن النفس — لا بد من
قلوب حديثة — من جرائر التاريخ — الإنسان يصنع كثيراً من أقداره
استطرد إلى مشكلة القدر — إلى المنتظرين بعثاً من غير نفوسهم — الآن فقط
وجد الحق أدوات كاملة للدعوة إلى تصحيح الأفكار عن الحياة — عباب
التاريخ يحرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! — لامفر من عزل
الطفولة لتصحيح أفكارها — مناقضات بين مافي الشوارع ومافي الجامعات
صورة من دراستنا الحالية للتاريخ — طبائع مدلسة ليست بنت زمانها —
ما يستهلكه الشر — هل مضت الحاجة إلى دور الفرائز في خدمة
الحياة ؟ — حرب الآلهة

طالما ألحمت على التاريخ : هذا الجدار الهائل ... هذا السد القوى ..
هذا السجن العتيد ... لأحطمه وأنقذ نفسي من جوه المعتم الخانق !
وطالما قلت مادام هذا الماضي القاصر الجاهل المخرف الوحشي يحمله
الإنسان في أوعيته وأعصابه إلى الحاضر ، فهو دائماً في ضلاله القديم ،
كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائماً في أمراض ونكسات .
والحقيقة التي يجب أن توضع نصب العيون الآن ، هي أن هذا
الإنسان العصري ، هو غير الإنسان البائد بلا شك ! هو غيره في علمه
وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق
الاحتياجات ، وفتيحه الكنوز الأرزاق والأقوات .

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت ،
وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها في عصر الانكشاف
والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو ، وذرع الأرض
بالطول والعرض ، ونبش كنوزها ، أن يعيش بأساليب الذى كان لا يعرف
غير طريق القرية أو النجم أو الجزيرة التى يعيش فيها ؟

إن تلاميذ المدارس الابتدائية أصبح علماء عن الأرض والطبيعة من
سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابى وغيرهم من حكماء
القدماء ؛ فكيف ترضى الانسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية
بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

إن التاريخ النفسى للحياة الانسانية ينبغى أن يدرس بعين غريبة
عنه ناقدة له في شك وتمحيص ، فما هو إلا سجل جهاد الناس في سبيل
وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالى ؛ وما يليق أن تؤخذ مرحلة من
مراحلهم خطأ يطعن الناس إليه بقولهم ؛ لأن مراحلهم السابقة كانت
مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أمم ، ولكن أمر أمم الناس
الآن أمر جماعة توشك أن تقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتشتجر
اشتجاراً لا خلاص لفروعها منه ، أبت أم كرهت .

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم
لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قروداً وبيغاوات تحكى قضايا العلم بأسننها
وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفى من العلم أن يقتنى فى الحوافظ والذاكرات غير ممزوج
ولا مُدمَج فى الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، وأن يوضع فى الرءوس
كما توضع التحف والذمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع
والشراء عند الحاجة ؟ !

إن العلم ينبغى له أن يكون فى كياننا كالماء فى أعواد الشجر
الحى ، لا يقف تسربه إليه وإغماء حياته إلا إذا جف وأحطَبَ ومات ..
فلا شجر بدون ماء .

إن « جراحة » عظيمة فى داخل الحياة النفسية الإنسانية ننتظر
إجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

ومن آثار التاريخ فى الحياة العصرية هذا الخلاف العنيف بين سدنة
الاديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد ... وبعد ما أدرك العقل التناسق
والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون
إلا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره فيها أننا لانزال نخضع لمنطق الأم التى كانت تعيش
متحاجة فى سدود ونخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل
الدنيا دنيوات ، والانسانية الواحدة أنواعا متباعدة ، وتجعل من اختلاف
الأجناس والألوان واللغات اختلافا أصيلا جوهريا بين الطبائع الإنسانية
يبيح هذه العداوة الفاجرة المريرة الخربة للعمران ، ويحمل على المبالغة فى
البطش والطغيان ، ونسيان الصفات المشتركة بين بنى الإنسان .

ومن آثاره أن أكثر الناس لم يدرك بعدُ مدى الانتقال العظيم ،
والترقى السريع ، والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة
فيه ؛ ولذلك لا يزالون يضمرون في أنفسهم اعتقادات متشائمة في الإنسان
ومستقبله ، ويدينون في الحياة بدين السخط وإطلاق الفرائز الخطرة
والآراء التافهة التي تجعل الإنسان يقبر الحياة بدون أن يجتهد في ملء
نفسه بأسرارها ، وفي إضافة كشف أو اختراع أو منفعة أو فهم إلى ميراث
الحياة الإنسانية ... وليس هناك شيء أضر على الحياة الإنسانية من نزع
التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله !

ومن آثاره أننا نرضينا أن نعيش أكثرنا جاهلاً أُمياً لا يفقه مبادئ
العلم والحياة التي في رءوس العلماء ، مع أن نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم
كل صباح ومساء . وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفنهم كما كانت
تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد ... وكان هذا الإهمال منا كفعل
من يرى أهله يموتون ظمأً واحتراقاً ، وهو على علم بمنبع ماء غدير يطفىء
غلاتهم ولوعتهم ويحيي نفوسهم ، ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم ...

ومن آثاره أننا نعيش في ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من
كنوز تفتتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشئ منا ينشأ بين القطارات
والسيارات والطائرات والراديو والتليفون والغواصات والقوتوغراف
والسينما وغير أولئك ، ثم يجمل أمرها وتركيبها ولا يدري عنها شيئاً ، ولا
يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم ... كأن ذلك شيء تافه أو أمر
بدهى لا يحتاج إلى فكر شديد وتعجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق
كثرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها ، لو وزعت توزيعاً معقولاً
بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من الحصول في سبيل الاحتفاظ
بالأسعار المرتفعة ... لا تزال نطيع الجشع والطمع ونعصى دواعي العدالة
والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا تزال نغطى عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه
« الأقدار » ، مع أن مفتاح كثير من الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى
في الظاهر أننا نصنع أغلب أقدارنا ، ومع أن دائرة الإيمان بالأقدار في
الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التي تأتي إلينا
بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ...
وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه
بعض الحديث :

* * *

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهي أقدار الخير والسعادة ، وهذه
موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي :

أن نسمى جهداً لئلا نتهيب لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التي تهددنا بتجار بنا
إلى أنها عوامل جالبات لما نسمى إليه ؛ فإن تحقق ما نبغى فذاك ، وإن
لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على
وجودنا ، لها غاية غير غايتنا في تلك المسألة التي نسمى لتحقيقها . والإيمان
بتلك الإرادة يقضى حينئذ بالاذعان والتسليم أقدرها العالی الذي لا حيلة معه

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهى أقدار الشر والشقاء . وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسمى جهداً للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التى تهدينا بحار بنا إلى أنها عوامل دافعات لما نخشاه ونتجنبه . فإن كان ما نبغى ، فذاك ، وإن لم يكن ، كان أيضاً الإذعان والتسليم للإرادة العليا .

تلك هى مشكلة الأقدار فى جانبها . وفى كلا هذين الجانبين رأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده فى التمهيد لها أو دفعها . فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير ، كان حرياً أن تأتى إليه أقدار الخير فلا يفتفع بها ؛ إذ لم يبذل لها جهداً من فكره وأمله ، وكان حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها ، وأن يجزع منها جزع الذى يظن أنه كان فى مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر فى ذلك ، فيظل ملوماً محسوراً ...

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحى إلينا ، بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيماء ، أن الذى ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها ، أن تكون حياته إلا حياة ذلك البدوى ساكن الصحراء الذى لا يعمل عملاً لجلب الماء ، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء . وطبيعى ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار الظلم والجفاف ، معلق القلب ، مهدد العيش ،

يتجدد قلقه كثيراً لأنه لم يمسك من أسباب الحياة إلا بحبل بعيد ، هيهات أن يكون في يده دائماً ...

وأنتى تكون حياة هذا البدوى من حياة بدوى آخر ، سمى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تمسك منابعه بحوالب السحاب ، وتجلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يقيم الخزانات ويشق السواقي والقنوات ، ليصل منها الماء إلى كل بذرة بذرها !
لاشك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العُسرَى ، والآخر حملها على اليُسْرَى ... وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم في الشرق الإسلامى مستسلمين فى صفار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازِبٍ ، حتى يأتهم آت من غير أنفسهم ، ينفخ فى الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة فى الأرض يحكمون !

لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسى الذى انحدر إليهم من الجاهليات ، فهم يعيشون به فى الماضى ، وإن كانت أجسادهم تلبس أثواب القرن العشرين ...

ولتسكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المراكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ والقوى العارمة المجنونة التى يقول قائلها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يا بنى البشر ! »

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نقشام في مستقبل الإنسان ؟

أحسب أنه لم يصل في عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس . وإلى الآن لم تقم دعوة إلى الحق الواضح في الطبيعة بدون أن توضع في طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه . والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ...

وإن في الناس خيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسبة التي نجدها فيهم الآن ...

والدليل على ذلك ، نجاح الدولة الإسلامية الأولى ونجاح أم الشمال في أوربا خلقياً وعلمياً ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة ، حيث الثقة بالنفس الإنسانية وطيدة .

إن أدوات صحة النظر في الحياة واتجاهاتها ، موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجراثم التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر الهادي ، والقلب الكبير الذي نضج وطاب ؛ ولكن عُمباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغشاء ، وتلقى الجميع إلى المصب الذي تلتقي فيه الأخلاط من الضلالات التي تركها أبناء الجهالة الأولون ...

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ ،

وإنشائها بأيد غير ملوثة ، إنشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ،
ويؤهل الانسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة في جهاد الطبيعة واستئزال
بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها
كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها في العمل
والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها .

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم .
فالعالم والفن يجب صقل النفس بهما ، وإشراب الجسم إياها ، وإخراجه على
مقتضاها ، بحيث لا تتخلف حياة النفس والجسم وقواه وحركاته عن المدى
الذى وصل إليه الفكر ، ويحيث لا يتخلف ما فى الشارع والحقل عما
فى مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما إليها ، حتى تكون حياة
الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون
فى الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ، ويستغرق فى
التفكير فى حياته وحياة الإنسانية ، ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التى
تسلط بها الإنسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها فى خدمتها .

وما الإنسان بدون بقطة المعنى الفائق والروح السامى الذى فى حياته
إلا جسد يحتاج ويضطرب فى ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة
مغناطيسية آلية .

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول ، وأثره في تدليس الحاضر وإفساده وتزوير النفوس ، سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على السنة العجائز وفي المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته ، وشيوخ قومه ، ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته ، وتاريخ الإنسانية بأغلاطه ونقائصه ، ومحاولات العصور القاصرة في فهم الحياة ، وجهاد الإنسانية في شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات ؛ فما يكاد عقل الناشئ يصل إلى دور الحكم والموازنة ، حتى يكون قد تطبع بما وعى ، وأصابه ثقل التخمة ، وحيرة الامتلاء والتبلبل .

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان ، فيها أخطاء كثيرة ، فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ، ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم في مغالاة وتصعب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات .

وكان من كبرى نتائج ذلك ، أن عاش كثير من الماضي السيئ في الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش في الماضي وترى أنه كان الحياة . . ! وتمدح الناس بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون .

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم في زمانهم ، بل فتحوها على الماضي وعاشوا به في الحاضر ، وظهر أثر ذلك في الافتتان بهوامش الحياة ؛ والعكوف على دراسة سطوحها ، وترك دراسة أصولها

وعلمها النفسية الطبيعية والتجريبية التي تبقى لها نتائج دائمة تسلم إلى نتائج أخرى في سلم الترقى والتطور .

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وإنما هي بنت الماضي السحيق ، وحملوا معهم في رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها ، حتى في القرن العشرين ، ووضعوها حواجز وعوائق في طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوءات الدائمة التي لا تحتمل جدلاً أو مخارقة !

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون في كل عصر ركائماً من الغباوات والجهالات توضع في طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة ...

ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعتك مع إخوته على شيء يريد له لنفسه ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا أمامهم ؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز ، فهو أناني ضيق التفكير ، لا يدري أن أباه يملك الكثير ، ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب .

ولكن ما بال الأم التي رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض ، تتقاتل على البحر الزاخر والحقول المُرعة والجو الواسع ؟ إن ذلك من أخلاق الطفولة ، وضيق آفاقها ، وتحكم الغرائز في حياتها . وهذه صفات وجدت لها في مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريثاً !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسمعون إليه من الغنى والثروة حين

تثور غرائزهم ! وإن الحق والشر والطمع لنستنفد ونهلك من مال الأمم
الأثرة الجشعة ، ومن بذلها الدم الفياض ، ما لا يمكن للخير والسلام
والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره !!

ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفى في
البرهنة على هذا ، وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق
والعدالة والحسنى ، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار في مجرى التاريخ ،
فسوف تظل هكذا تعمّر لتدمر ، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر .

وكان المقصود بحياة الإنسان ، إذا استمر على هذا ، هو تحقيق مشتهيات
الغرائز ، وإظهار عبقریات النفس البشرية في التخريب بعد التكوين :
فهى طوراً تبني وتعيش في صفات البناء وأخلاقه ، وطوراً تهدم وتعيش
في أخلاق الهدم وصفاته ، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين :
الخير والشر ...

ولكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر في الماضي ، حين كانت
الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان في طفولته على ما تهيمه
له الأقدار في مستقبله ، ولحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ،
وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة لا تعدى أضرارها إلى
هدم أصول الحياة ، وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات
الحرمة والقيم التي لها اعتبارها ، كما هي الحال الآن في نتائج هذه الحرب ..
فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة
لا لخصام الأبطال !

وقتل الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة ،
ومسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها
والإطباق عليها ؛ لأنهم — فرضاً — خالقوها وواضعو أسرارها ...
فلنوحّد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة في التخريب ، كما
وحدنا الأرباب !
ونعلّم بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من
كل ذات ظفروناب !

في أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

عقيدة الجنس !

قلوب الأمهات — حدود الجنس — الإحساس بالمجتمع في الذات —
في الدورة الصغرى — للدورة الكبرى — جوهر واحد في ألوان مختلفة
— منطقة التلاقى والاتفاق — سدود العامية تنهار .

يدين الله الإنسان أن يشعر في أعماق نفسه شعور الإحساس بالجنس
البشرى ، وبوحدته معه وفنائه فيه ، وخدمة أفراده ومجموعه وأهدافه العليا .
وفي ضماير بعض الناس أغوار عميقة رحبة في حبها الإنسانية وشعورها
بها وبوحدتها معها ، كأنها قلوب الأمهات في شعورها بأبنائها ...

لا شك أن هذه القلوب تستمد من فيوض رب الرحمة والعون والحب !
ولا شك أن ضمائرهم تأخذ من ضميره تعالى وتنظر إليه دائماً ...

ولن أستطيع أن أفسر التضحية الكاملة والغيرية والإيثار العجيب ،
تلك الصفات التي نبجدها في قلوب خدام الإنسانية وآبائها ورؤادها ،
إلا إذا قلت إن يد الله تعمل في هذه القلوب ، وتتصل عن طريقها بخدمة
الحياة وحفظ لبابها ، وتعمل أعمالها العظيمة للإصلاح عن سبيلها .

وإلا فما هذا الشعور العميق عند هؤلاء بالفناء في خدمة الجنس ؟ !
إنه من عالم غير أرضي ... وإلا فما هي العدالة التي رضى البشر جميعهم
الدعوة إليها منطلقاً من تلك القلوب ، ولهجوا باسمها ، وطالبوا بإقامة الدول
والمجموعات البشرية والعلاقات الدولية على أسسها ؟ إنما إن لم تكن

مستمدة من عادة السموات ، فما هي إلا لفظ كعلبة فارغة يملؤها كل حاكم قوى بما يهوى .

إن هذه القلوب ذات العمق والانساع ، تشعر شعوراً أكيداً أن كل ظلم أو فساد يقع على إنسان أو مرفق من المرافق الصالحة لحياة الإنسان ، إنما هو واقع عليها بالذات ، وتحس لسعة الأذى كلما أصاب الأفراد أو المجموع ظلم أو فساد .

لا شك أن الله تعالى خلق هذا النوع من القلوب لحفظ المجتمع القاصر وإرشاده ، كما خلق غرائز الأمومة والأبوة لحفظ الطفولة وإرشادها .

ودائماً يشعر هذا الصنف من الناس أن حدوده مع الله تعالى تكون حيث حدود الآخرين ، وأن منطقة متاخمة ذاته لدواتهم يقف عليها حارس يقظ ، هو ذلك الذى يسمونه الضمير ، ومعه جرس التنبيه ، تدقه يد الله من داخل النفس ، فلا يسمع رنينه إلا حامله ... وهو حارس حريص على أن يرفع صوته دائماً ، سواء استجيب له أم لم يستجب .

وحيث تقنأدى أكثر ضماير الإنسانية وتتقابل أصواتها على شيء ما فتمَّ حدود الجنس كما أقامها الله !

والإنسان الاجتماعى ينبغى أن تكون له عقلية وشعور وآمال تغاير ما يكون للفرد الأبدى للمتفرد مغايرة تامة . وليس الأمر فى الانتساب إلى جماعة والعيش معها ، أمر عنوان أو رابطة ظاهرية ، وإنما هو أمر عميق فى النفس ، لا أمر خوف من الانتقادات ، أو قوانين العقوبات ... هو أمر إحساس بالذات فى مجتمعها ، أو بالأحرى أمر إحساس بالمجتمع فى

الذات ! وكل مصائب الاجتماع ناشئة من ترك أدوار النمو في الفرد بدون رقابة وتعهد رشيد يسهر على إنبات النفوس نباتاً اجتماعياً مسالماً ، لانموأ شيطانيا طاغيا . وإن حياة الجماعة يجب أن تحضد الأشواك في أعواد الأفراد ، وتجمع تلك الأعواد كما تجمع طاقة الزهر في تنسيق وتصنيف لا تختلط معه أشواكها الحادة المُشرعة بأوراقها الرقيقة الحريرية فتمزقتها تمزيقا ، وتعكس المطلوب من جمال منظرها مجتمعة ، إلى قبح منظرها مجتمعة ممزقة ...

أجل ، إن برائن الناس وأنيابهم في الأمم المنحطة التي لاتزال الفردية والأنانية متغلغلة فيها ، تمزق وجوههم وتقطع روابطهم ، فتبدو حياة اجتماعهم قبيحة الظواهر قبيحة البواطن ، ويشعر حينئذ الانسان الحر العاصر القلب بالمعاني السامية ، أن حياة التفرد والعزلة أجمل وأكمل وأدعى الى راحة الفكر ، وصيانة أمانات الحياة في النفس .

والناس لا يزالون في دورتهم الصغرى حول نفوسهم وذواتهم وقومياتهم . لا يزالون محكومين بأنانيتهم ورغباتهم الخاصة ، كما يحكم الأطفال بغرائزهم الدنيا وحدها . أما دورتهم الكبرى كجنس عظيم يعمر الأرض ويثيرها ويسخرها مسددا الى هدف واحد ، فذلك لما يشعروا بها بعد ... مع أنها من الغايات العظمى لخلقهم .

إننى أشعر أنه يجب أن نسقط اللغة والوطنية والقومية الآن من حسابنا حين نتحدث في شأن الإيمان بالجنس ، وأن ننظر إلى الإنسانية الواحدة من أزلها إلى حاضرها ، ونتخيل مستقبلها ، لنراه وحدة جامعة تسير في

دورة كبرى بخطى مطردة في طريق تعلو وتسمو .

وقد أخذت كل أمة تقريباً دورها التاريخي في حمل الشعلة على طريقةها الخاصة ، حتى ضعفت يدها عن حملها فتسللتها أخرى ، ثم وصلت الحال الآن إلى أن الأم جميعها توشك أن ترفع بأيديها مجتمعة شعلة الحضارة .

وإننا حين نجرد الأشخاص الإنسانية من جلودها الملونة وأسننها المختلفة ، نجد جوهرأ واحداً في قلوبها وعقولها ؛ فالعواطف الشريفة والنوازع الخسيسة واحدة في الجميع ، والاستجابة لحجج الحق والعدل واحدة في عقول الجميع .

وفي كل مكان وجدنا زرعاً إنسانياً متشابهاً في طباعه واجتماعه على المعاني الكلية التي تنظم حياته ، وفي تربيته لدواعي العلم والدين والجد واللعب والحياة والمجد . وما وجد في مقادير ذلك من تفاوت ، فهو لا يضير وحدته ، ولا يمنع الاعتقاد بأنه من بذرة واحدة .

نعم إن الله بذر بذور النوع الإنساني في بقاع الأرض المختلفة الطبيعية ، وجعلها تنبت متباعدة في عهد طويل ، حتى تكونت الإنسانية الحالية منوعة الظواهر بفعل الأمكنة والتربية واختلاف اللغات ، وتنوعت أفكارها تبعاً لذلك .

فمن أراد بعد ذلك أن يمحو آثار ذلك كله ، فهو جاهل خائب . ولكنه يستطيع أن يجمعها على صفاتها الكلية المشتركة وجوهرها الواحد ، ويقيم حياتها السياسية والاقتصادية على العدالة التي تدركها عقولها وضمايرها

جميعاً ، ثم يترك أمر تفرقها في الفرعيات بدون محاولات .

فالناس لا يمكن جعلهم أمة واحدة في غير العدالة والمجال السياسي والاقتصادي ، لأن غير ذلك مناقض لقوانين الفطرة في اختلاف الناس اختلافاً كبيراً في الأمزجة واللغات والألوان وسائر الفرعيات ؛ إذ أن خالقهم أراد تمايزهم وتنوعهم هكذا ليتعارفوا ، وتكثر معاني المعرفة بينهم تبعاً لكثرة التفرع والتغاير والتميز والاختلاف ، ولأنه نوعهم كما ينوع البستاني الحاذق النمار والأزهار ، فذلك أجل وأوقع ، وأدعى للتنشيط وكثرة المعلومات والأذواق .. أما التوحيد السياسي والاقتصادي في نطاق واسع مشترك ملحوظ فيه حق كلٍّ وواجباته ، سواء أكانت «الوحدة» في ذلك النطاق الفرد أم الأمة ، فذلك ممكن ما دام مدعماً بوسائل القوة والسرعة والإخضاع للتنظيم ، واحترام السلامة الإجماعية ، واشتراك الجميع في إخضاع الثائر على نظام الجميع .

ومهما فعلت « العامية » في نفوس الساسة المتخلفين عن إدراك هذه الحقائق السامية في حياة الجنس ، والقاعدين عن الوصول إلى قمة الفكر والخلق ، الذين يابون أن يعترفوا بما توحى به حقائق العلم والإيمان وسير الزمان ، ويقيمون الحدود المصطنعة بين جوهر القلوب والأفكار التي وحدها الله ، ويجعلون الفروق السطحية موانع وعقبات كأداء لا يمكن اجتيازها — مهما كان من ذلك ، فإن السيل الجارف والتيار الدافق النابع من عالم الفكر الإنساني والضمير الواحد ، سوف يجتاح ما أقاموا من سدود ويدمر ما صنعوا « وباطل ما كانوا يعملون ! » .

وقد انبثقت البشوق في تلك السدود ، واتسعت الثغرات بما قدمته
الكهرباء الساحرة ، والأثير الجامع ، والعلم ذو الطبيعة الواحدة الموضوعية
وبما قدمته الحروب القديمة والحديثة من مزج الدماء ، حتى يخرج منها لون
جديد تراه بصائر الأبناء بعد هلاك الآباء !

وان أحداث القوة والدم ، وفتوحات الروح والعلم ، هي التي تستطيع
دائماً أن تجعل دائرة الجوهر الإنساني الواحد أساساً مشتركاً لتلاقى الضمير
الواحد للأمم والأفراد ، على استنكار جرائم القوة والدم ، والاستكثار
من فتوحات الروح والعلم .

النقص والتكامل

الإنسانية الواحدة — أدوار نمو الإنسانية في أدوار نمو الفرد — من
وحي الحرب العصرية — مقدمات الوحدة — عصر القبيلة الأممية —
الأقدار تفصل الجسم الواحد — دفع وهم — الخيرة في أمريكا — أم
مجنونة وبنت عائلة — من توحيد الأرباب إلى توحيد الإنسان — لا حياة
مع هذه الحرب — قيامة صناعية — سلم طويلة من حرب خاطفة —
المبضع من السيف — دم الحرب دم مخاض — معان تبقى من أم نفسي

ألمس في نفسي ، وفي كل فرد عرفته من أمتي مهما كان عظيماً ،
نقصاً أجده تكميله عند غيري وغيره . وهذا مما يؤكد في فكري أولاً أن
الدولة جسم واحد يكمل بعضه بعضاً ، ولا يستقل عضومنه بحياته إلا ظهر
مبتوراً ناقصاً . وكاله وجماله في أن يتصامم إلى غيره ، ويتعاون ويصبر على
مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع إدراك الكمال الميسور .

وكذلك ألمس في كل أمة نقصاً أجده تكميله لدى غيرها من الأمم . وهذا
مما يؤكد في فكري ثانياً أن الأمم في المجموعة البشرية ، كالأفراد في مجموع
الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص يكمله غيرها .
فالفردي الكامل الذي يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق .
والأمة الكاملة التي تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن
تخلق ...

تلك حقيقة توحى إلينا الإيمان بالإنسانية الواحدة ، وتحتم علينا أن

تتناسى مواريث الوحشية القديمة والعصبيات الأولى ، وأن نفكر للحياة الواحدة المستقبلية التي يصح أن تنتظم الإنسانية جميعها ، بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التي كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ، ومواردها وأرزاقها محدودة .

ويعظم في نفسى يوماً بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته إلى رشده إلى شبابه إلى كهولته ، وبين سير الحياة بالإنسانية جميعها من طفولتها إلى شبابها إلى كهولتها .

وإني أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالإنسانية كلها ، هي خطوات سيرها بالفرد الواحد . وكل من يتفرس في الحياة الاجتماعية يجدها وحياة الفرد سواء في تدرجها من الفرائز والعواطف إلى الرشd والعقل وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيراً ، ويكون أنانياً فردياً في حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالي بالنتائج ؛ كذلك الإنسانية في دور طفولتها : أنانية غضوب تحطم كل شيء في سبيل منفعتها الضيقة .

ولسكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن ترد إلى أساليب الأطفال وغرائزهم ، وتحبسها عن الغضب والتحطيم — إلا إذا امتدت فيها حياة الطفولة ، للشذوذ أو عدم تقدير النتائج — كذلك الإنسانية لا بد أن تصل إلى هذه المرحلة في يوم ما قريب أو بعيد . . .

يوحي إلى ذلك ، ما أراه في الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس ، وجنون الإنسان ، وقسوة الآلة ؛ بحيث لا يمكن مطلقاً أن تحتمل

الحياة بعد هذه الحرب ، إذا لم تقمع الغرائز والحماقات التي أثارتها ، وإذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للإنسانية الواحدة التي ابتدأت وحدثها تبدو وتستعلن في هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهذه الرابطات الوثيقة بينها ، ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة ، والمؤتمرات الجامعة ، والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس ، وتفكير أرباب التجارات والأعمال في الأسواق العالمية ، ومن تبادل تعلم اللغات والأغاني والملاهي وأدوات الزينة ، ومن « الصندوق السحري » : الراديو الذي سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين ، محجوبا بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم ، ومن « السبورة السحرية » : السينما التي تنقل الدنيا وناس الدنيا ، وتعرض الجميع على أنظار الجميع في حجرة ضيقة .

يصح أن نسمى عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأُمِّيَّة » . والإنسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التنافر بين مجموعات الأمم المختلفة في هذا العصر ، هو صورة مما كان يحدث بين القبائل في الأمة الواحدة .

ولم يحمل القبائل المتعادية في القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية ، إلا ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة .

فلما رأت أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة ، تنازلات كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرياتها ، ورضوا ذلك ، إما بضغط الأقوى الأعدل ، وإما بالإدراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة .

وكذلك كان الأمر في تكوين الإمبراطوريات المختلفة : حروب ونزاع مستمر ، وتخریب الممالك والمملوك ، ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح في سبيل المصلحة التي لا غنى عنها للجميع :

وكذلك تكون الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات وأديان ومذاهب مختلفة ، بعد حروب ونزاع دمر حياتهم في بعض مراحل تاريخهم .

وكذلك وجدت البذرة التي لا بد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهي بذرة « عصبة الأمم » التي سيجافظ الغالب والمغلوب في هذه الحرب على إيجادها وجوداً فعالاً مسلحاً^(١) ، لا وجوداً صورياً كالذي كن عقب الحرب الماضية .

وعندى يقين غالب ، أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنار جسم الإنسانية الواحدة ، ذات الحكومة الواحدة ، كما فصلت جسم كل إمبراطورية على حدة ، كما فصلت جسم كل أمة على حدة ، كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة ، كما فصلت جسم كل أسرة على حدة ، كما فصلت

(١) تحرر هذا للطبع مصادفة في ٢٨ إبريل سنة ١٩٤٥ (بعد أن نشرناه في ٢٨ إبريل سنة ١٩٤١) ومؤتمر « سان فرانسيسكو » مجتمع لتكوين « مجلس الأمن الدولي » المستند إلى قوة عالمية . وفي قلوب الإنسانية التي دمرتها الآلام صلاة حارة أن ينجح الله هذا الأمل العظيم ، وأن يوفق الجميع للإخلاص فيه وتجنب أسباب انهياره .

كل جسم على حدة ، كما فصلت كل عضو على حدة ، كما فصلت كل خلية على حدة ... !

هو قانون واحد ينظم الكون كله ! قانون الجزيء . والذرة هو قانون المجاميع . . والافاق السياسى والافوى والعلمى والاقتصادى فى المجموعات الكبرى والأمبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة إلى ذلك الأمل المنشود .

ولا يتوهمن واهم أننى أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض كلا . وإنما سيبقى كما هو ، فى حدود الدولة ، بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وكما هو بين الأسرة الواحدة ، وكما هو بين القوى المتنازعة فى الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة ؛ لأن الدفع قانون طبيعى كقانون الجذب ، ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو الحال فى الدولة الواحدة القوية التى لا يفلت منها من يريد الخروج عليها

إن نفوس الأجناس وطبائعها تتغير تغيراً سريعاً من التمايز إلى الاندماج والاتحاد السياسى . فلم يبق فى الولايات المتحدة نعرات أجناس ، وإنما صارت كتلة سياسية واجتماعية واحدة يمرور جيل أو جيلين ، وبتوحيد اللغة العامة .

والولايات المتحدة « خيرة » للحياة الإنسانية المقصودة . هى نموذج ناقص ، ولكنه أقرب إلى الكمال من غيره ، وكان من الواجب أن يحذو العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد ، ويترك موارد التاريخ السيئة ، وعصبية الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذى يرضى

الجميع ، مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .

أوروبا ولدت أمريكا . والبنيت هنا أعقل من أمها وأسعد ! فلا تزال القارة العجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ، وموارث تاريخها السيء ، في عالم الحسد والبغض والحديعة والبطش والتنازع . ولا تزال تشقى الأرض كلها معها . بينما أمريكا تسعدنا وتجدد الحياة يوماً بعد يوم ، وتنثر الأفراح والمباهج في كل مكان .

لقد برئت أمريكا من حب الاستعمار والتنازع عليه ، فبرئت من السُّعار الذى يصاحبه ، وبرئت من الصفات الذميمة التى تصاحب خلق الافتراس . وصارت حبيبة إلى جميع أمم الأرض .

اتخذت الطريق المشروع إلى الغنى والثروة ، وهو طريق التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب والغلاب ، فأخذت تجمع من هذه الطرق المشروعة وتعيش بما تجمع ، وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم في بقاع الأرض ، ثم لا تُفجع فيما تجمع ، ولا تحترق وتدمر معه كما جرى لأمم أوروبا .

وتورطها في الحرب الماضية والحالية إنما كان لتأمين هذه الطرق المشروعة ، وللدفاع عن أقرب الناس إلى عقائدها في الحياة .

لقد خطا الإنسان بإدراكه عقيدة توحيد الله خطوته العظمى إلى الكمال العقلى والقلبى ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن أموره بميزان رب واحد ، فيجب أن يتجه بقلبه إليه وحده .

وسينخطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الإنسانية الواحدة » ويؤمن بها . وكما حلت عقيدة توحيد الإله مشكلات الاعتقاد ، ووجهت الحياة وجهة واحدة ، بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين . كذلك سيجل الإيمان بوحدة الإنسانية مشا كل وعُقداً مستعصية ، وتتجه به الأمم وجهة واحدة ، هي وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق الضيق الأناني ، ووجهة العلم الباني المعمر ، بدل العلم المخرّب المدمر ...

أقد كان منطق الفرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولا في الأزمنة الماضية التي كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار الطويلة واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة إلى حد التناقض ، والمخطاط الأهداف ، وكان دور تحكيم الغرائز مقبولا لحل ذلك الإنسان الجاهل على التسابق العنيف إلى كشف بقاع الأرض المجهولة ، لا المدة العلم وسمو المعرفة ، وإنما لمنافعها المادية الضائعة ، إذ لم يكن له علم وعقل يغنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحاد بين الناس متمشياً مع منطق أحوالهم حينذاك ، لأنه لم يكن هناك أفق عقلي أو علمي أو عملي مشترك بين أمة وأمة متجاورتين ، بله المتباعدتين ، ولم تكن الظروف تسمح بوجود ذلك الأفق المشترك إلا عن طريق الحرب التي كادت تكون الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ...

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضاراً بالجميع ، قاطعاً للعلاقات التي تنمو في وقت السلم نمواً عظيماً غزيراً لم يكن له مثيل في العصور الأولى ، وصارت العودة إلى تحكيم الغرائز ارتداداً وانتكاساً في الحياة كانتكاس

الرجل الحليم إلى غضب الطفولة الذميم ؛ إذ قد صار في يد الإنسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها ، وتسحق براعم نموها ، وتجعل العمل للحياة والسعى لها في وقت السلم ، عبثاً لا طائل تحته ، ما دامت الحرب تأتي بعد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر .

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل إليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة ، وأدوات ترف الحياة ومباهجها ، يتحول إلى أدوات دمار وإبادة إذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين .
فلا أمان على الحياة من شيء مع غضب الإنسان . وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذي كان يهتف به المحاربون القدماء ، وهو تلك الصيحة : يا منصورُ أمت !

وكانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب في العصور المتوسطة قوانين فيها بقيماً على مناطق نمو الحياة ، وفيها ذكرى للود القديم والدم والتسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجدها في وقت احتدامها ما يخفف آلامها من نبل الفروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحُرث والتسل :

إذا اُخترَبَتْ يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القُرْبى ففاضت دموعها !
أما الآن فاذا بطشوا بجبارين ! لا يذكرون طفولة ولا شيوخة
ولا مخلفات فنون وعلوم وآثار ثمينة ، هي ملك الإنسانية جميعها .

ومن كان يظن أن الإنسان الأوروبي العالم الفنان الذي فتنته أحاسيس

الحياة وجن بها جنونا ، فعبدناها في الزهور والرياحين والحب والألحان
والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم والعظام
والأحجار والخرزات ، ولم يدخر في سبيلها مالا ، وجمع مجموعات النبات
والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتقى على صفاء في
المجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية ، وتبادل تعلم
اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام والأرواح ،
وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير
له تاريخ الإنسانية التي يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل كل أولئك
يجرؤ على أن يهدم حاضر الإنسانية بكل ما حمل في طياته من الماضي ،
ولا يبالي أن يزهد الإنسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه !!

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد والمعابد ؟
أين عالم العقول والقلوب ؟ أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير ؟
أين المعاني التي سجلها الدين والأدب عن الآلام ، ودارت عليها فلسفات
وقصص ومسرحيات ؟ أين مؤسسات الرفق بالحيوان ؟ أين كل « الدراما »
و « التراجيدي » التي كانوا بها يبتكون في المسارح على آلام الإنسانية ؟ !
أكانت ملاهي وملاعب لا أكثر ؟ يا لها إذاً من خديعة عبقرية !

ولكن هذه هي الحرب العصرية : صورة مصغرة من أهوال
« القيامة » . . بل القيامة ساعة ثم تنقضي الحياة ويستريح الناس بالموت
إلى حين . . ولكن الحرب العصرية « قيامات » لا عدد لها . بها يموت

الناس ويبعثون ، ثم يموتون ويبعثون ، كلما شئت عليهم غارة جوية إلى أن تضع الحرب أوزارها .

فيا بني الحياة ! أى حياة هذه ؟!

إن الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة . والناس أرحم بأنفسهم من أن يحبوا مثلها . إنها مرحلة لا بد منها فى طريق الإنسانية الشقية إلى الاستقرار والراحة واللقاء الذى لا بد منه بعد الافتراق والتفراق . ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطىء الطويل ..

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برؤ الحياة وثباتها واستقرارها .

ومن بين قسوة القلوب فيها ، بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب .

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائماً ابتداء دورة زمنية بالإنسان وانقلاب فى أوضاع الحياة . والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين .

هذه السرعة التى فى آلات الحرب ستكون فى آلات السلم مضاعفة . وكما استتعال سيف الحرب إلى مَبْضَعٍ للطب ، ستستحيل جميع آلات الدمار إلى آلات إنتاج وتعمير ورفاهية وهدم للسدود والعقبات فى طريق تعمير الحياة .

ولا شك أن تشبيه الحرب بحادث الخاض والولادة تشبيه صحيح

من كل وجه .. فكل حرب تله مولوداً من الطباع والأوضاع والأفكار والآلات والمرافق .. مولوداً يجدد الحياة ويقذف في شعلتها حطباً !
ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزّة والخوف ؛ فكل هذه أعراض تصحب حادث الولادة في حياة الانسان ...

وان تضيق سدى تلك الأرواح التي ذهبت قرابين المعاني السامية في قلوب الأمم المحاربة لإقرار الحرية والحق والسلام ؛ وإنما هي كِبَنَاتُ في البناء الخفي للوجود الانساني .. وإنها كلها حية تنظر إلى عمراك الجماعات في عالم الظواهر كعمراك ذرات تحملها الريح ، أو حصى يحمله ماء السيل حتى تبلغ مكنها المرصود في بناء الوجود ...
وسواء أوضع حجر في خفاء الأساس ، أم رفع في علانية القمّة ، فالسكل بناء واحد ...

وتبلغنا أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت إلى الأفراد فيها ، وإنما يعلو عنوانها أو ينخفض ، وهي صورةٌ موحدة ليس فيها توزيع ، فتفرح كلها بالانتصار ، ولو باد في سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام ولو انتصر فيها كل فرد نصراً فردياً ، وأتى بأعمال البطولة المعجزة .

فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة على ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التي تنتسب إليها ، حتى يتبينوا أنه لا وجود إلا للمعاني العامة التي هي ملك الدولة أو الإنسانية جميعها ؟

إن هذه النظرة إلى المعاني السكرية العامة تجعل الناس يحملون السلم
بقلب عارف بها ، ويحاربون إذا كتبت عليهم الحرب بسيف كباضع
الأطباء : تقطع لتشقى ، وتقتل فتُحسن القِتلة بدون مُثلة ولا نية إنهم
أوجريمة ، وتجعلهم خصوماً شرفاء رحاء ، يحاربون بروح رياضية كأنهم
يلعبون ، وتجعل من السيوف ظملاً للضعفاء والمسلمين .

وتلك نظرة الربانيين المؤمنين بالله وبالبإنسان : آمن ودائع الله
في الأرض !

الواحد !

البحيرة الكبيرة من المنبع الصغير — هذه الحرب من قلب واحد —
صدامات التيارات العظمى — الفرد المنشود عالم معقد — التبادل بين
الفرد الواحد والانسانية الجامعة — توزيع الدنيا على الأفراد والأفراد
على الدنيا — من جذور الشجرة الانسانية الى ثمارها — لا بد لحياة الشجرة
من اعتراف كل جزء فيها بكل جزء

تظهر بوضوح قيمة الفرد البشرى الواحد ، ومبلغ آثار تصرفه ، في
تدبير تشرشل أو هتلر أو روزفلت أو اينونو أو ابن سعود أو ستالين
أو أيزنهاور أو أمثالهم ؛ فإن تصرف أحدهم يجر على أمته إما الحسنى
والفخار ، وإما السوء والدمار .

ففي أمثال هؤلاء يتبين كيف يجر فرد شعبه أو العالم وراءه فيخفضه
أو يرفعه . ومعنى هذا أن الفرد البشرى ذو قيمة كبرى في حياة الاجتماع ،
وأن وضعه هذا يحتم على الدولة وعلى العالم أن يحترسا دائماً من سوء
تصرفاته ، وما يجلبه على الاجتماع من الضرر ، وأن يحفلاً دائماً بحسن
تصرفاته وما يجلبه إلى الاجتماع من النفع .

فتصرف الفرد في الحياة الاجتماعية أشبه بتصرف ماء مستبحر من
نلم رخو على أرض منخفضة ، يبدأ ضعيفاً ، ثم لا يلبث أن يتحول سيلاً
حدوراً لا استطاع رده .

ومهما قيل في حكم الديمقراطية المطلقة ، والشورى الفضفاضة ، فروح

الانتقال والبطولة وفتح آفاق جديدة ، تتركز غالباً في فرد واحد ، وخصوصاً عند الأزمات الخطيرة ، ويكون هذا الفرد حينئذ كموضع نبع الماء في البحيرة التي يكونها ويكون آثاره وعظمته بها : فموضع النبع صغير ، ولكنه هو البحيرة الكبيرة في الواقع .

وكيف انبثق هذا الدمار في هذه الحرب على العالم ؟ لقد انبثق من قلب رجل واحد ملئ بالحقد والضعف على الذين رآهم لم ينصفوا أمته . وتجمع الحقد والضعف فيه ، وانتقل منه إلى أمته ، كما يتجمع القبيح والصديد والرائحة في رأس خراج ، فيصيب جسم صاحبه بالحمى والرعشة ، ولا يمكن سده إلا بعد التصفية النهائية .

فهل بعد هذا يحتقر بعض الأمم شئون الفرد الواحد ويتركونه مهملاً زاعمين أنه لا وزن له إزاء الأمة أو العالم ؟ !

وهل قام الخير أو قام الشر إلا بواحد ؟ الواحد هو أساس العدد اللانهائي .

وهكذا ، إذا أراد الله أن يتصل بالناس اتصال تغيير في نظامهم المعاشية أو السياسية أو الدينية ، وضع يده في قلب واحد ، وسلط منه تياراً خفياً على الجميع . فإذا كان يريد خيراً بالعالم أطلق تيار الخير من قلب رجل الخير ، وإذا كان يريد نقمة وقصاصاً أطلق تيار الصعق والحرق السريع أو البطيء من قلب رجل الشر .

فلنجهد أن نجعل قلوب الأفراد مواضع ليد الله حين يريد الخير .

والعناية والمشيئة الإلهية التي تخرج وجوه الناس ونفوسهم وعقولهم
صوراً شتى متميزة ، مهما كثرت الأعداد ، بحيث لا يشابه وجهان ،
ولا يتماثل عقلان في كل شيء ، حتى ولو كانا لتوأمين ، ترشدنا إلى أن
نرى في كل فرد جانباً متميزاً من الإنسانية ، وأنه موضع عناية وقصد
من مخرجه إلى الوجود .

ولو نهت الدولة قيمة القصد في الفرد الواحد ، وخطره في الحياة في
حالات صلاحه وفساده ، إذا ما كانت تسمح لنفسها أن تترك فرداً دون
أن تمر عليه بمنظار مكبر يكشف عن أدوائه ومنافعه .

فالفردي إما بؤرة ظلام ونجس وفساد متنقلة تحمل الجرائم الفتاكة
معه حيث حلت . . وإما بؤرة صلاح وطهارة وإشعاع تحمل وتعكس
عوامل الحياة والجمال معها حيث حلت . وشتان ما بينهما ! فكيف تهمله
الدولة هذا الإهمال الشنيع وهو ما هو في جسمها ؟ !

لو أفلت فرد شرير شيطاني من قيادتها وحراستها ، إذا لعاث فساداً
في حرثها ونسلها وعمرانها . ولو ضاع فرد ملكي من رعايتها وتعهدها
وتشجيعها ، إذا لضاع عامل عظيم من عوامل نموها وارتقاها وسعادتها
وامل فيه ما يرضع النوع كله .

ويظن أكثر الناس أنه يكفي لإنشاء « الفرد الإنساني » أن نطرح
بذرة منوية في رحم من الأرحام ، تولد بعد مدة ، فتنمو حتى تكون ذلك
الجسم المعهود الذي يملأ أسواق الحياة . . ونسوا أنهم في إنشاء شجرهم
وغراسهم وحيوانهم يسلطون يقطتهم وعملهم وتعهدهم الدائم ، حتى يحصلوا

على ما يريدون من الأصناف المطلوبة المرغوبة ، وأنهم يسهرون لمحاربة الآفات التي تدنو من حرثهم وحيوانهم .

ألا إن الإنسان المنشود عالم معقد ، ليس الجسم الظاهر إلا وعاءه وقالبه ! أما سره ومعناه ولبابه ، كما يريد رب الحياة من « النوع » ، فأمر لا تظهر الى عالم الاجتماع إلا إذا اجتمعت لها عوامل الحياة الصالحة بنسب موزونة .

وإن الروح التي عنها يتحدثون ، هي نتيجة تفاعل الحياة الحيوانية في الجسم مع نتائج التربية والبيئة والتعليم وجميع المؤثرات . إنها كائن منفصل عن الجسم كنتيجة وجود هذه العوامل الأرضية المختلفة . وإن من أدواتها ذلك اللوح الخفي السريع التأثير ، الذي ينطبع فيه ما يقع عليه أو يتخايل أمامه من المؤثرات .

فالذين يلقون « بذور » الإنسان في الأرحام ، ولا ينتقونها قبل إلقائها ، ولا يهيئون لها الجو الصالح وهي في مستودعها ، ولا البيئة الصالحة وهي في نشأتها ، ويتركونها هكذا تتداولها العوامل الطبيعية مصادفة ؛ هؤلاء ينبغي ألا ينتظروا من الحياة أن تعطيهم تلك الوحدات الإنسانية المنشودة القريبة من الكمال في صفات نوعها .

والإنسانية ملك الفرد ، والفرد ملك الإنسانية . وما كان من المستطاع أن يحصل الفرد الإنساني ما يحصله الآن من الأفكار والمعلومات والتجارب والأرزاق والمتاع لو أنه عاش فريداً متأبداً معزلاً حياة الاجتماع

فنحن جميعاً بإزاء بحار المعاني يأخذ كل فرد منا غرفة منها يلونها في إنائه بلونه الخاص ، ثم يقدمها إلى غيره من الناس . وكلما أضيف فرد إلى المجموع ، زاد أفق من آفاق الحياة في الأرض . ولن يمكن أن يحل فرد محل آخر ؛ فإن كل ثمرة إنسانية لها سر خاص لا يرى في سواها . وإني ما جلست مجلساً مع فرد ما ، إلا رأيت فيه صورة للعالم لست أراها مع غيره .

ومن العجيب أن كل فكر يريد أن يطبع الإنسانية على غِرَارِهِ هو ويحملها على حياة تصدق منطقته الخاص ، مع أن التوزع والتمايز بين الوحدات الإنسانية قانون مطرد .

وينطوي فكر كل فرد على صورة للعالم غير الصور التي في أفكار الآخرين ، فكل فرد يرى الدنيا من خلال نفسه ، وكأن الأكوام عدد العقول . .

وما أعجب أن تقرأ وجوه الناس ورءوسهم ! إنها صفحات يبدو للناظر العجّال أنها سطحية ضحلة ، ولكنها للناظر المتعمق المتفرس ، تقذف به إلى لانهائية ذات أعماق .. والعيون هي مسالك تلك الأعماق ! هكذا يثير وجه كل فرد وعقله صورة من صور الدنيا . وكل فرد كأنه الحياة كلها مستقلة ، حتى ليخيل إليك أن الدنيا الإنسانية تنقص بموت فرد واحد ، وأن مكانه لا يملأه غيره ، سواء علا أم سفل ، علم أم جهل . فتوزع الدنيا على الأشخاص ، وتوزع الأشخاص على الدنيا ، يعطى صورة فنية أوحبكة مسرحية يحشد فيها الفن الرفيع ، والإخراج البديع

ولذلك قالت التوراة والقرآن : « أنه من قتل نفساً بغير نفس
أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما
أحيا الناس جميعاً ... »

ومن هنا جاءت قداسة الحياة الفردية في الشرائع ، واستنكر الاعتداء
عليها استنكاراً إجماعياً . وقد أعطت الإنسانية الفرد حرية تخيلتها لنفسها ،
واستوحشتها من إحساسها العام وضميرها المشترك .

والإنسانية كجسم شجرة واحدة : فيها جذور لا بد أن تعيش في
الطين والظلام والعفونة ، لتحال غذاءها وتأخذ عناصر بسيطة تتركب
منه مائشاء من اللباب والقشور والأزهار والثمار والطور ، إلى آخر
ما في عالم الأشجار .

وفيهما سيقان لا بد منها لتحمل غيرها وترفعه إلى عالم الجو
والضوء والنسمات .

وفيهما أوراق تبلغ من الكثرة حداً كبيراً يرتفع إلى مستوى الزينة
ويشترك في صميم العمل الضروري لحياة الشجرة ؛ لأنها « رئات »
يتنفس بها الشجر .

وفيهما أزهار وهبها واهب الحياة العطر والجمال ، وأخرج فيها روحاً
خاصاً يخيل للناس أنها ليست من عالم الطين والعفونة والتحلل والظلام .
وفيهما ثمرات هي صناديق أسرار الشجرة ومستودع حياتها المقبلة ،
وهي روح الشجرة ، تحمل سر نوعها من الماضي للمستقبل .

ولا مفر من اعتراف كل جزء من الشجرة بكل جزء آخر لتحيا جميعها ، ولا بد أن يعلم كل جزء أنه وضع في موضعه الرفيع أو الوضع ، ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة في الموضع أو العلوفيه ، والعلانية أو الخفاء ، كلها نظرات اعتبارية في الظاهر . والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هي حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأم .

وينبغي ألا ينظر جزء من الشجرة لآخر نظرة حسد أو ازدراء ، وإنما ينظر نظرة طاعة لليد التي وضعت في هذا الكل ليؤدي دوره وخدمته .

ويكفي غناء لما أسفل واختفى أن حياته كثيراً ما تكون أثبت وأدوم مما علا . ويكفي غناء لما علا وارتفع عن سرعة فناءه أنه أجمل وأشهر . وكلا المعنيين جدير أن يحارَ بينهما وبين قسيمه الاختيار !

ألا إننا ممثلون نؤدي أدواراً يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغي أن نعرف مواضعنا الحقيقية من الكون ، وأدوارنا فيه ، لنؤديها على أكمل وجه ، ثم نخفى وراء « الكواليس » إلى يوم إصدار الرواية الأخرى التي سنؤديها في المسرح الأكبر ، في الكون الواسع !

فقط ، اضمنوا لكل عامل بارع ، مهما كانت مواد عمله خسيسة أو كريهة ، مكافأة وتكريماً وتعظيماً لمواهبه ، ولا تقصروا اهتمامكم

وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعة الملونة المزوقة من شجرة الإنسانية : كالساسة
والحكام والأثرياء ومن إليهم ، من الذين خصهم المجتمع الجاهلي بالاحترام ،
بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع في عمل من
أعمال الحياة الإنسانية ؛ تفتتح لكم أبواب من سعادة الحياة ما كنتم
تتصورون أن وراءها شيئاً ذا قيمة وتأثير في حياتكم يعادل تأثير السياسة
والحكم وما إليهما .

اقضوا على تخصيص الحكم وذوى السلطان والثراء بتعظيمكم
وخشيتكم ، وانظروا لغيرهم كذلك من العمال والكناسين ومن إليهم ،
وكرمهم كرامتهم ؛ فإن لهم في الدولة أثراً لا بد منه كآثار « أصحاب الدولة » !

اللواؤة والصدقة !

[رد على « نبي » النازية « نيتشه » الذى كان لإيمان
« هتلر » بفلسفته فى عبادة البطش والخيلاء والكبرياء
أعظم سبب فى فداحة جرائم الألمان فى هذه الحرب]

رحمة القبح والنقص — الفارون من الزحام — النقص هو مادة فن الضحك
والتهريج — الشعور بالنقص وخدمته للحياة — عبقریات الغباء ! —
فى سعي الذكاء — الحذر من جموح الذكاء — تبادل الفهم بين
العاجزين والقادرين

مات صديقى المفكر المخلص ، المشوّه الخلقة ، المحروم من الجاه
والثروة ، الموهوب من الحكمة وصدق الإحساس ، فتحررت أفكاره
العظيمة من شخصه الضعيف وجاهه المغمور ، وانقطعت الصلة بين الكاتب
الضئيل والمكتوب العظيم ، وابتدأت كلماته تدب فيها الروح وتبرز
مستملنة بهيئتها المجردة من هلهلات ملابسه ومقم جسمه ومهانة فقره !
وكان يدرك مايجول بخواطر الناس عنه حين يغشى مجالسهم ويحتك
بهم ، من الاستصغار لشأنه ونبوّ البصر عنه ؛ فكان يجتهد أن ينأى
عنهم ، ويتحرج أن يغشى مجامعهم التى يعرضون فيها أجسامهم الرشيقة
وملابسهم الأنيقة ، وأحاديثهم اللبقة التى يتحدثون فيها عن أنايتهم
واختباراتهم فى علائق الطين والذهب ، وضجيج المحاصمات والمنازعات
التي لاتتصل بصميم الحياة ولبابها ، ولا بقدس الفكر وحقائق العلم .

ولم يشأ أن يترك صورة لشخصه ، حتى لا يقتزن وجهه — وكان
دميم الخلقه — بأفكاره وميرانه الروحي ، فتذهب قباحة بزته وهيئته ،
بقداسة فكره ونزاهة حكمته . وقال : أتركها كلمات ينمي محررة من
وجهي وجملة جسدي ، كما تلقيتها كلمات طليقة محررة انسربت إلى
فؤادي موجات عذراء ليس لها نسب إلا ضمير الكون !

وكان يشعر بجسمه الناقص شعوراً عميقاً عصافاً عصف بزهره
صباه وضخوة شبابه ، إذ كان مبكر الحساسية بذاته وشذوذها عن
ذوات أترابه ولداته ؛ وضاعف من آلام شعوره بشذوذه الجسمي ما كان
يلقاه من عبث أولئك الرفاق الصغار به ، وسخريتهم من قماءته وخروج
خلقه على غير استواء .

وفي قلوب الصغار جبروت وقساوة لا ترحم الضعف أو القبح في حيوان
ولا إنسان ، إذ لم يعودوا أن يستقبلوا الدنيا بشيء قليل من فلسفات
رحمة النقص والقبح ، لأن القبيح أو الناقص لم يخلق نفسه ، ولم يُخَيَّر
هواه ، ولو خيّر لاختار وكان المذهب الكامل الجميل .

ولما مضت به السن من بيثة الطفولة العابثة الساخرة بألوان من
السخرية الصريحة القاسية ، وأقبلت به على بيثة الشباب الذي عرف
من ضروب الحياة ألواناً من النفاق الاجتماعي ، وعرف من آداب
الاجتماع أنواع المجاملة والمصانعة التي قد تخفى من الرحمة والرئاء أو الهُزء
المقنع والشُخر المبرقع ، أقسى أنواع الإيذاء على النفس الحساسة الشاعرة
بنقصها بين الكاملين ، أيقن أنه لا قبيل له برحمة الاجتماع ، ولا احتمال

منه لضغطه وقسوته ؛ فأخذ يرتد عن موارد الحياة الاجتماعية ، وانحاز إلى نفسه وحدها ، وانطوى عليها في صبر وسكينة وبراءة صدر من ذلك الغلّ والحق الذي يعترى كثيراً من الناقصين ، حين يطاردهم زحام الكاملين القادرين الذين سلّحوا بالغفلة أو بالفجور أو بالافتحام أو بالثروة أو بالجاء ، فينقلب الناقصون إلى أبواق سخط وبُورِ تشاؤم ومصادر إجرام ، ليحصلوا ما فاتهم الحصول عليه من طريق السباق الشريف والمواهب القادرة ، أو ليحطموا المتاع الذي لم ينفالوا منه شيئاً ونال منه غيرهم أى منال !

قلت له مرة : — « يا كمال — وكان هذا اسمه ! وكأنه كان من تمام سخرية الظروف به — إنك لاتصلح لجِدِّ الحياة وصرامتها التي أخذت بها نفسك ، لأن للجِد والصرامة أدوات مادية من السمّت والقامة والقوة تكون إطاراً لازماً لمعانيتها ، وليس لك من ذلك شيء ! وإنما أراك تصلح لعبث الحياة ومُحبُوحاتها وأضحايكها التي تفرّج عنك ضيق ذلك الجِد الذي حبست فيه نفسك ، وتفرج عن الناس حين يرون منك الاعتراف بنقصك ، واستغلالك إياه في العبث بالحياة والناس وبنفسك ، أو يكون هذا على الأقل وسيلتك الإيجابية لإثبات وجودك في هذا المجتمع الذي يصيح فيه كل شخص لإثبات شخصه والإعلان عن ذاته » .

فقال : « تعلمُ عني ، منذ طفولتنا ، أني برغم نقصي تعشت الكمال ومِمتُ به ، وأنا أعلم أني لا أمثله ، وأن الأرواح لى وللناس أن أرسل نفسي على سجيّتها ، فأعترف بعجزها ونقصها ، وأستعخدمها في فن الضحك

والتضحيك على الأقل ، وأعلم أنى حينئذ أكون قريباً إلى قلوب الناس حين أرضى إحساسهم بكمال شخصياتهم بمضاهاتها بنقص شخصيتى . ولكنى من أجل عشقى للكمال وشدة شوقى إليه ، تمسكت بالسبب الوحيد الذى أتيج لى منه ، وهو هذه السكينة وهذه العزلة النفسية ، وهذا الرضا المستسلم بالواقع المقسوم لى من حظ الدنيا ، وهو الفكر المخلص الذى يرصد الحياة والناس بعين غريب عن الحياة والناس . وإنك لاتدرى ما أهتدى إليه من فجوات لايهتدى إليها المغمورون بضجة الحياة القادرون على الخوض فى زحامها . ودأماً يلقط الضعف مافات القوى ، وكثيراً ما يفوت ! فالقوى دائماً مشغول بعنف نفسه وكثرة ما يحصله من مظاهر الحياة عن الاشتغال بما تحت الظاهر . والضعف يسبب للضعيف الذكى يقطعه إلى ما يفعله القوى وما يتركه ، ويجعله يظفر بالحق المغمور فى دنيا القوة . والتجربة دلت على أن الضعفاء أو الذين فيهم « مركب نقص » هم من خدام الحياة ، وموطدى الاجتماع على أساس الحق والواجب ، والرحمة والعدالة .

ثم قال : إن الحياة مدينة لنا نحن الناقصين بأعظم نصيب . . وإن الأقوياء المدللين بقدرتهم على الخوض فى معترك الحياة لا يدركون أن الشعور بالنقص أعظم عامل فى حمل أصحابه على الإنتاج ومتابعة خطوات الكمال الحضارى والخلقى ... لأن الفاقد يدرك لذة الواجد وحوالها هالة من أحلام الحرمان ... ولأن الناقص يكمل الحياة بإرهاق حسه بالفجوات التى فى حياته وحياة الناس ، ويزيد عليها ما لم يستطع أن يحققه فى نفسه .

والاستعراض التاريخي لمن كلوا الحياة من العلماء والحكماء والصالحين
يكفى أن يقيم الدليل على تلك الدعوى . فقد كان دائماً الرواد في الخلق
والسلوك والعمل والإنتاج هم من يشعرون بعدم القدرة على الخوض في
معتك مظاهير الحياة مع الأقوياء المسلحين بأدوات القدرة على الزحام .
ثم قال : من أجل ذلك تحملت العزلة والحرمان من المتاع بالناس ، لأفكر
في وضعي ووضع أمثالي ، ولأذود قسوة الجاهلين عن الضعفاء والشاذين ،
ولأحاول إحداث انقلاب في نظرة أولئك لهؤلاء حتى يروا أنهم شركاؤهم
في خدمة الحياة شركة متساوية ، وأنهم حتى ولو كان شذوذهم وضعفهم
عن غباوة وتخلف ذهن ، هم وحدات من الإنسانية لاغنى عنها ، وأن الغباوة
عبقرية كعبقرية الذكاء !! هي عبقرية الصبر والاحتمال والقيام بتوافه
الأعمال التي لاغنى للحياة عنها ، والسير في الحياة في ذهول ورضا وقدرة
على تقبل العمل الرتيب المكرور في غير سأم ولا ملال !

فلئن كان للذكي فضل السبق إلى كشف واحات جديدة في الحياة ،
وفضل إضافة ما ليس منها أو تنقيح ما يستحق التنقيح فيها ، فللغبى فضل
عظيم في احتمال واقع الحياة بدون تدمير وكُفران ، وعدم تطلع إلى شيء غير
ما كان ، وفي التعبد للحياة والتعلق بها .

وله كذلك فضل الرضا بما يكلفه فيها من عمل ضروري حقير كالكنس
والكسح والخدمة وما إليها . وإني أتخيل الحياة خالية من المحدودين في
آمالهم وعقولهم ، فأراها حينئذ سعيراً محتتماً بين الأذكاء القادرين الذين
يتطلعون جميعاً إلى السيطرة والسيادة ، ولديهم وسائل الخديعة والغلبة ،

وفيه الحسد والقلق والحقد والنفاق والجراة والافتحام . ! فالذكي دائماً منتقض على الحاضر ، يحاول أن يغير ما يحيط به ، ويخلق لنفسه عالماً آخر يكون هو وحده رأسه وغيره الذئباني ... وإن الذئب أذكى من الحمار والشاة ، ولكن شتان بين نفعهما الحياة ، وإضراره بها ! ولذلك أهدرت الحياة ذكاه وطارده ؛ شأنها مع كل ذكاء بارع يعتدى على قوانينها في سبيل غاية شخصية ، لأن الذي يهدم دعامة بيت ليستعملها أرجوحة مزوقة يتمتع بها ، يجب عقابه وإهداره مهما كان عظيم الصناعة بارع الافتنان . . وقد ثبت أن عالم الذكاء الإنساني يشتط كثيراً في الخروج عن نطاق الطبيعة وحدودها ، ويأتى بأشياء غريبة عنها ؛ فواجب الاحتراس منه !

وأغلب ذكاء أذكائنا القادرين وعلومهم كذكاء الثعابين والذئاب ، لارحة معه ، ولا خلق ولا شعور بالمسؤولية الاجتماعية ، ولا بالمعانى السامية التي تحمل على العطف والتواضع ورحمة النقص وتقدير حياة الأقل ذكاء وقدرة . فكلهم يخاتل ولا يخلص للجماعة ، لأنه لم يشعر بالجسم الاجتماعي الواحد ، ولم يؤمن بعقيدة الجنس .

إن الأولى أن نعتقد أن الحياة الاجتماعية مبادلة بين القادرين الأذكاء والعاجزين الأغبياء . فلقد أخذ الآخرون من الأولين عبقرية الفكر وانتفعوا بها ، وأخذ الأولون من الآخرين عبقرية الصبر والاحتمال والعمل وانتفعوا بها كذلك لتحقيق أفكارهم وأحلامهم . وأكثر من ذلك : أخذوا منهم غفلتهم ونقائص خلقهم وصبروها « قفشات »

وتهريجات وأضحائك أوسعت مدى أفراحهم ومباهجهم وسلوهم جميعاً
ساخرين ومسخوراً منهم .

ثم قال : تلك هي التعزية عن حياتي وحياة أمثالي من الذين خرجوا
على غير استواء .. جنت عليهم الجهالة القديمة ، وأوشكت الثقافات
والتأملات الحديثة أن تنصفهم وتضعهم مواضعهم في خدمة الحياة مع
خدمات القادرين الكاملين .. ولولا ضعف قوتي وهواني على الناس ،
وقلة أدواتي المادية للدعاية بين الجماهير لهذه المعاني ، لصدعت بها دعوة
إلى تكريم كل كائن بشري والعناية به ، وتفهم الحكمة فيه مهما بدا به
من نقص ظاهري ؛ فليس المهم أن يكون المرء تاجاً على رأس الإنسانية ،
وإنما المهم أن يكون نافعاً ولو كان نعلماً لها !

استمعت في عجب إلى هذا الحديث الصادق الذي ملك على منافذ
السمع ، ودوى في فؤادي ، ووجه فكري لبعض أسرار الإنسان ،
وجعلني وأنا من « وحدات » الإنسان العادي الذي لا يشعر بنقص أو يخيّل
إليه بذلك — أتضائل أمام هذا الذي ينبؤ عنه نظر أكثر الناس
ازدراء له وتهويناً من شأنه ، وتذكرت به لُبَاب الإنسانية الذي ضيعه
وأخطأه الناس وراحوا يبحثون عن القشور المزوّقة ، ويقيسون المرء بعرضه
وطوله ، ولونه وثيابه ، مُغفلين وزنه من أصغريته : قلبه ولسانه .

ثم قلت له : لقد كنت أرثي بعض الرثاء لك ولأمثالك ممن أخطأهم
حظ كمال الأجسام وأصابوا من كمال الفكر والروح .. ولعلّي الآن أرثي

لنفسى وأمثالى ممن لا يفقهون كثيراً من أسرار الحياة ، ولا يبقى منهم شيء حين يضرَحُ لهم فى القبور التى يستوى لديها جسم العملاق وجسم القمى ، والوجه الجميل المصقول والوجه المقبوح المسوخ ، ولا يستعصى على ظلماتها إلا نور الفكر والروح اللذين ليسا مما يحمل إلى القبور ، وإنما يخلدان فى الأفتدة والصحف والسطور !

فقال : لا ترثِ لأمثالى ولا ترثِ لأمثالك ... فإنما نحن جميعاً نمثل « رواية » الحياة التى لا بد فيها من اختلاف شخصيات التمثيل وأنواع الأدوار ، حتى لا تكون الرواية حديث شخص واحد ، وموقف ممثل واحد يتكرر تكرير الرقم الواحد فى الملايين ...

لا رثاء ... وإنما فهمٌ وتفاهم وتبادل تقدير ، وتساوى نظرات من الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، إن صبح أن فينا أعلى وأدنى .. وذلك كله من حدود عقيدة الجنس .. »

لقد مضى « الجسم » الناقص ، وخلف هذا الكلام الكامل . ولا عجب فالنحل ، وهو ذباب ، يخلف الشهد المصفى ...

وقد أحسن حين لم يترك صورة « للصدقة » الخسيسة ، حتى لا تجنى على « الأولوة » النفيسة ، بل تركها دُرَّةً عذراء ، ليس لها نسبٌ إلا جيدُ الغادة الحسناء المعشوقة : الإنسانية !

الفكر والسلطة

أثر التناقض بين مافى النفس ومافى خارجها — صفات الأب الشعبي —
أرستقراطية الفكر محدودة — السياسة على قوايين الفضيلة — الاتفاق بين
جرائم حب المال وجرائم حب السيطرة — دولة الأحلام فى حكم
المفكرين الصديقين — أيهما أصلح للحياة ولرجال الفكر ؟ — العيش
أولا ثم التفلسف — اقتراحى للإصلاح السريع — الحكم ضربية على
المفكر الصالح

تمنيت ولا أزال أتمنى أن يكون رجال الحكم فى كل أمة هم رجال
القمة فى الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب ؛ فإن هذا هو الوضع
الصحيح للحياة الاجتماعية التى يستقيم فيها كل شئ ، ويؤمن المرء فيها
بنفسه وبأمنته وبالإنسانية جميعاً ؛ إذ لا يجد فى الحياة تناقضاً بين المثل
العليا والقوانين المرسومة فى الكتب ، والواضحة فى نظام الطبيعة ، وبين
الوقائع العملية التى يسير بها الناس . وحيث لاتناقض بين ما فى النفس
وما فى خارج النفس ، فهناك السعادة ، وهناك الإيمان ، وهناك
الأمل والعمل المطرد .

إن الذى يؤهل الأب لأن يكون قيماً فى الأسرة ، هو بذاته الذى
يحتول الحاكم والسلطان أن يكون قيماً فى مجموع الأمر . وأول صفات
الأب ، الفكر والرشد الممتاز ، والعدالة بين أبنائه ، والحب لهم جميعاً .
والحكم كالأبوة : وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والإصلاح

والعدل ، لاسيادة وسلطان ، أو مكاثرة ، أو حب تسخير للناس ، أو طلب
للامتياز عليهم ، أو اتقاء لشرور سلطة أخرى ، إلى آخر أسباب الحكم
التي تواضعت عليها جاهلية الناس .

وكما أن الأب في الغالب هو أكبر أهل البيت عقلا ، وأقدرهم على
الكسب والإنتاج والإصلاح ؛ كذلك يجب أن يكون «الأب الشعبي»
أى الحاكم الراعى .

وقد أغفل الناس هذه البديهية في الحكم ، وسدّوا الأمر إلى غير
أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس ، وموجهو الأمم ، غير رجال
القمة في الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ؛ وإنما هم المحترفون
للسياسة ، والجائعون للشهرة ، والعاشقون للجاء والمناصب والبطش والخيلاء ،
والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة
بالأحياء .. الذين صعدوا إلى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السيامي
لا بالطبع الكريم ، والفكر الناضج ، والمجهود الصالح والخدمة النافعة ..
الذين نقوسهم نفوس عوام ، أو هم جعلوا مهمهم تمليق العوام والنزول
إليهم ، بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التي لا بد منها في
بعض الأحيان ..

و «الأرستقراطية» في الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست يفيضة
كالأرستقراطية في المال ؛ إذ لو اتبع الحكماء أكثر الدهماء ، ماخطوا
بالإنسانية خطواتها في الترقى ، وما وصلوا بها إلى شيء من أسباب
سموها وهداها .

والحترقون للسياسة ، وعشاق المناصب ، يجعلون مهمهم تمليق العوام
ليركبهم إلى المناصب . أما العلماء والمجاهدون في سبيل الفكر ، فهم الذين
يحملون الناس على أكتافهم إلى واحات السلام والصلاح والانتفاع .
وقد يضربهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التي تحمل متاعهم . .
ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالتهم في نقل الناس من سيء إلى
حسن ، ومن حسن إلى أحسن .

إن رجال الفكر المخلصين للحقيقة ، الباحثين دائماً عنها ، الحالمين
بصور الكمال ، هم وحدهم الذين لا تبطرم المناصب والرياسات ، ولا يسمعون
لها إلا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحملون به من وسائل الإصلاح وإسعاد
الناس ، وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة ، لا على الختل
والخداع وتصيّد المال والخيلاء بالجاه .

واعتقادي أن شقاء الإنسان السياسي ناتج من أن أكثر رجال السياسة
الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة ، وصاروا تابعين لرجال
المال الذين يبعدون عنهم كل ذى فكر وأحلام ومثل عليا في الروح .

وعالم المال بؤرة للشهوات العنيفة ، والفرائز الحادة ، والمنافسة
الذميمة ، وشراهة التملك ، وتبرير الوساطة ، والخوف من التغيير والتحول

وقد نشأ من اللقاح بين جرائم هذين الصنفين : محبى تملك الرقاب
ومحبى تملك المال ، ذلك الإنسان السياسي الفظيع الذى يخدع القطيع
ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح
الهوان والظلم ! ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها ، إلا إذا

اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تهيم بالسكال ،
ولهم قدرة عمالية على التنظيم وفن « الإخراج » والتنفيذ ، ولهم مع هاتين
الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتها وسيادتها الذاتية .
فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر الحالم العامل ،
القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين ، وأن تربيته في مدارس
خاصة بتخريج الحكام ، يكون لها برامج تكمل إنضاج الفكر
الحاكم السائس المربي .

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية
وحياة الحقيقة والرضا عن الوطن و « المواطنين » .

وقد كان عهد الإنسان السكامل (محمد) وعهود خلفائه الراشدين
مثلاً عظمى في حكم المفكرين الصديقين القديسين في الزمان القديم .
وكان عهد الرئيس الدكتور (مازاريك) في « تشيكوسلوفاكيا »
مثالاً صالحاً للحكم تحت وصاية أرباب الفكر المحدثين الذين لا يخضعون
« لاروتين » ولا يتحجرون في قوالب الواقع السيء .

فقد فاق « شعبه » تحت حكمه جيرانهم جميعاً ، حتى الألمان ؛
فاقوهم في التنظيم الإداري والاقتصادي والرياضي والعسكري والاجتماعي ؛
إذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير ، بآفاق الحياة ، مدرك اتجاهاتها ،
برى السيرة والسريرة من آفات محترفي السياسة الطالبيين المناصب ،
ولولم يكونوا أهلاً للوصاية للعامة ، الحاذقين « للمناورات » والمقاب
والدسائس مع الجهل بالإصلاح .

إذا فمن الخير للأمم أن يتولى سياستها رجال الفكر وعشاق المثل العليا ، وأن يطبقوا حياتها العملية على أفكارهم النظرية السليمة .

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يعهد إليهم أمر الناس وتدير سياستهم ومعايشهم ؟ إن لذة الفكر المجرد والهدوء الذى يغمر عالمه ، والأنس به ، والأحلام فيه ، والانقطاع إليه ، شئ عظيم قد يفضلته كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ، ومضايقات سياسة الناس وتدير أمورهم ، ولو كان مع هذا جاه ومال وساطان وقوة وشهرة .

بل إن أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن ، يضيقون ذرعاً بحياة الناس العملية ، ويخلقون لهم جواً خاصاً بهم يعيشون فيه وحدهم ، ولا يعدلون به سواء . ولذلك قال الجاحظ مامعناه : « مالذة الأسد باطعم الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه » . وقال أحد الصوفية : « لو علم الملوكة ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها » .

وقد صور « جبران خليل جبران » وجدانى رجل الأدب ورجل النشب ونظرتيهما للحياة حين قال : « تبادل غنى وأديب النشب والأدب ، فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب ، ورأى الغنى ما برأسه نفخة من ضباب ... »

فهل يلد المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة بصور الكمال والجمال والهدوء إلى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب ؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر في نظرياتهم وأحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ، ويؤلفون صورها ، ويدمنون ذلك وينقطعون إليه ، حتى يكثرُوا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا الملوك والساسة العاملين أن يأخذوا منها الجانب الذي يروقهم ويحلو لهم تطبيقه في أساليب حكمهم ؟ أم أن من الخير للحياة أن يتولى رجال الفكر بأنفسهم تنفيذ مافكروا فيه ووقفوا إليه ، ولو قطعهم ذلك عن إنتاج الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر أو فنان ، أو أن يذكره على أنه حاكم سديد مصلح ؟
إن النتاج العلمى والفنى قد يبقى كما هو دائماً فى الكتب والدواوين والآثار ، يراه الناس كما كان فى عهد صاحبه ، ولكن نتاج الحكم والإصلاح مؤقت بحياة صاحبه ، فلا تدركه الأجيال التالية ، إلا بالحكاية عنه والسماع ، وليس فيه خلود ذاتى كالآثر الفكرى والفنى ، وإنما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعاً ليس مطرداً ولا كثير الوجود فى جميع العصور .

فحياة الإصلاح والقوة فى زمن عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز مثلاً ، انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حديث حكاية مضى أشخاصها ، وقليل أن يقتدى بهما حاكم آخر ، ولكن حياة أى كتاب دبنى أو علمى أو فنى تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائماً .

ومع هذا يجدر بنا أن نعلم أن حياة الفكر وحده لا فائدة منها إلا لغترات « الترف العقلى » والترف العقلى كالترف المالى ، ماهو إلا شهوة . . شهوة رفيعة .

نعم إن للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالفكر أو الشاعر الذى يتفرغ لعالمه الخاص ، ويترك العمل على إصلاح ما يحيط به ، ماهو إلا كالمدمن المستهتر على الخمر أو القمار ؛ إذ يغيب عن حياة المجموع ، ولا يجعل بين عقله النظرى والعقل العملى صلة .

والسؤال الذى يجب أن يقدم قبل البحث فى هذا هو : أمن الخير للحياة أن تقدم للشعب الفقير المريض المحتاج دواء وحياة عادلة ، أم أن تقدم له لحناً جميلاً ، أو شعرآ رائعاً ، أو نظرية كمالية ؟

أعتقد بصدق الحكمة اللاتينية القديمة « عش أولاً ثم تفلسف » .
والحياة العملية هى الحكم فى هذا . وقد قلّ الجهد والفكر القديمان الاذان كالأ يدوران على الآلة القاصرة ، وأتى عصر الفكر العملى الذى ينتج محصولاً ينفع الناس فى حل « مشكلات العيش » .

فصاحب الفكر التجريبي الآن صار صاحب الخطوة ، والخالد الأثر عند الناس ، لأنه يشتغل فيما يعود بالنفع عليهم جميعاً .

وقد جانبت الحياة الحالية من لا ينتج شيئاً يصح انتفاع الناس جميعاً به ، واحتضنت كل من يقدم لها المنافع ، وأغدقت عليه الجاه والسمعة .

وينبغي أن ينصرف حديثنا هذا إلى غير العلماء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهولاء لهم أن يتفرغوا ويمشوا في عالمهم وحده ، إلا إذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا اللون من العلم .

أما الذين يفكرون في النظريات الأدبية ، ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته ، فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع .

ويجب أن يعلموا أن المفكر الناجح هو من يلهم فكرة ، ثم يصنع بها أمة أو جماعة .

وينحيل إلى أن كل الجهود الفكرية التي ليست داخلية في منطقة العمل هي هوى ذاتي وترف عقلي .

إننا لانملك ديوان شعر ، أو نسمع لحنا ، أو نقرأ قصصا أو تاريخا ، إلا إذا فرغنا من أعمالنا المعاشية ، وأقبلنا على أوقات الفراغ نستمتع بها ، ولن يقبل على هذه الألوان في جميع الأوقات إلا هاور مستغرق ، أو محترف مرتزق .

وقد يكون من العجيب عند بعض الناس أن يعلموا أنني أعتقد أنه يجب للإصلاح السريع في أي بلد أن يضحى أهلها بعيشة الترف العقلي مدة موقوتة ، تغلق فيها جميع المعاهد العالية سنة أو سنتين ، ويحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشتراك في حركات الإصلاح الأولى ، وتترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ، وتفرغ

لتدبير أمور الجهرة الجاهلة من الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التي سبقتها في التعليم والإصلاح .

قد يبدو هذا غريباً عجيباً . . . ولكن هو ما اعتقده ، لأنى أرى وجود المريض جداً بجانب الصحيح جداً ، يفقد بهجة الحياة لدى الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم . وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل في علمه وفكره بينما يترك غيره جهلاء لا يفهمونه ولا يقدرونه .

ووجود عدد من جهابذة العلماء بجانب ملايين الجهلة التمساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة في المدن المعدودة ، بجانب آلاف القرى التي تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات .

فعلى هذا ينبغى أن يعلم الأدباء والمفكرون أن عملاً صالحاً يقدمونه في حكم صالح يسمعون إليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة ، أو مقالة بارعة ، أو فكرة عبقرية غير عملية ؛ إذ أن هذا العمل الصالح الثمر أهناً لدى آلاف من القلوب المحرومة ، وأسرع إلى إسماعها وأدنى إلى أسلوب الله في نفع عباده ؛ فهو يعمل لهم كثيراً في تدبير الطبيعة ولا يتكلم . . .

وإن قانوناً عادلاً يضعه لأمته حاكم رشيد ، لأنفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكاراً عالمية للترف العقلى ؛ لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعاً . أما كتب الترف ، فتضمن الحياة المترفة لبعض الناس .

ولو ترك محمد (عليه الصلاة والسلام) القرآن من غير أن يترك أمة
قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم ، لظل القرآن ككتاب
من الكتب لمؤلف من المؤلفين ... ولكنه عمل وجاهد كما أمره منزل
القرآن ، حتى صنع أمة تجسدت في أشخاصها معاني هذا الكتاب ،
فأخذ يسعى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته .

وأظن أن سعادة الرجل الذي ينجح في تطبيق مشروع يسعد الناس ،
تربو كثيراً على سعادته بإخراج أثر فكري أو فني حبيس في الورق .
فليحمل الأدباء والمفكرون نصيباً من الخدمة العملية ، وليروضوا
أنفسهم على إسعاد القلوب بالأعمال ، كما يسعدون الأذان بالأقوال ،
وليجهدوا أن يحققوا معاني مقالاتهم في أشخاص وأعمال مجسمة ، وليسعوا
دائماً إلى أن يكون الحكماء والزعماء من رجال القمة في الفكر والخلق ،
حتى نلأئم بين مافي النفس ومافي خارج النفس ، فيكون الحكم ضريبة
على من يحسنه من هؤلاء ، ولا يسند إلى غيرهم مهما كانت الظروف .

ثورة الفكر على الواقع !

أقدام تتحكم في الرؤوس ! — هل الجامعات مسارح للتمثيل؟ — الجهل يستغل العلم — لا بد للعلم من جذوة الروح — الحياة تخطو دائماً إلى الأمام — قصة الحياة هي قصة الفكر الثائر — لا استسلام للواقع الناقص — في نفوسنا أطلال ومستنقعات ! — وجوب العزل الصحي في أمراض الفكر — إصلاح الدعائم أولاً — دهن الخطب باللون الأخضر !

أما من ثورة عالمية للعلماء والمفكرين يقومون بها في إجماع ضد دجاجة السياسة ، وسמاسة المال ، وحاملي الجاهلية ، والمرتدين عن دين الحياة بالعلم والفضيلة ؟ !

أما يؤلمهم ويحز في نفوسهم أن تخنق آراؤهم ومثلهم العليا ، وتداس أفكارهم التي لها يعيشون وبها يأنسون ؟
أما يغيظهم أن يظلوا دائماً مجرورين في عجلات أوائلك الدجالين والجهال والسامسة ، يسحبونهم على وجوههم في تلك الطريق الممهودة من عهد الجاهلية للآن ؟

الجامعات ، لو صحت الأوضاع ، هي رؤوس الأمم التي تفكر بها ، وتتصرف في شئون الحياة صادرة عن وحيها ، فلماذا نرى الشوارع تتحكم في الجامعات ، ولا نرى الجامعات تتحكم في الشوارع ؟ لماذا نرى الأقدام تتحكم في الرؤوس ؟ !

هل يقنع الجامعيون من الحق والعلم والفن أن يروا كلا منها في إطار

من الصحف والكتب الجميلة والصور المعلقة على جدران الجامعات والمتاحف والمعارض ، وأن يتحدثوا عنها في حجرات الدراسة ، ويلبسوا لها « الروب » الجامعى ، ويهزّوا بها ذقونهم ، ويقفوا بسمتٍ ووقار ، وينطقوا بمضغ ولباقة ؟ !

مافائدة هذا التمثيل الدائم على مسارح العلم أيها الحكماء ، مادام هناك مناقضات فاحشة بين مافى البيوت والشوارع ومافى الجامعات ، ومادمتم أنتم تلبسون للحياة العملية ثياباً أخرى ، وتضطرون لأن تواجهوها بوجوه أخرى ؟ !

مافائدة الجرى وراء البدوات والفروض الرياضية للحياة ، والتنقيب عن أحافير الماضى اللغوية والأثرية ، والتخييل بأحلام المستقبل المثالية ، مادامت تيارات الحاضر تغلت من أيديكم وتستعصى على توجيهكم ؟

لقد نكل الحاضر بمخلفات الماضى ومقدساته ، وبآمال المستقبل وتخيلاتنه تنكيلاً فظيماً ، حين أطلق هذه الحرب الحطمة الطاحنة بصواعقها ونواصفها ، فإذا الأبراج العاجية والصوامع الجامعية تذروها الرياح دخاناً وهباء منشوراً مع مافيهما من كنوز الماضى ورصيد المستقبل . وكان ذلك كذلك لأن الجامعيين والمفكرين لم يؤمنوا طريق العلم والحضارة ، ولم يكتبوا الوحوش والغيلان الممثلة فى الدجالين والسماسة والجائعين للشهرة ، والجهال الذين يفتكون بالمدنية ، يأخذون منتجات العلم وينتفعون بها فى تسخير الحياة من غير أن يأخذوا الأسس النفسية الفاضلة التى فى نفوس العلماء .

وكان ذلك لأن خدام العلم لم يسلكوا في تعبيد طريقه وتأمينها مسلك خدام الدين الأولين ؛ فلم يقيموه على أساس التعصب له والثورة به والفناء في سبيله ، ولم يقيموه في نفوس الطلبة على أساس الروح ذات الجذوة الحمراء التي تنضج كل ماتقتنيه وتحوله إلى كيائها ؛ وإنما أقاموه على أساس الفكر ذى الجذوة البيضاء الهادئة التي تقتنى المعلومات كما تقتنى اليد الأشياء ، وتضعها على الرفوف وفي الخزائن : فهي دائماً منفصلة لاتندمج في كيان المقتنى .

فلا بد إذاً من ثورة إجماعية للعلم تقوم على أساس التعصب له وللفضيلة ؛ فان العلم من دين الله الذى يدين به البشرية وتتوحد به غاياتها ومقاصدها ، وتخضع أعناقها لمعجزاته الدائمة المتجددة .

ولابد من السرعة فى إقامة أسس الحياة على الثابت من قوانينه ، حتى لا يكثر العدد من ضحايا عهد الانتقال كما هو الحال الآن ، كما لابد من الثقة بالفكر البشرى الهادى . المستنير ثقة كاملة .

فقد قاد الفكر القطيع البشرى ، ونقله من حياة البساطة والعجز والجهل إلى هذه الحياة المعقدة القادرة العالمة ، ولا يزال يقوده وينقله مرحلة مرحلة فى طريقه إلى مستقبل مجهول .

وكما استقرت الأجسام البشرية فى مرحلة ، وعاشت فيها حياة آلية رتيبة ، واطمأنت جنوبها إليها ، وقالت هنا ينتهى الطريق ويقوم الهدف ، أربها تآثر من عالم الفكر ، ودفعها إلى أفق جديد تقاوم هى الاندفاع إليه فى أول الأمر ، ثم لاتلبث أن تسير مع عجلة الفلك بدافع من قوة

التطور البديعة ، وتأخذ في دور الاستقرار فيما انتقلت إليه ، إلى أن يومض بارق ويشور نائر على الواقع ، ويلوح لها بمجديد من عالم المثال ، فتنبه بعد جهد على رغم ما تلاقيه من عنت الانتقال وترك المؤلف .

فقصة الحياة الإنسانية هي قصة الفكر وثوراته المتتابعة على الواقع . ولولاه لظل القطيع البشري كأي قطيع حيواني مما يدرج على الأرض : لا ارتقاء له بذاته ، ولا قدرة له على تغيير واقعياته .

وما كان يراه الواقعيون القدماء مستحيلاً أو بعيداً عن قدرة الإنسان ، حقيقة الفكر المتطلع الثائر ، وجعله من أيدينا داني القطوف على طَرف الثَمَام . وبعبارة أخرى : كثير من حقائق اليوم وواقعياته التي تنقلب فيها الحواس ، وتعمل فيها الأيدي ، كانت أحلاماً وبروقاً تلوح في آفاق الفكر الموهوب المدرك لما وراء صور الواقع من صور أكمل وأبعد .

والبطء الشديد في الانتقال ، بل التخلف والوقوف الطويل في مرحلة من مراحلها ، بل الارتداد الذي يحدث في كثير من الأحيان ، إنما هيئته العناد والجود والجوح من القطيع ، والتواني والإهمال من المدركين للكمال ، القاعدين عن نداء الفكر وإهابته بهم أن يتجردوا لما استجفّظوا عليه وبأخذوا الإنسانية إليه ، الطامسين لتلك الصور الجميلة التي يرسمها في صفحات ضمائرهم وتخيلاتهم القلم الأعلى الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويدرجه في قراءة الحقائق وإدراك الكمالات درساً درساً .

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون أحسن مما هي عليه الآن وأكمل ؛ لأن ندرج هذه الحياة من صور الاجتماع الأولى إلى

هذه الصور المعقدة العظيمة في الاجتماع الحالى ، وطواعية الفرد تحت أحكام القوانين والنظم والتقاليد التى تحيط بكل تصرف من تصرفاته ، أكبر دليل على إمكان الوصول إلى ما يصبو إليه ذوو الأفكار السامية والقلوب الكبيرة التى نضجت فيها معانى الإنسانية وأسرارها .

وما يضر الإنسانية شيء كما يضرها الاستسلام للواقع الخاطيء ، الناقص القائم على أسس فاسدة .

وقد كان يصح إلى حد ما ، اغتفار التوانى وترك المجتمع يقوم على أسس فاسدة وأشكال ناقصة ، أيام كانت الثقافات محدودة والمعارف ضيقة والتعليم لونا من ألوان الترف فى الحياة ، وأيام كانت حدود الأشياء وقيمتها مختلطة مشوشة ، وأيام كانت آثار هذا التوانى والإهمال ضيقة الأضرار هيئة الجرائر والآثام ؛ وأيام كانت المعارف متقاربة يدور الناس بها دورانا نظريا فى حيز ضيق من حياة المجتمعات ، وأيام كان انتقال الحياة فى طريق الآليات والصناعات انتقالات بطيئة لاتنشأ عنه مسافات بعيدة بين القاعد والمآشى ..

أما الآن ، وقد صارت قيمة التعليم والتهذيب للفرد كقيمة الخبز ، وحدود الأشياء واضحة مميزة ، وصارت آثار التوانى فى إقامة المجتمع على أسس العلوم والأخلاق والفنون آثارا عميقة غليظة الجرائم والآثام ، وصارت آفاق العلوم والمعارف متباعدة متعددة فى نطاق واسعة جداً لا اختلاط بينها ولا تشويش ، وصار كل يوم يأتى بأشياء جديدة عجيبة من وسائل العلم والسيطرة والقوة ... فلا يجوز مطلقاً أن يتوانى مفكر

أى مجتمع ويتركوه يقوم على الأسس الفاسدة ، ويسير على مجرى التاريخ الذى يجرف الطفولة النَّصْرَة مع الجيف القذرة . . . !

إن الناس لم يرضوا أن يسيروا بأقدامهم على الطرق والدروب القديمة فى المدن والقرى ، بل مهدوها تمهيداً فيه فن وتنظيم على أحدث الأساليب ، فكيف يرضون أن يظلوا فى حياتهم الفكرية سائرين برءوسهم على مسالك وعرة قذرة ، فيها أنقاض وخربات من عالم بائد ؟ !

أجل ، فى حياتنا الفكرية أنقاض وخربات يسكنها ظلام وحشرات وخفافيش وزواحف سامة تفرعنا وتفسد إحساسنا بجمال الحياة الحديثة ، فيجب هدمها أو تجديد لها ، إذا كان فيها ما يجب أن نبقى عليه ، وإلا فسنظل فرائس للفزع والاشمئزاز . !

وفى حياتنا النفسية مستنقعات آسنة تنزُّ وترشح إلى ما يجاورها من الرياض العلمية والفنية الحديثة ، وتفرخ فيها كثير من جراثيم الآفات ؛ فيجب ردمها وتحويلها للإزهار والإثمار الصالح ، وإلا فسنظل مرضى مصروعين متناقضين ..

وإن الناس ماضوا أن يتركوا موارد الطبيعة كما هى بدون أن يدخلوا عليها أساليب التنظيم والاستغلال والانتفاع ؛ فلماذا رضوا أن يتركوا موارد النفس ومصادر الأخلاق ، كما هى بدون تنظيم وتعديل كما يقضى الإدراك الصحيح ، والمنفعة العاجلة والآجلة ؟

لقد أقاموا الاستحكامات والمصافى والخزانات على المنابع والأنهار ، ليتقوا غيظها وقبيضها وأقذارها ، مما ذاقوا منه الدمار والأمراض فى العهود

القديمة ، ولكنهم لم يقتنعوا بعدُ بأن موارد النفس ومصادر الأخلاق وما فيها من غيظ وغيظ وقدر وضعف وطغيان ، تحتاج إلى إقامة أمثال تلك الاستحكامات ووسائل التصفية من الأكداد .

فهل يظنون مصرين على العمى عما وراء الأجسام ، سجناء الشواخص والكثافات وحدها ؟ !

لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن حياة قيمة جداً ، تحمل على الثقة بالإنسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنوع التي في يد الله ... فيقبح جداً بالإنسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز الضيقة ، والحقائق القديمة التي تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة ، وتخريبها هذا التخريب الذي تمثل اليوم مأساته الدامية الشنيعة على مسرح الأرض كلها ...

إن الفكر البشري قوة مبصرة عظيمة تتحكم في كثير من القوى المادية العمياء ؛ فالواجب الأول أن يعنى به قبل غيره ، وأن يحافظ المجتمع على قوانين نموه وأطراده والانتفاع به ، وصيانته من العوادي التي تعدو عليه فتفسد حياته ثم تفسد الحياة به .

ومن العجيب أن تفزع الدولة حين ترى جسماً مريضاً مرضاً وبائياً فتضرب بينه وبين الناس نطاقاً من العزل الصحي و « والتطعيم » والوقاية ، ثم لا تبالى ولا تفزع حين ترى الأمراض الفكرية الوبائية تجتاح صحة القلوب والأفكار ، وهي أوعية أمرار الحياة الإنسانية وعوامل توجيهها !

إن العناية بالمظاهر الجميلة البراقة لاتغنى عن العناية بالخفايا والأسرار
فى أى شىء ، وخصوصاً فى الحياة الإنسانية التى يجب أن يسبق الفكر
ففى كل عمل وكل مظهر . وإن المجتمع ليهذر قيمة الفرد الاجتماعية مهما
كان جميلاً قوى الجسم حين يرى به جنّة أو مساً من الخبال ، فيسجنه
فى مستشفيات الخبولين أو سجون المجرمين ، ذلك لأن الفكر هو الشىء
الأول الأهم فى الإنسان .

لولا العقول لكان أدنى ضئيفم أدنى إلى شرف من الإنسان
والإخلاص للفكر والعلم يحمل على ابتداء حياة الأمم بهما وإنشاء
أوضاعها من جديد ، ومقاطعة الاشتغال بأى فرع من فروعها إلا بعد
إصلاح الدعامات والأصول التى يقوم عليها بناؤها .

و « الترف العقلى » الذى تراه الأمم المتخلفة فى الأمم الراقية التى سبقتها
بأشواط وأشواط ، فتفتن به ويتوجه إليه أفراد منها منسلخون عن حياة
الشقاء التى تحياها أممهم ، ينبغى ألا يشغلها ويصرفها عن مجابهة العقدة
الأولى ، وهى إصلاح أسس حياتها مهما اقيمت من العنت والمشقة والاضطهاد
من الراضين بالحياة كما هى ، والذين لهم مصالح فى الحرص على بقاء
الحياة كما هى ...

فليكن اجتهادنا فى صنع القوالب الصالحة وتخطيط الاتجاهات ،
ولو كانت تلك العملية مسئمة ليس فيها زواق ورُواء .

وليكن لغيرنا ممن يأتى بعدنا لذة الاشتغال بألوان الترف العقلى ،

وطلب الشهرة بأعمال التلوين والزواق ، مما يَفْتِنُ العوامَ وأشباههم ، ويذيع
الشهرة بينهم.

فاذا أصررنا على تزويق الأجسام الآدمية الحديثة بطلاء رقيق من
المدنية ، تاركين النفسية القديمة كما هي ، فلن يكون ذلك أقل خداعا
من دهن الأحطاب والجذوع النخرة باللون الأخضر ... ! إيهاماً للناس
بأنها نبات صالح في أرض طيبة ...

المسألة الأفعوانية !

أمّ العدد والحساب — الرباطات الثلاثة — منطقة الزعازع والعواصف —
الحدود في الاقتناء والتوريث — الأسرة تنسع — خطر العقليات المادية

هلمى يا ذات الخطر والجلالة !

إلى قلمي .. كما يقبل الثعبان العظيم زاحف الرأس إلى ساحر ليحطم
نابه ويظهر لعابه !

هلمى يا بوق الشيطان ، ينفخ فيه على القلوب فتكون كالمخالي والخزائن
والجيوب ، تختزن الأجسام ذات الحجم والكثافة والثقيل ، وتمتلئ
بالخطام وهي مهبط الأسرار ومجلى الأنوار .. !

هلمى يا دين البشرية الوثنية ، وقبلة قلبها ، وكعبة طوافها وسعيها . !
يا أم الدينار ! ذى الغرّة والطرّة ، والبريق والرّنين ، والثقيل الخفيف
والروح اللطيف ، الذى يسرى به الشيطان إلى الأقداس المغلقة فى الضمائر
فيفتح به مكان الطهر ، ويحيله إلى نجسٍ وعُهر . !

يا روح « العجل الذهبى » الذى يتشكل ويتجسد ويقمص جسم
كل شيء ، فيترامى به ويتخايل فى صور شتى تذهل العيون عن الحق
والشرف والإيمان !

إلى قلمي أيتها الأفعى ذات الرؤوس والقرون والألسنة والذبول التى
لا عدد لها لأنّها أم العدد والحساب !

أيتهما « المسألة الاقتصادية » ! ياوكر الجرائم الفردية والاجتماعية
والسياسية . . . !

إننا نشعر برباطات ثلاثة تضغط على قلوبنا وتشد عليها وتربطنا
بثلاث غايات عظمى هي : « الحياة » و « ما وراء الحياة » و « المجتمع » .
فالذى يربطنا بالحياة هو « الحب » ونتيجته الاندماج في « الزواج »
والامتداد في « النسل » تعزية وتعويضاً عن « خلود الذات » وهو الأمل
الأكبر الذى لم يتحقق .

والذى يربطنا بما وراء الحياة هو « الدين » ، ونتيجته التعرف إلى الله
بارى الوجود ومفيض الحياة .

والذى يربطنا بالمجتمع هو « المال » إرضاء لجملة غرائز حادة وشهوات
عنيفة تظهر في الأنانية والأثرة والخيلاء وحب التسلط والمباهاة والافتراس
وحب الاقتناء والحياسة والتملك ، وحب « إعلاء الذات » مقرونة بغيرها
في مجموع . . .

والرباطان الأول والثانى لكل منهما منطقة تتصل بالجانب الأعلى
من الإنسان ، وتشير في قلبه أشواقاً فيها سمو ، وفيها رفق ووداعة وحنان
ونسيان « للذاتية » والأنانية ؛ فذلك تحميا بهما النفس سعيدة مُسعدة ،
منتفعة نافعة .

أما الرباط الثالث ، فلا يتصل إلا بمنطقة العواصف والزجاج من النفس ؛
إذ هي مجال الاحتكاك والمنافسة والسباق والصراع بين ذوات مختلفة
متفاوتة القوى والمواهب . . وقد سبق الشر من هذه المنطقة إلى الحياة

وأفسدها ، ولذلك كانت محل العناية والتنظيم والتهذيب ، ومحوراً عظيماً لشرائع الأرض والسماء ، ومثار الحروب قديمها والحديث .
وبدون تسوية « المسألة الاقتصادية » ، في العالم ، وحل « مشكلة العيش » وتوزيع الموارد الاقتصادية في الأمة الواحدة وفي الأمم المتعددة في عدالة وإنصاف ، وتجرد عن الأنانية الشخصية والقومية ، لا يمكن الاطمئنان إلى مستقبل سعيد للإنسانية .

وربما كانت كبرى جرائم الحياة هي جرائم الغنى ومفاسد البطر والترف والطفیان ، نتيجة لغرور المال . نعم إن للفقر جرائم كبرى أيضاً ، ولكنها جرائم ومفاسد هي في الواقع عقوبة و « رد فعل » على جرائم الغنى وعدم التوازن الاقتصادي في المجموع .

ولذلك كان من أول الواجب على رجال الروح والفكر ، أن يجعلوا المسألة الاقتصادية وتنظيمها واعتبار أسسها العادلة ، محل عنايتهم الفائقة ، كما يعمنون بالمسائل النظرية في اللاهوت والفلسفات والآداب ، وأن تكون لهم رقابة ساهرة وجهاد دائم في التدبير والتنظيم الاقتصادي ، حتى يضمنوا لكل فرد أن ينال حق العيشة بالجسد كما ينال حق الحياة بالروح ، وحتى يكفلوا لمثلهم العليا أن تحيا وتتجسد في أشخاص ، بدل أن تظل طول الحياة ميتة مدفونة في بطون الكتب ، أو مُرددة في المعاهد والمعابد وحدها . ثم يكون واجبهم الأكبر أن يمنعوا التكالب عليها ، والتطافى في رحابها ، وأن يحملوا المجتمع على السعى إليها في هودة ورفق وشرف .

وإن ماتطلبه غرائز التملك وشهوة المال لا يمكن أن يقف عند حد ينتهي إليه . وعلى هذا فواجب أن يدرك الإنسان ذلك ، ويحد من آماله

ومطامعه بما يوافق مصالحه ومصالح الآخرين ؛ وإلا انقلب كذلك الثعلب الذى ظل يأكل من فريسة حتى امتلأ وعجز عن النهوض والجري ، فاقتنصه الصائد ..

ومع عدم شعور الجد والأب بحب الحفدة والأبناء له ، بل مع عدم وجودهم فى حياته ، نجد الأجداد والآباء يغالون فى الاقتناء والإثراء بدون حد المطامع ، وبدون التفكير فى أن مازاد على الكماليات فى متوسط عمر الإنسان ، إنما هو حمل باهظ للنفس يرهقها ويكادها .

فينبغي أن يحد الثرى ثروته بحيث تكفى ابنه المباشر وحده . أما الحفدة والأسباط فيجب إهمال التفكير فى توريثهم ، وعدم تضحية المجتمع والمروءة مع الناس من أجلهم وهم فى عالم الغيب .

ولماذا يلزم الإنسان أن يعول أهله الأذنين وذريته الضعاف ، ولا يلزم بإعالة إخوته فى الوطن من العجزة المحتاجين ، وهم أسرته أيضا بالمعنى الواسع ؟ لا بد من إقامة مسائل الاقتصاد والإحسان على هذا المعنى العميق الكريم ، لاعلى التبرع والتفضل والاختيار .

لقد كثرت العقليات المادية المغالية التى تحاول أن تفسر الحياة دائماً تفسيراً مادياً آلياً .. مغفلة ذلك المعنى الإنسانى العظيم الذى يتصل بالحق ومعانى المروءة والإيثار والتبذل ، ولا يكون المرء إنساناً إلا بسيطرة ذلك المعنى على فكره وروحه .

هذه العقلية أعظم نماذجها هم اليهود . وقد انتقلت فلسفتهم المادية فى غلوها إلى أغلب الأمم ؛ فهم ليسوا الآن ممثلها وحدهم .

نعم إن المادة آثاراً كبرى فى الحياة الإنسانية ، ولكنها يجب ألا تكون المحور الوحيد لسياستها العليا كما هى الحال الآن .

جرائم التفاوت الفاحش

ماذا بين الإنجليزى و « المنبوذ » الهندى ! — بُشور قبيحة على وجه
الإنسانية — نقص القادرين على التماس — استواء سطوح السائل فى
الأوانى المتصلة — الحد الأدنى فى المسألتين الاقتصادية والأدبية — التعاون
أخص صفات الإنسانية العليا — ينبغي تنبيه كل ذى حق إلى حقه —
جرائم التهاون فى الكرامات — لولا من يقبل الظلم لم يوجد الظالم —
غياوة البقر والغنم — الفوانى وعشاقهن

ماذا بين فكر الإنجليزى وفكر المنبوذ الهندى من آفاق صناعية ؟
إنه ما بين العطر والبول ، أو الزهر والبعر !
إنه ما بين قصر « نائب الملك » وجُحر « المنبوذ » فى الهند . .
إنه ما بين الإمبراطورية البريطانية فى ذهن الإنجليزى ، وعالم
الرَّحَض والأنجاس فى ذهن المنبوذ !

يفتح الطفل الإنجليزى عينيه على الحياة فيجدها مُلكا كبيرا ومجداً
عريضاً وتاريخاً يحدّثه عن عظّمته ، وحاضراً يوحى إليه بعزّته ومجده ،
ويجد دنيا ذات أفكار وآراء وفنون وألوان علم وأدب وعمران وسياسة
وأساطيل جوية وبحرية وجيوش برية ، ويجد وجوها مشرقة وأموالا
موفورة ومساكن مرفقة ، إلى آخر عالم الإمبراطورية العظيمة التى لا تغيب
عنها الشمس ، ولا يغيب رجالها المنتشرون عن تلقى ماء كل سحابة ممطرة ،
ونمرة كل شجرة مشمرة ، وكل فكرة أو خطرة عابرة !

ويفتح الطفل الهندى المنبوذ عينيه على عالم عجيب من القبح والظلمة

والقذر والرخص والمطاردة واللعنة من المجتمع . . حتى لا يستطيع أن
يقرب من « البقر المقدس » !

وكيف يستطيع القرب من هذا الحيوان « المعبود » ذى الروث
الشافى والبول المعافى والمقام الآلهى ! وهو النجس الشخص والظل ،
الملعون الروح والفكر ، المسكون بأرواح الإثم والشر ؟ !
فمن ذا وضع هذه الفروق الهائلة بين إنسانين كلاهما له رأس وعينان ،
ولسان وشفتان ، وقلب وفكر آدميان ؟

من ذا وضع هذا كله غير الشيطان وجنوده ، وهم الأوصياء
الجاهلون الظالمون !

وكيف اللقاء بين البشرية فى سلام على قدم المساواة مادامت هذه
السدود فى وجوهها ، وهذه المخاضات من الأوحال فى أرجلها ؟
إننا لنأسى ونأسف حتى على الفروق الصناعية المغتفرة بين فكر
الإنسان الذى لا يعلم من حقائق الكون إلا أن الشمس إذا طلعت يضىء
الكون وترى العين الأشياء ، وإلا أن الإنسان إذا تكلم جهراً سمعه جاره ،
وبين فكر الإنسان العالم بآخر النظريات الضوئية والصوتية . . فكيف
لا نأسى ونأسف ، بل ونثور على تلك الفروق المجحفة التى تجعل البقر
معبوداً والإنسان منبوذاً ؟ !

إن على رواد الحضارة المنشودة أن يبحثوا عن أوكار هذه الجرائم
المنكرة فى بقاع الأرض ويدسروها تدميراً ، حتى لا تنقل منها عدوى الطغيان
والظالم ، وحتى يبرأ وجه الإنسانية الجديدة من بشورها ومقايحها المزرية .

ولست أدري ، ما الذى حال ويحول بين الأوروبيين الراقين وبين
أن يأخذوا بأيدي الأمم والجماعات المتخلفة ؟ وما الذى يجعلهم يهملون
بل يقاومون حركة إنهاض هذه الأمم المحكومة بهم ، ويحقدون عليهم
وعلى غيرهم ، ويبغونهم سوائهم وحيوانات مُهدرة الحقوق الإنسانية ؟

أهو شعور الوصى الظالم الطامع على اليتيم القاصر ؟ شعور الذى يتمنى
امتداد طفولة اليتيم وقصور السفينة لتدوم وصايته التى يملأ منها أوعيته
الشرهة ، وبطنه النهم ؟ وما يدري هؤلاء أنهم يملأون أوعيتهم وبطونهم
من النار والسعير الذى يدمر حياتهم قبل حياة الحكوميين بهم . ورب
البشرية بالمرصاد !

إنهم لو فعلوا بمقتضى الروح المسيحى الحقيقى الذى ينتسبون إليه ،
وبمقتضى موجبات الوصاية والرحمة ، لسعدوا وأسعدوا ..

لو فعلوا لأنقذوا رعاياهم القاصرين وأنقذوا أنفسهم من الأمراض
والأحقاد التى تنتقل إليهم من هؤلاء لاحالة .

نظفوا الأرض من جهالاتها وآلامها أيها الأوصياء العلماء القادرون ..
فإن أقبح العيب هو نقص القادرين على التمام . !

فما لم ترفع الأمم الوصية حياة الأمم المنحطة إلى مستواها الراقى ، فلن
نظفر بالاستقرار والسلام فى هذه الحياة القصيرة .

ومن جانب آخر ، ما لم ينهض المستضعفون بأنفسهم ويكافحوا ليرفعوها
إلى مستوى الأقوياء الصالحين ، فلن يظفروا بطائل .. لأن ما يدور
بأخلاقهم وقلوبهم من الألم وإحساس الشقاء لا تتفطن إليه قلوب الأمم
اللاهية القوية البانية قوتها على ضعفهم ، وسعادتها على شقايتهم ؛ إذ أن

ما يدور بخلد البقر والغنم لا يهم الفلاح والجزار اللذين يستخدماها ويذبحانها .
وإني لأخشى أن يكون استمرار هذا التفاوت الفاحش بين الضعفاء
والأقوياء ، إلى الحد الكبير الظاهر في حياة هؤلاء وهؤلاء ، سوف يحمل
العالم من النكبات ما يجعله دائماً في شقاء وتعاسة .

ولن يحس الأقوياء ويفزعوا من هذه الحالة إلا إذا علّت إنسانيتهم
وسمت ، وصاروا أوصياء ذوى غيرة على أبناء الحياة جميعاً ، وحكموا القاصرين
ليخدموهم لا يستغلوهم — كما يعبر الرئيس الأمريكى الجديد « ترومان » —
وسمحوا لحياتهم الراقية أن تتسرب إلى غيرهم فترفع مستواهم حتى
يستوى سطحها في أوعيتهم وأوعية غيرهم ، كاستواء سطوح السوائل في
الأواني المتصلة .

وإن أول ماتجب العناية به الآن فى « المسألة الأدبية والمسألة
الاقتصادية » هو أن يضمن الأوصياء للطبقات الدنيا فى العالم جميعه
مستوى من العلم والصحة والنفقة يكفل لهم حياة الكفاية فى المسكن والمطعم
والمدرسة والملبس والمناع اللازم لتخفيف السأم وإدخال السرور .. ثم
يكون مؤقتاً لأصحاب الأموال بعد ذلك أن ينمو أموالهم كما يشاءون ،
ماداموا يؤدون واجبات الدولة والمجتمع والإنسانية .

والأمم التى تأبى حياة التعاون تعبير أمما بدائية لم تبرا من التوحش
والنفرد القديم ، ولو كانت على قمة الأمم مكانة فى القرن العشرين ..
إذ أنه إذا فكر الإنسان أو الشعب أو المجموع من الشعوب فى غايات
نفسه وحدها وأنانيته الضيقة ، لم تحدث الغايات الاجتماعية والحركات

الدولية العظيمة التي تفسح للإنسانية مجالات حيوية جديدة المتاع والعلم .
فعلى الذين يريدون تحقيق أهداف الحياة العظمى أن يبعثوا في قلوب
الأفراد والشعوب الإيمان بوجوب خدمة غايات الحياة وأغراضها المشتركة ،
وأن يجعلهم حراسا لا يبالون الفناء في خدمة هذه الغاية العظمى ، حتى
لا يأخذوا الحياة بشكوك تزلزل إيمانهم ، بل يأخذوها بعقيدة لا تبالي الفناء
في سبيل الحق ، بل قد تطلب الفناء لتخرج من الحياة بشرف خدمتها
وتدعيم قواعد الحق فيها .

فالإيمان بشيء عظيم ، والتعاون على تحقيقه ، والموت في سبيله ، هو
أخص صفات الإنسانية العليا والأمم العظمى .

* * *

وينبغي أن تقول الأمة أو الأمم لمن يجهل حقوقه فلا يطالب بها ،
ويجهل فرص حياته العامة فلا يعرف التمتع بشئونها : هذه حقوقك
وفرصك وامتيازاتك . تتمتع بها ، واسلك ، إن شئت ، في متاعك بها الطريق
الفلانية .. لأن يستغل قصور القاصر عن إدراك حقه فيفصص منه ويسرق
ويهمل إرشاده .

والحال في أكثر بقاع العالم هكذا ، بل أكثر ظلما ؛ إذ يضطهد
من يطالب بحقه .

* * *

ومن أعظم أسباب الظلم والطغيان ، التهاون في الكرامات المقدسة
والحقوق العامة بحجة المجاملة والتسامح .

وينبغي لتلافي آثار هذا ، ألا تنازل الجماعة عن حقها في القصاص ،
حتى لو تنازل عنه المجنى عليه ؛ لأن بعض النفوس يطغيها ويغريها بالشر
ذلك التهاون ؛ ولأن بعضها ناقص الإدراك وسيء التقدير لما عند المتهاونين
والمجاهدين من تسامح وسعة حلم ، فيفهم ذلك على أنه ضعف وعجز .
فعلى كل شخص ألا يتهاون في الحق والكرامة العامة ، وأن يدافع
عنهما حتى يشترك في مقاومة ما يولد عوامل الطغيان .

* * *

ولو أن الأبقار والأغنام وما إليها من الأنعام عرفت القوة العظيمة
التي في قرونها واستعملتها ، إذا لساقت أمامها الذئاب والجزارين . .
ولكنها فقدت موضع الشجاعة والتدبير في نفسها فاستسلمت وخافت .
وكذلك من لا يفكر في حقه وقوته السكينة التي يستطيع أن يقاوم
بها الطغاة ويحملهم على احترام حقه والحق العام . . يكون قد فقد موضع
الشجاعة ، وصارت له طبيعة البقر والغنم ، تساق المذابح من قرونها وأعناقها
وهي أعظم موضع لقوتها وبأسها !

وكذلك تقاد الشعوب الضعيفة رغم أنفها من أعظم مواضع قوتها
وبأسها ، وهي قلوبها وأرواحها التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا
مهما بلغت قوته .

* * *

«و بعد» فلا بد من التنبيه إلى أمر ذي خطر : وهو افتتان الضعفاء

بالأقوياء افتتاناً يحملهم على الاستسلام لهم ونسيان حقوقهم وكرامتهم
وخصوصياتهم التي أرادها الله لهم ، فيكون الأقوياء والمستضعفون
كالغواني المتاجرات وعشاقهن ...

فالغواني يفتن الرجال بظرفهن ورقتهن وجمالهن ، ويخدعنهم عن
الحقوق والواجبات ، ويحطمن رجولتهم ، ويجعلنهم ينزلون عن كثير من
كرامات الرجال في سبيل هذا العشق المجنون الآثم !

إن « الرجل الأبيض » جميل ذكي ظريف عالم منظم يعشق ! يعشقه
الرجل الملون المتخلف المستضعف الذي لم ينل حظه من العلم والسمت
والظرف ... ولذلك نجد من يخالط الأوروبيين من الضعفاء يفتن بهم ،
وقد ينكر دينه الحق ووطنه ومواطنيه في سبيل إرضائهم والتقرب إليهم ...
فكثير من مهرجات الهند ، مثلاً ، وسادة الأمم المحكومة ، لا يستطيعون
أن يتركوا عشرة هؤلاء الخاكين وأنسهم وكياستهم وتفتيحهم لحياة المتاع
والفخفة والتجميل ، لإرضاء مواطنيهم من القروء والجاهلين والمنبوذين !
ودواء ذلك أن يسرع العقل المتخلف في الأمم المستضعفة بقدر طاقتها ،
إلى الأخذ بأسباب العلم والنظام والتدبير والفن وعلوم الجمال ، لسد النقص
الذي استطاع سده ..

فإذا لم يسرعوا إلى ذلك سوف يظلون على إنكار بعضهم بعضاً ،
ولعن بعضهم بعضاً .

فالأوطان هي أشخاص المواطنين قبل أن تكون هي السقوف
والجدران والمرايح ...

هذه الحرب وعبرتها^(١)

الطفرة تنتج النكسة — الديمقراطية هي مجرى التاريخ المختار — أول خطوة هي تغيير النظم الاقتصادية الجائرة — حرب ليست للإصلاح — لو فعلها هتلر ! — لو أدرك الانجليز والفرنسيون والأمريكان ! — التقليد الياباني الأعمى — الحرب هي الرد الوحيد على الجاهلية — إحراق الغابة بشمالها وذيابها — هل اعتبرت أوروبا ؟

سيكون فشل النازية وانهيائها كنزعة متطرفة ، درساً بليغ الأثر يأخذ العالم إلى أعظم دليل جديد على أن تحكم الفرد في أمته ، أو تحكم الأمة في الأمم ، ومحاولة تغيير مجرى التاريخ فجأة ، لن ينتج إلا الارتداد والحبوط والانهيار مهما بذل في إحكام الخطة من الذكاء والقدرة .

أجل ، سيعرف العالم من انهيار ألمانيا بآمالها في سيادة أوروبا أن مجرى التاريخ كجرى النهر المستبصر العظيم ، لا يمكن تحويله بدون عمل عظيم بطيء ، يشترك فيه الناس جميعاً لا أمه واحدة ، ويقوم قبله عمل وإرهاص وتمهيد .

والديمقراطية في الشعب الواحد ، وبين الشعوب المختلفة ، هي مجرى التاريخ المختار ! نعم فيه أقداء وغشاء وقش منحدره من قم الماضي وأغواره ، ولكن هذا هو سير الحياة وسمة التطور التي شاء الله أن يسير تاريخ البشرية عليها .

(١) كتب هذا الفصل في سنة ١٩٤١ .. ولم أنصرف فيه الآن إلا نصفاً يسيراً

والذين يريدون أن يفقدوا البشر فجأة جميع المعاني التي عاشوا بها زمنا هائلا ، وتكونت عليها قلوبهم وتطبعت أعصابهم ، بحجة اكتشاف نظرية علمية أو فرضية اجتماعية ، هم في الواقع غافلون عن آثار آلاف السنين التي تركت في أعصاب البشر وقلوبهم خاتر وراسب .

ان هذه المعاني التي يراد من البشر التضحية بها وتقليب القلوب عنها فجأة ، هي التي رأينا على ضوئها طريقنا الحالى وأفرغنا في قوالبها ، وقام على أسسها بناؤنا المشترك في جميع البقاع .

وأنا أدعو دائما إلى التحرر من مواريث التاريخ السيئة ، ولكن طريق ذلك التحرر لا يكون بغير التدرج الطبيعى المدفوع بعوامل القربية والسرعة العصرية ، ولا يمكن أن يكون طفرة . فذلك شرود عن سنن الطبيعة . ويجب لذلك أن نأخذ من البشر جميعا للبشر جميعا شريعة وحقوقا وطرقا عقلية متقاربة ترضيهم ويستطيعون أن يلتقوا عليها .

وإن هذا هو زمن إخراج هذا الشيء الواحد ، أو هو تمهيد لزمانه فتجب المحاولة لوضع أسس لإخلاص البشرية لنفسها ، وإدراكها وضعها . ويجب مطاردة الفساد أن يسكن جسم العالم الجديد بمطاردة خاتر السوء في النظم الاقتصادية الجائرة قبل كل شيء .

ولو أن (هتلر) وضع قوته الحربية العجيبة في موازين السلام والإصلاح العالمى ، وعرض فكرة هذا الإصلاح بطريق التفاهم ، ودعا إلى ذلك أم الأرض في مؤتمر ، وأنذر الإنجليز والفرنسيين بعد أجل مضروب

أنهم إن لم يقبلوا شروطه المعقولة التي يوافق عليها ذلك المؤتمر المفروض ، فهو في حل من اللجوء إلى الحرب ، وأنهم الجميع أنه يطلب إصلاح العالم « كرسول » ولا يطلب سيادة (جرمانيا) وحدها كزعيم قومي ، وأخرجها ففكرة عالمية لا فكرة جرمانية قومية تؤمن بحق ألمانيا وتكفر بحق غيرها . ولو أن الإنجليز والفرنسيين كذلك آثروا الاستجابة لنداء الحياة والحركات الانتقال السريع في نفوس الأمم الصغرى والمحكومة بهم والتابعة لهم ، وأسرعوا وسبقوا المظلومين والمحكومين إلى الترجمة عن ظلماتهم ، وغيروا حظ كل هؤلاء ، وضمنوا لأنفسهم المكانة الكريمة بين أمم كريمة ...

ولو أن أمريكا شمرت بمسئوليتها تجاه « أممها » أوروبا والعالم أجمع ، وتدخلت في تعديل حياة السلام على أسس الحق ، كما تدخلت الآن في تعديل حياة الحرب لضمان مثلها العليا التي تعيش بها ؛ وكما نهضت للدفاع عنها بقوتها الهائلة وإيمانها الصادق وكفايتها الممتازة ...

ولو أن اليابان اتخذت طريقا لاتساع نفوذها وسلطانها غير طريق الاستعمار الغربي المبني على القوة ، وأفهمت الصينيين حسن نيتها وأشهرتهم أنها حريصة على مصالحهم وجنسياتهم القريبة من جنسيتها ، واجتهدت أن تضمهم إليها عن طريق الحب والثقة لا طريق العداء والقوة ، واجتهدت أن تأتى للحياة السياسية بأسلوب جديد للفتح العقلي والنفعي غير أسلوب الاستعمار الغربي .

لو أن ، ولو ، ولو ... إذا لا تنتقل الناس إلى حياة أسعد بدون حاجة

إلى هذه « الجراحة » الفظيعة التي يجريها زعماء هذه المعسكرات لإصلاح جسم العالم وتطبيب علله كما يزعم كل منهم

إن كل زعيم يقف داعيا إلى العدالة والسلام وقفة المسيح بن مريم بعد أن ذاقوا ويلات الحرب . وما كان أحوج العالم إلى أمثال هذه الدعوات في زمن هدوء الدم وتربّع السلام على عرشه في دولة الفكر والوجدان . . إذا لكان هذا أوفر المال والشباب والجهود والطفولة والشيخوخة والمساكن المترفة والآثار العزيزة النفيسة التي أصابها الدمار ، ولكان هذا أدعى إلى موت الأحقاد التي ربما تكون قد زادت بهذه الحرب وما بعقبها من نزعات الانتقام وتأريث العداوة .

وانى أرى الملام الأكبر على أمريكا ! لأنها كانت تستطيع أن تكون فيصلا وقوة عظيمة تثقل كفة الدعوة إلى الخير والحق ، وتجمع حولها أم الأرض المظلومة المحتاجة إلى وصي قوى ومحام بارع مؤمن بدفع عنها اعتداء الأقوياء على حقوقها الطبيعية ، ويفهم الجميع أن ميزان الحياة لا يعتدل إلا بترك كل أمة وشأنها من غير تدخل إلا فيما يمس النظام العالمى . إذا لكان هذا المال والثروات المصروفة هدرا في إطعام جوف الشيطان بالحديد والنار والدماء ولحوم بنى الانسان ، أسرع أداة في إرضاء الأمم الفقيرة وإقامة حياة رحيبة هائلة للجميع .

ولكن يبدو أنه ليس من الممكن أن تتنازل الأمم والجماعات — مادامت بمقائدها الحالية — عن تقاليدها البالية ، ومواضع حياتها الجاهلية بدون أن تصاب بمصائب الحرب التي تحطم كثيرا من أوكار الجهالة والجود والجشع

والأنانية ، حتى يمكن لمن يخلفهم أن يتنازل عن كثير من أنانيته ووحشيته في سبيل حياة المدنية والاستثناس وضمان المصالح العامة للمجموع .

فهذا التنازل يكاد يكون مستحيلا لولا الحرب ، فإن مصائبها هي التي تهون على الذين فيهم كثير من آثار الفردية ولم ترتفع نفوسهم وعقولهم إلى مستوى العلم والخلق الكريم الذي يفهم أن الإنسانية واحدة ، فيجب أن تكون مصالحها مشتركة غير متضاربة .

ونظرة صادقة إلى كل ما أعقبته الحروب العظيمة بين الأمم أو الحروب الصغيرة في الأمة الواحدة كافية لإدراكنا أن أغلب النظم الصالحة كان يصيبها الاتساع والشمول والنظرة الرحبة عقب كل حرب .

ويصح أن نقول إن الفتنح السياسية الواسعة كانت دائما تظهر في المعاهدات التي كانت تعقب الحروب العظيمة .

فالحرب دائما كانت وسيلة لتقليم الغابة البشرية من كثير من الأشواك والشجيرات الميتة والطفيليات والشمالب والذئاب التي لا وسيلة للتخلص منها في بعض الأحيان إلا بإشعال الحريق في الغابة كلها . .

ولولا هؤلاء الساسة والماليون الذين لا ضمير ولا فكر لديهم في وضع الإنسانية ومستقبلها وغايتها ، وهم المسيطرون الحقيقيون على الاجتماع ، لكان من الممكن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أفضل عن طريق الإقناع و « معارك السلام » .

ولكن أنانية هؤلاء وضيق آفاقهم وانتقال أساليب الجاهلية عن طريقهم إلى الحياة ، هي التي تعوق هذا الانتقال المهيمن ، وتحتمل الانتقال

عن طريق العنف والتخبط .

وأحسب أن نفوس الأوربيين الذين دمرت حياتهم بهذه الحرب والتي قبلها ربع قرن ، سوف لا يجدون في أنفسهم ، لو اتعظوا ، غضاظة من أن يتنازلوا عن شيء من حقوق قومياتهم الضيقة ، ونعرات أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم ، وسوف يسرون نحو تقارب يكفل عدم التصادم ، وتوزيع المنافع والأقوات والمصالح .

وما كان لقوة إقناعية أخرى غير الحرب أن تحملهم على ذلك ، بعد أن شملتهم في السنوات العشر الأخيرة موجة من النعرات القومية والخيلاء العسكرية والمنافرات الجنسية ، وسرت منهم إلى الأمم التي تتصل بهم ، حتى الأمم المستضعفة الجاهلة قد أصابها ذلك الادعاء والهتار .

فهذه الحرب كانت ردا سريعا من الأقدار ومن طبيعة الحياة الاجتماعية الحالية التي لم تعد تحتل الطيش القديم . وإن عدنا عادت بأسلوب جديد . وما أدراك ما أهوال الحرب بأسلوب جديد !

٤

نحو أساس ربحى للحضارة المادية

بين الوَعْيِ والذُّهول

رحلة في حيوات الناس — صيحة في أذن الإنسان — لو، ولعل، وربما —
لا ملام على الأقدار — لم تفت الغاية — نقطة البدء في الحياة الفكرية —
الجنابة الأولى — حادث عظيم — آثار من الوثنية — الوضع الأصيل
للدين — ديانة الحياة

حينما أعُسُّ وأندَسُّ إلى مجلس في حانٍ صغير أو مقهى حقير ، أرتب
الحياة الإنسانية في بعض جوانبها ، وأتفرَّس في وجوه القوم ونواصيهم ،
وأستمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم ، وأتبع نظراتهم للحياة
فأجدها لا ترتفع إلى شيء سامٍ ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا
للحياة ، ولا تفكر في مبدأ أو مصير ، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد .
وحينما أقذف بجسمي في زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج
الحركات والأصوات والأبواق ، وصفقات الأيدي الخاتلة على الأيدي
المتحولة في العقود والمبايعات ، وسائر الارتفاقات والمشاحنات ..

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية ، فأجدها سلسلة من الغفلات
والأكلات واللذات والأعمال الآلية التي لا استحضار فيها لمعان كريمة ،
ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية بها ، وإنما هي دورات رَحَوِيَّة
وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال : إلى أين المسير ؟

حين هذا كله ، أجد في نفسي كأن الإنسانية عريقة في غفلتها
وذهولها ، وكأنها خلقت لهذه الغفلات ، ولن تكون لغيرها ، وإن تكون

لحياة أخرى وراء هذه الحياة ، وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الجادة الواعية العادلة الموزونة انفصالا يكاد يجعلها عالماً مستقلاً ...

ذلك وحى رؤيتي لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور في الأكوان ، وإهمالهم التفكير في مبدأ الحياة ومنتمهاها ، وفي خفايا الطبيعة وأسرارها .
وحين أجلس مجلساً تُثار فيه الأفكار عن الكون والفساد ، والحقائق والأباطيل ، ونصول فيه العقول ، وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللافتة ...

أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ، ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد ..

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تنفق بالأصوات والبرقيات ، مما أخرجته عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار ...

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة في محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات في إطراق وخشية واستحضار اعظمة الكون وجلال بارئته ...

أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحداث الصامتة والناطقية في الطبيعة ، واسترق السمع للنغم الذائب في الكون والموسيقى الأبدية في حركات نجوم السماء ونجوم الأرض ...

حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته !

هنا الإنسانية التى تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال !

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته ، ومَلَكَوت واسع يصح أن نستند إليه فى تخيّل مستقبله ، وفى تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات . .

ثم أهتفُ : أيها الإنسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها ... تيقظ أنك حى تسمى وترى وتفكر وتتجه أى اتجاه تريد وسط الظلام والجمود والنور والصمت والبكم والصمم والعمى . .
أنت الذى تفقه وتذكر تلك الحياة التى لا تجد غير عينك وأذنك وسائر حواسك . .

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذى يحيط بك ، وأنت خليفة على مُقدّرات الأرض ، وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه والتغيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف فى سمع الزمان والمكان : أنا أنمو وأترقى وأتكلم وأفكر ، وليس أمامى حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة ...

واجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات ، لترى الفوارق بينك وبينها . . . ولن يغفر خالق الإنسان لأمسى جاء إلى الحياة ولم يجلس مجلساً بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ، ويحدد موضعه منها ، ثم يرفع عينه إلى السماء ، ويخفضها إلى القبر ، حتى يرى الطريق بينهما . .
تيقظ إلى الذى مَسَّنَا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين إلى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة فى السماء ، ومشاهد مَرنة متغيرة فى الأرض ، وبدأ حياتنا من نقطة ، ومَطَّ أجسامنا

من مُضغَة لحم ملقاة في ظلمات الأرحام ، إلى أُجِنَّة مكتملة التخليق ، إلى
أطفال دارجين ، إلى غلمان يافعِينَ ، إلى سَراهِقِينَ متفتحِينَ ، إلى شبان
مَشْبُوبِينَ ، إلى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياماً . . !
إلى الذى أدار الشمس أمام عيوننا دوراناً يبلى في أجسامنا نسيجاً
وينسج آخر ، ويزيد في أفكارنا صوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام
تحت أقدامنا سَفَرًا في الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكري
وراء ذكرى !

إلى الذى فتح في نفوسنا سَهْمًا لا يَسْمَعُ من أطايب الوجود وحقائق
الوجود ، ثم سَجَنَّا في سجون القبور إلى يوم النشور .

لقد أدخلنا إلى هذا الدار لنبحث عنه في عالم الفكر ، ونَتَنَظَّرُه
وراء الأستار ، ونفرع باب الزمان والسكان في عُمرَة كل يوم وفقاً كل
مساء ، نسائل عنه ، ومعنا عيون تقود ، وأقدام تسير ، وقلوب تتلقت وراء
كل ورقة في كل شجرة ، وكل ذرة في كل مدرة ، وتنظر في الوجوه
والعيون والألسنة ، وما يزحف ، وما يمشى ، وما يطير ، وما تحمله الريح ،
وما يحمله الماء والأثير ، وما تحمله قوة القُوى : الفكر !

وَيْ ! ! آية غفلة هذه التى تَغْشَى الناس وتتركهم عمياً ذاهلين عن مجيء
الحياة بهم من غير اختيار إلى دار العجائب ، وعن سيرها بهم إلى دار الجهول ،
وعن سير الشمس والقمر ، وتوارد الأيام ، وسقوط الأمطار ، وأسفار
الرياح إلى مختلف النواحي !

ثم آية غفلة هذه التى تَغْشَى عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء

بهم وسيذهب بها . ذلك الذى استتر وأصرَّ على تكبره واختفائه !
ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها
فى غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من البسائط إلى المركبات إلى
المعتقدات ، وهو فى شغل عن الأسباب والمسببات ، إذا لم يخرج منها
مجنونا بمجرد دخوله إليها ، من شدة الفجأة والدهشة العجب !
ولعل الحياة توطد نفسها فى نفس الإنسان فى زمن ذهول الطفولة
ليطبق احتمال أمانة الفكر ، وليعيش بعد ذلك فى نصف شعور ، وليحتمل
مآسائه يلاقيه من الدهشة والتناقض .

والإنسان هو نتيجة انطباعات قوى الكون فى ورقة حساسة هى
المنخ . . فلا بد من مرور زمان قبل الإدراك الكلى وبلوغ الأشد حتى
يتأتى للدنيا أن تدخل إلى ذلك المنخ المعجيب . وبعد بلوغ الأشد يبدأ
الإدبار والانحدار ، وحينئذ يجب الحذر والبِدَار قبل النهاية الآتية .

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثر الناس بصغائر الحياة والنزاع عليها
وجعلهم كالفطير الغافل المراتح السادر فى غفلته وعماء عن المعلوم والمجهول
من أمور الحياة ، وأخرجهم فى خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا
فى الأرض كما تعمل الثيران فى الطواحين . . تدور وهى لا تعلم أنها تدور
ولماذا تدور . . وضربهم بفتنة الدنيا ، فزاغت منهم الأبصار عن الحقائق
إلا فى فترات الدين والصلوات . . وحتى هذه أدركوها وهم فى تخار المادة
وسُمار الشهوات ، إلا قليلا منهم ، وهم العارفون المدركون لأرصَاد الطبيعة
وشئ من تدبير الله فيها لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر فى

أعاجيب صنعه التي كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة ! فهم لا يحتملون هذه الدهشة ويصبرون عليها كما يصبر العارفون . .

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصاعوا تحت حكم الأقدار ، ولو في مُقَارَفة الأضرار والأوصاب ؛ إذ قد عرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشتركوا في حبك الوسيلة التي أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التي عليها عمار الأرض بالأسلوب المادى المعروف .

وربما كانت غرائز القطيع العنيفة هي التي تنمى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عنف غرائز الطفل مستقبلة ويوسع من آفاق حياته .

إذاً ، فلا ملام على الأقدار التي تدبر كل شيء وتضعه بميزان ، ولا يجوز مطلقاً أن نتوهم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات ومآثم ، قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد فانت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم بعض من أشرت إليهم سابقاً^(١) — فإن الإنسانية لا تزال في دور تفتح المدارك وعقائيل الشباب ، والشباب فيه لَوْنَات كثيرة ، ولا بد أن تتدرج إلى أدوار الرشد الخالص في كهواتها وشيوخوتها ، وأن تحقق الغاية الكاملة من خلقها كما أرادها ربها .

وكل مآثم الحياة الإنسانية وأزماتها قد تفتفر ويجد الفكر لها تعليلاً إلا جحود خالق العالم أو الإشرار به !

وكذب من يريد خديعة نفسه ، وخديعة الطبيعة ، وخديعة رب الطبيعة !

ذلك الذى يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير
« نقطة البدء » التى يراها الفكر أول حياته ومفتاح عالمه .
كذب وضل ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيهاً ، وقلب الحياة على
أُمِّ رأسها وأُمِّ رأسه !

إن نقطة البدء فى الحياة الفكرية ، هى الفكر فى بارئ هــذا
الكون الكبير الهائل الذى خلقنا الله منه وأسكننا فيه من غير اختيار
منا ... الفكر فيه حتى نعرفه ونؤمن به ندرك طرق تسييره للحياة
والطبيعة ، فنسير على خطواته وسننه .

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر . وقد رأينا ظلَّ يده يقع
على كل شئ ، ويضع كل شئ فى موضعه .
ومن أضلُّ ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ، ويباعدنهم عن نقطة
البدء هذه ، ويضعهم فى مكان سحيق ، يستمر أول الطريق عندهم
مجهولاً ، وآخره مجهولاً ، ووسطه مختلطاً مشوشاً !
الجنابة الأولى هى إهمال الفكرة الأولى : وهى السؤال عن جاء بنا
إلى هنا ، ويمضى بنا كما يرى سبيل .

ومن وراء الجنابة الأولى تتلاحق أخواتها التى تجعل الحياة
أغلاطاً متسلسلة .

إن انفصال جنين إنسانى من رَحِمِ أمِّه حادث عظيم ينبغى للإنسانية
أن تتلفت إليه وتوليه أجلَّ عناية ؛ فلعل فى الوليد حلقة جديدة فائقة
تحمل سرّاً جديداً من أسرار تكوين هذا النوع .

واسكن الإنسانية أو الدولة تجنى على نفسها ، إذ تهمل وصل عقل كل
ناشئ ، بمفتاح الحياة ، ومفيض فيضها ، ومرسل رحمتها .

وكان الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن ... لأن من
ألوانها انصراف العقل الإنسانى عن الفكر فى رب العالم وما يليق له من
الكلمات ، وعن شكره الدائم مادامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة
وتتواتر على الجسم . . ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شيء من الأشياء
ينسى الإنسان معه رب الحياة ، ويستغرق فى ذلك النسيان ، حتى يتعبد
ويُلَوِّذ بما ركن إليه .

وهانحن أولاء نرى فى هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات
والآلات والأعمال والصناعات ، يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى
واهب الحياة ...

قد يظن ظانُّ أنى مُغالٍ فى الروحية حين أدعو إلى أن يكون عقل
الإنسان دائماً مرآة لشعاع ساقط من سماء الله . . .

واسكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقى للدين على ما أفهمه ، وعلى
ما فسرت به فى مجال آخر ، من أنه الإحساس الدائم بالحياة ، والفكر
فى مبدعها ؛ لتكون لذاتها وآلامها وأطرابها وأوصابها صوراً وألواناً
من العبادة .

والإسلام الذى هو دين الطبيعة ودين الحياة ، رسم لنا هذا حين سنَّ
رسوله أن يذكّر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر

الأعمال والذات والآلام ، حتى عند ما يريد الإنسان أن يدخل المسكن الذى يخرج فيه ما فى جوفه من الأذى ... !
وإن يكون الدين غير هذا التذكر الدائم . . فليحمله فى نفسه من شاء وليتركه من شاء .

ألا إنها « ديانة الحياة » التى تستحق وحدها أن يحيا الإنسان بها ، ويسعى جاهداً فى سبيلها لتحقيق غاياتها .

وغاياتها : العقيدة الثابتة التى لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد .
وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هى فى الطبيعة .

ورصد قوانين الطبيعة التى تسيّر الحياة بنظام دقيق فى الجليل والحقير .
واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التى فى الطبيعة .

وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى اليوم كأئس ؛ فلا يكون الزمان عندنا يوماً مكرراً مملولاً ، ولا يكون إحساسنا بالحياة واحداً فى مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة ، فإن ذلك إحساس جسدى فقط بالحياة ، ووراءه إحساس فسكرى روحى عند من لهم إخلاص الفسكر فى الكون .

أولئك الذين يرون أن كل يوم جديد . . ثم يسبقون الحياة والزمن ..
ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة ..
فإن العالم لا ينتهى أمده عند رؤية النفس والأرض والنجوم .
وإن الذى صنع هذا المعجب الذى نراه ، لا بد قد صنع غيره لا نراه ...

صوفية مادية !

تمجيد واصل إلى من له المجد ! — دنيا المهندسين — موقف لصلاة
جامعة — إلى المعتمدين على المباحث الروحية — نتائج لقانون
التسلسل والترقي — فرضية لا بد منها — إشارة قرآنية عجبية — ضروب
من العقول — أدوار المعرفة وأدوار العلم — إنسانية الشرق المضيعة —
العلم دين — أين العصا السحرية ؟

ينبغي أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتي في تقدير قيمة الإنسان
وما صنعه من الآلات التي فاقت بآلاف الأضعاف قدرة الحيوان وقدرته هو
على العمل والاحتمال والانبعاث والسرعة والدقة في الحساب والرصد
وقياس الدقائق وإبراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار : — إنني لا أبغى
من وراء ذلك إلا لفت أنظار الغافلين إلى قدرة الفكر البشري وإلى
وجوب تمجيده عن السفساف الحقير من التصرف ، وإطلاقه يرُود وينظر
ويعمل في ملكوت الطبيعة ...

ولا أقصد بتمجيد الفكر الإنساني إلا تمجيد بارئه وواضع أسرارهِ
في هذا الجسم المحدود الضئيل ... فلا يتوهمن متوهم أنني سأخرج بغلوى
في تمجيد الإنسان إلى شيء أشبه بإشراكه في الخلق والإيجاد ، فإنني قد
حددت هذا النوع في فصل سابق ، بأنه آله في يد الباري يتم بها التنويع
والتفريع في خلق المادة وتصويرها .

ولا يسعني غير هذا ، بعد أن رأيت وفكرت في أعمال تلك الطائفة
المجيدة التي لم يُلْتَفَتَ إلى وضعها في الحياة بعد ، ولم يعرف لها خطرها في

تحقيق الغرض من خلق النوع ، ولم ينظر إليها ولم تنظر لنفسها نظراً روحياً ... وأعنى بها طائفة المهندسين ... أولئك الشعراء الصامتون الذين يرسلون قصائد مجسمة ، ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق ، و يقيمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة ، التي عملت فيها آلاف العقول والأيدى بالتلوين والتزيين والإخراج الفنى الفنى باللفقات الذهنية ، واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر ، ومزج الأضواء والظلال ...

أو يقيمون أجساماً آليّة تنبض بالنار والبخار ، وتسمى بهما أوبالسكرباء ، وتضيف إلى عالم الحركة فى الأرض قوى أخرى تملأ سمع الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت ...

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله ، يلتقطون أسرارها من غمار الحياة الزاخرة ، وعُباب المائع و « المتبلور » والجامد ، ثم ينظمون كل هذه الألفانين ويتخذونها أساساً لقوة التقليد وقدرة الابتكار التى فى أفكارهم وأيديهم .

أولئك الذين يسيرون على أسلوب الله من العمل ، ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة ، فيقسّمونها ويوزعونها ويتممون ما أراده فيها ، ويجلّون ما أخفاه فى أطوارها وثناياها ، ثم يضمونها فى الأرض مجلّة منسقة ، متاعاً للعيون ، ومثابة للأجسام ، ومظهراً وتأويلاً لأحلام الروح فى عالم الجمال .

ولن ينتهى العمل الهندسى للإنسان فى الأرض إلا بعد أن يملأ

شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره ؛
فإنه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش في اليابس والماء والهواء ، وأنه لا شيء
إلا وهو واجد فيه حقلاً ليده يعمل فيه ويأخذ منه .

وإننى ما أسمع صوت قارىء يتلو كلام الله فى تمجيد ذاته العليا
فى محطة الإذاعة ، فتزد صدوته جميع آلات الالتقاط فى جميع الأنحاء
وتثبت ذلك التمجيد إلى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو ، إلا أحسن
أن الإنسان ابتداءً يهز الأرض برسالاته وعبادته ، وينطق بها الجماد ،
ويُسمع بها على رغم الأبعاد ...

تلك روحية مادية حديثة ، ينبغى أن تكون من مظاهر التدين
فى هذه العصور التى تسير فيها المدنية المادية بحياة الإنسان فى ساعة واحدة
أضعاف ما كانت تسير به مدنيت العصور السالفة فى عشرات السنين .
نعم إن أصول الدين الحق واحدة ثابتة لا تتغير ، ولكن ينبغى ألا
نكون جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أن عبادتنا قاصرة
على الأشكال الموروثة ، بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سبباً فى
أن نعبد الله بها ، وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها . وتلك عبادة مطلقة من
قيود الطقوس والرسوم والأشكال . . عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير
بسرعة ألف ومائتى ميل فى الساعة ، ويرتفع إلى طبقات الجو العليا ،
وينخفض إلى أعماق البحار السفلى ، ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع

أنفاسه في أقصى الغرب.. ذلك الذي يستطيع أن يترك في كل مكان
كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء...
فهناك ، بين العلم المادى والاستغراق الروحي ، يجب أن يقف
الإنسان الحديث ، يناجي الله وفي قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها ،
وفي قلبه صلاة دائمة جامعة... !

وهذه الروحية المادية تمجد العلم المادى والعمل به ، وتخضع لدولة
الأجسام ولا تثور عليها ، ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما
خلقنا في عالم الأجسام إلا لنعلم قوانينها ونؤمن بها .

وينبغي أن نقول هنا للتاركين للعالم المادى الظاهر ، المنصرفين عنه إلى
مباحث الروح ، الذين يفرحون إذا عثروا على حادثة غريبة لا يستطيعون تفسيرها
تفسيراً مادياً ، ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم
المادى : إن ما تغرمون به وتنفقون حياتكم من أجله ، لا يصح أن تنصرفوا
إليه وحده في الاستدلال ؛ لأنه لا يبلغ الآن إلى عشر معشار الحجاج التي
تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر المليء بالعجائب والمعجزات
التي لا تحتاج العقول معها إلا إلى حركة ارتداد إلى مبادئ الأشياء ، وإلا
إلى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شيء والدوران حوله ، ولأن ما بين أيدينا
وما خلفنا مليء بالعجائب التي يراها كل فرد ويخضع للمنطق المستمد منها
كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأني من آية في السموات
والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

فنحن نستطيع بجهد فكري قليل أن نأخذ من هذا العالم المادى الظاهر، أدلة كثيرة على أن وراءه عالماً آخر، بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه، ولولم نر من ذلك شيئاً... فإن الرؤية ليست هي الطريق الوحيد إلى التصور والحكم.

والنظرة العلمية المبنية على إدراك قانون الترقى وقوة التطور، تبين لنا أنه ما دام قد وقف الإدراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الإنسان بعد أن تدرج إليه في سائر أنواع الحيوان، فلا بد أن يكون وراء الإنسان أفق حياة عاقلة أخرى، هي بطبيعة سلم الترقى مجردة من الأجسام. وكما أن هذه الآثار والمشاهد الباهرة التي نراها في العالم المادى نتيجة لعوامل خفية نوعتها وشكلتها، فلا بد أن يكون في غير الأرض آثار ومشاهد أخرى هي نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التي كان من نتائجها ظهور عالمنا الذي ندركه بحواسنا. وهذا هو اللائق باتساع الكون الذي أرضنا فيه كذرة رمل في صحراء، فلا يصح أن نتخذ أساساً واحداً للحكم على جميع ما فيه.

وهذا حكم نحكمه خضوعاً للفرضية الآتية التي تحمل لنا هذا الإشكال وإن أوقفنا في غيره...

تخيل إنساناً خرج إلى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم؛ فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده؟ بالطبع، لا. ولكننا مضطرون إلى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود، ولولم يوجد في حواس هذا المسوخ.. وكذلك نحن مضطرون إلى أن نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى

ولولم توجد لنا حواس تدركها ؛ لأن هذا هو الذى يتلاءم مع اتساع الكون ، واتساع قدرة المسيطر عليه ، واتساع عالم الفروض والصور فى بعض العقول .

وقد أشار القرآن إلى معنى عجيب يتفتح معه خيالنا ويأخذنا فى عالم لا نهاية له من الفروض ، وإن كان لا طاقة لنا بإدراك ما فيه من الصور . قال : « أفرايتم ما تُمْنُون ؟ أنتم تَخْلُقُونَهُ أم نحن الخالقون ؟ نحن قدَرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال المجنح ... ولكنه خيال مطموس الصور ، لأنه لم يجد أصباغاً وألواناً ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويفتن فى تهاويله . وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون ... ! »

لا يصح لمن لم يدرك أن ينسکر على من أدرك ؛ فإن جوانب الكون واسعة ، ورسالات علم الله إلى العقول كثيرة ، وليست كل العقول قادرة على الغوص فى أعماق الكون ، كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص فى أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص فى اللجج والرجوع إلى الشاطئ ، فليززم وليحذر ، حتى لا يفرق ويذهب فى أهوال المعانى .

وما فى العالم « المتبلور » شئ تافه بالنسبة للعالم الذى تلتقى فيه أمواج المعانى ، ويمبئ عباب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة الدنيا .

وعقل الإنسان كطفل الأم : ينبغي ألا تطلقه في المخاطر والمزالق إلا إذا شبَّ وكانت له قوة واقتدار .

ومن العقول نوع لا يعيش إلا في أعماق الكون ، فإذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحياة ، اختنق وقلت فيه الحياة ، كالسمك الكبير . . .

ومن العقول ما هو مسير لظاهر الحياة ، لا يتخاف منها ولا يتقدم .

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق ، فلم يصل إلى العالم الفكري الموجود الآن في أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله إلى الفكر الإنساني .

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة ، بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير في نفسه تطلعا ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئا ولم يفقته شيء ، وهذا هو العقل الفائق السابق .

والنفس إذا عرفت قرار الحياة وأصولها ، لم تبال بما يحدث في فروعها من تلون وتبدل . وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة ، أرحب من الموجود وأكمل ؛ فهو يسير في مستحدثات الأيام كما يسير المرء في طريق معروفة له تردد عليها مرارا ، من كثرة تفكره في الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد .

وهذا قد يعمل في الحياة بحمد وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعية لحركات سيرها بالناس ، وخضوعاً لقانونين عظيمين من قوانينها : وهما الأمل والعمل . . .

وهكذا الطبيعة ، رسالات من علم الله إلى الفكر الإنساني العام ،

يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما قدر ويُسرّ له .

فينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... ينبغي لرجل الشارع ألا يجادل في عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو « الغزالي » ومن إليهم من العقول الفسائقة التي أطلت على الأرض ، وكانت فيها كالثمرات التي تلتقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها .

وبين الإله الباريء الكبير وما عنده من عوالم المعاني والقوى المجردة والكمالات التي لا تنهاى ، وبين عالم المواد والكثافات ، وقف الإنسان التائه المتأمل الساعى وراء المعرفة حيناً من الدهر ، لم يتقدم فيه خطوات كثيرة ، ثم انقسم فريقين : فريقاً استمر في التفكير المجرد في الطبيعة وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون بالهجات والنظرات الشعرية الخاطفة ، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة « عارفاً » غير « عالم » ولا « عامل » ...

وفريقاً أعياه التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولاً يملأ يديه ، ويشهد له الناس بأنه أدركه وقنصه ، فانصرف إلى أنواع الحياة في الأرض وأشكال المادة ، يعبث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم » ثم أخذ يقلد ويبتكر .

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون إلى أعمال الطفولة وحب استطلاعها الأشياء ، على أنها عبث ولعب لا طائل تحته .. كذلك نظراً أكثر الكهنة

إلى أعمال الرجال في المادة وتنويعها وملء الحياة بضجائها وأصواتها ، على أنها عبث ولعب لا يليق بمن يسير إلى الموت والفناء . وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلق الناس أعمال الدنيا ، ويذهبوا إلى المعابد والمعاهد ، يتلون « الأوراد » ويفلسفون وينظمون الأشعار المتشائمة ، ولا يرفعون في الأرض حجراً على حجر ، فيكونون عنصراً مستهلكاً غير منتج ، يأخذون من الحياة أغذية وأعمالاً ، ولا يعطونها إلا أقوالاً وأشعاراً ، ويقفون في طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الإنسان .

هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة في الشرق ، وهم الذين جعلوا إنسان الشرق لا يزال أكثره كائناً كداس الحصيد وأهراً الغلال التي تترك في أما كنها حتى تقتلها الآفات وينخر فيها السوس . . وهم بذلك يضيقون على الإنسانية ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم . وهم بذلك يتركون الناس من غير تنسيق وتنظيم في الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيش .

هؤلاء ينبغي أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ، ويعذلوا أفكارهم على مقتضى ما توحىه سنن الله الدقيقة التي تجعل من تصرفات جميع قواين الطبيعة في وقت واحد لحناً موسيقياً متسقاً يشترك في توقيعه كل شيء ، ويعلموا أن الكفر بمعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها ، كالـكفر بالعقائد الصحيحة والفسق عن نظم الأخلاق .

إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه ، وإطلاق الأفكار فيه ، هو الأمر الواحد الذي ينظم الإنسانية جميعها ، وتلتقي عليه

بأفكارها وأيديها ، وقد جعلها تلمس عرشها المرْمُوق ، وتعرف دواتها
المأمولة في مستقبل الحياة .

ولكن أين « العصا السحرية » التي ستفعل في تعديل شهوات
الأم وغرائزها وتعصباتها الذميمة ، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة
بأفكارها وأيديها ؟

ذلك مايسأل عنه رجال التربية ، والمفكرون في الدين والاجتماع .
رجال التربية « فلأحو » حقول الطفولة : منطقة النمو الدائم و « عُلَب »
أسرار المستقبل .

ورجال الفكر رسامو المثل العليا ، القادرون على استدراج الناس
إليها وسجنهم فيها ذلك السجن المحبوب . .

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم
مقاود القطيع ، بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع . ولا يزال محترفو
السياسة والدجاجلة بها ، المتخلفون عن بلوغ القمة في الفكر والخلق ،
هم الغالبين المتسلطين كما بينا سابقا .

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس ، كما كانوا في القديم .

الباقى

من صانع الحضارات الفانى !

اختزان المعانى الكبيرة — « العدسة » الخفية — التعجب مدخل
التعبد — التعبد هو الغاية

مالذى يبقى من الإنسان ابن الفناء صانع الحضارات ؟
أهو أن يصنع صوراً فكرية وحضارية ناتجة من مزاجية فكره
بالمادة ، ثم لاشئ وراء ذلك ؟
وأن محصول النفس من المعانى التى يدركها فتكون ذخيرته فى نعيم
الحياة أو جريرته فى شقاءها ؟
أن المعانى الكبيرة التى يأنس بها الناس فى الحياة ثم يخزنونها فى
ألفاظ تُتلى وتنشد ويصلى بها : كالإيمان . الحرية . المجد . النجاح .
السيادة . النبيل . المروءة . الحق . العدالة . الإخاء ، وهلم جرا ؟
وأن أضداد هذه المعانى الكبيرة من المعانى الحقيرة التى تلهب القلب
والضمير بسياطها الجارحة ، وتحملهما على الإدراك والعشق للحق والخير
والجمال ، والفرار من الباطل والشر والقببح ؟ فهى أيضاً عنصر يمد الحياة
بالفهم والإدراك لأسباب الفرار إلى عالم الحق والجمال .
إن المواد والخلفات الحضارية المادية لابقاء لها ولا معنى ولا ذوق
إلا فى نفوس الخلف بعد السلف ، وهكذا ...
وحضارة أمة تزهر ثم تذوى فى يدها فتنقل شعلتها إلى يد أمة غيرها
ثم تذوى وهكذا .

فأين المعاني العظيمة من هذه الحضارات العظيمة المتعاقبة ؟ هل فنيت مع أهلها وانتهت ؟

وحضارة الحاضر التي بنيت على العلم الطبيعي الذي يستمد ثباته ودوامه من ثبات الطبيعة ، ما بالها ؟ إنها قد أيقظت الإنسان للتاريخ يصنعه ويحوطه ولا يتركه بضيع ، وأشعرته بمعان عميقة للخلود الذي يصبو إليه ويتعلق بأسبابه ، وجعلته يفر من عوامل الفناء وأسباب الدثور ، ويرى أنها لا تليق بهذا الجهد العظيم الرحب الذي يبذله .

وقد رأينا إمبراطورية كالبريطانية صاحبة يقظة حرص على خلودها ، مباعدة بينها وبين عوامل الفناء ، جالبة عوامل البقاء والنماء ، قد طال عمرها حتى ضرب رقما قياسيا في التاريخ .

فهل يجوز أن يكون ذلك الأثر المادي الحضارى هو كل ما يبقى من الإنسان ؟ إن هذا الأثر في عميق التفكير وحقيقة الأمر ، ما هو إلا فقاعات على سطح محيط كبير ، حياتها وبريقها وانتفاخها وحجومها وألوانها ما هي إلا صور من ضوء يشع برهة ثم يفنى في بحر الظلام الأبدي . إذا فما هذه الخديعة الكبرى التي تغشى على عين الإنسان وتجعله يخال نفسه صورة من الكرة العالمية ، بل يخال الكرة العالمية صورة من نفسه ؟ !

إنها في تلك « العدسة » الخفية التي في قلبه ، يزوى بها الله العالم في ناظريه ، ويطويه بين حاجبيه !

والتفكير في هذا الشأن من حياة الإنسان يحملنا على أن نقول :

إننا نصنع هذا المتاع المادى الدقيق ، وهذا الجمال المؤقت الذى تحلم به
أرواحنا وتحققه فى المغانى والمَـرابع والأغاني وسائر المرتفعات والذات ،
لكى نراه يفتى على رَغْمِنا ، فيحملنا ذلك على التعلق بما يستطيع الله
مالك هذا الوجود أن يفعله من الجمال الدائم السرمدى الذى نشعر شعورا
خفيا عميقا أننا خلقنا له ، ونسير فى طريقه جماعة بعد جماعة ..

وما دام الإنسان استطاع أن يقيم لنفسه عوالم رائعة من الجمال المؤقت
فلا شك أن بارئه وبارىء الطبيعة يستطيع أن يبنى عوالم من الخلود
والجمال الدائم الذى يفاضل أحلام الإنسان .. فإن جمجمة صغيرة ضئيلة
كالتى له ، استطاعت أن تصنع من المتاع والجمال ما يَرُوعُها ويحجب
إليها الاستمساك بهذه الحياة .. فكيف بالعقل المحيط ذى العلم الأوسع ،
والقدرة الفائقة ، والروح الأكبر ؟ !

حينئذ يسلمنا هذا الأمر إلى أن نقول : إن الجزء المعقول بقاؤه
من حياة هذا الإنسان الفانى مع ما يصنعه ، هو هذا الجانب الذى يخترن
المعانى العظيمة التى يتغنى بها ويعشقها فى حياته الدنيا — وقد يتمجل
الرحيل عن هذه الدار من أجلها ، ومن أجل شفاء نفسه من أضدادها ! —
ثم يتعجب منها ويشعر بها بعمق ولذة كريهة وأنس وإجلال . هو جانب التعبد .
وهو مفتاح الشعور بالدخول إلى رحاب الخلود فى هذا العالم الأكبر الخالد ...
وما عدا هذا الجانب فمحضُ رله ومهْيُ ؛ فإننا نذكر لكى نتعجب ... ونعيش
بالحس لكى نتعجب ... ونعمل فنمشى ونطير ونزحف ونصنع ، لكى نتعجب ..

نتعجب من الأسرار المودعة فينا وفي الكون الذي نعلم أننا غرباء عنه
راحلون منه بأجسامنا .. ونتعجب لكي ترسل كلمات الاستحسان والمسرّة
والشكر لمن أدخلنا إلى هذا العالم العجيب .. فنقول لبارئهِ وبارئِ
نفوسنا : ها نحن أولاء عبيدك الشاكرون المتعجبون من قدرتك وعلمك
الذين جعلنا قاهمين قادرين عالمين !

وتلك هي صفوة العبادة .

وليس ما يصنعه الله مباشرة في الطبيعة وفي النفس هو وحده الذي
يوجب التعجب والإيمان .. بل معه ما يصنعه الإنسان نفسه يضاف إلى
موجبات الإيمان .

وفناء ما نصنعه بين أيدينا على رغنا ، باب عظيم من أبواب الإيمان ؛
فإن قدرة وعلمنا كالذين لنا لا يصح أن يفتنى صاحبهما فناء إلى غير رجعة
ومصير أعظم .. كلا لا يجوز !

والدليل على ذلك هو استفتاء الشعور المرهف بالحياة والتعلق المشبوب
بها . ودع عنك البراهين الأخرى ...

فالتعبد هو ثمرة حياة الإنسان صانع الحضارات الفاني .. الخالد !

إلى العقل الغربي

من الروح الشرقي

إنسان غير مفهوم — أوروبا المعمرة المدمرة — نكسة — خديعة
ذهبت إلى جهنم — نفقات وترتيلات جديدة — في الغربي سياء غنى
عن الله — العقل الغربي المغرور — تناقض بين حياة الأرواح وحياة
الأجسام — من الطيب ؟ — قانون طبيعي ينتقم لنفسه — عبقرية المادة
وعبقرية الروح — الذكاء البطر الجوح — إلى أحضان الأم الكبرى !

الغربي إنسان غير مفهوم ! فقد كفر الأوروبيون بالحياة في هذه الحرب
بعد أن جُنُّوا بها جنونا في وقت السلم ، وهم لم يذكروا السلم في زمن
الحرب ، كما أنهم لم يذكروا الحرب في فترة السلم .

لم يتخذوا من قانوني الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم
وما استُخلفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتي ميزان متعادلتين
آخذين حظاً صالحاً يعدل السلام ويعدل الحرب .

هم فجروا في فترة السلم : فثشَّهوا ، وكفروا ، وعبدوا الهوى ، واحتقروا
الضعيف ، وشَرَّهوا المال ، وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار ،
وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام الكثير كما
يتنازع الأطفال غير المهيئين !

وهم فجروا في هذه الحرب ، فلم يرعوا حرمة الحياة الإنسانية التي

قدستها الأجيال : فصبُّوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسلمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ... فحياتهم لا تحتل ولا تستحق العمل بعد هذه الحرب إذا أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التي تدمر ما عمروا وعمر الناس ...

من بصدق أن أوروبا البانية العالمة المعمرّة المخترعة العابدة للحياة ، الساعية الجاهدة في سبيل الكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض وركازها ، الرائدة السكافة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل العليا بين الأقوام المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة للتجارات والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلكى والراديو والتلفزيون ، الرسالة « المرسلين » لهداية الوثنيين ، الدارسة الأنواع والأجناس ... هي هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النور والأسود ، القاسية على النساء والأطفال والضعفاء ، المقتنة في وسائل الآلام ، الهدامة للدور ، الحيلة عمار المدن إلى خراب القبور ؟ !

الأجسام العاجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !
الوجوه المشرقة البضاء ، ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ، ذهبت قرايين تأكلها النار باختيارها !
مسكينة ! طافت في جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر « والذهب

الأسود » والحديد ، ثم أوقدت على الجميع في النار واحترقت معه !
جمعه في أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لئلا البطون الفارغة
وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن
لئلا أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العالة ، تتهرق
الآن على مشهد من الزنوج والإسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدي بنائها ومقيمى صروحها العالية ، وجامعى مواد
بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم في
المعامل والمعاهد !

العادة اللعوب الفاتنة ، ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار
واللؤلؤ والديباج « والمانوكير » ، تتكشف عن العجوز الشوهاء الدرداء
المريضة الرسحاء ، ساكنة الكهوف والمغارات ، الضاربة على الدف
لشن الغارات !

الأم العاقلة العالة ، تصيبها جنة وجهالة فتأكل بناتها وبنيتها !
لندن وبرلين يُصبُّ عليهما الخراب والدمار صبًّا يُبَاد ما فيهما من
مراكز نمو الحياة و« عُلْب » أسرارها « وقماقم » أجنتها وولائدها ! ...
والإنسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ في القارة السوداء وأواسط
الثبَّت ترى هذه الإنسانية العالة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة
بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحياة في الغابات
مع الأسود والقرود التي لا تلتقم منها إلا أفراداً !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما
صنعتم من العقاقير والأقرباذين ؟ !

كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة في لندن وباريس وبرلين ،
وننسى نهاية رحلتنا فيها غرباء عابري سبيل ، لانملك المسكث ولا البقاء ،
ونخضع لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تُشبّه
الطفل وتشيب الصغير وتغنى الكبير وتلقى بنا إلى المجهول ..

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوروبية القوية الجميلة الرقيقة
الرشيقة الذكية هي الإنسان المقصود بالحياة .. وأما من عداها « فحيوانات
بشرية ! » — كما تعبر الهتلرية — ومخلوقات تكميلية خادمة لها ، تعيش
على هامشها ، وتسير في خدمتها ، وقُبِّح اعتقادنا في أنفسنا تبعاً لذلك ،
حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً ، وخليّنا لها مكاننا من الدنيا ...

وكنا اعتقدنا أن « عناوين » النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها
البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الإنسان الأوروبي مقدس لدى نفسه
وأُممه ، فلا تحطيم لدنياء ، ولا نسف لنظم حياته ، ولا تمثيل به ، ولا سحق
ولا نثر لأشلائه ...

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادى الدقيق ، الذى صار التنويع فيه
والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد
والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة ، منفصلة عن روح الحياة فى
الإنسان ، فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخابة بدون وعى ووداعة وإحساس

من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الواهمة ، وصححت أفهامنا
الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخجيل ، فإذا بنا
نعود ، وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعاني الأزلية الخالدة
التي بزغت من قلوب أنبيائنا ، واستقرزوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب
الحياة الذي وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار ...
وإذا المثل العليا يعود ذكرها إلى الأسنة والأقلام ، يرددها الساسة
وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عبّاد الأوثان
بالبیان الساحر والحجج الأخاذة ، والإذاعة العريضة الواسعة .

وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة ، تنبعث من جميع بقاع
الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً ، وتزيد كل أمة في طنبورها نعمة ...
وإذا النظم الأوروبية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب تحت حرارة
أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة ، وتمت نيران هذه الحرب التي
انتقمت شر نعمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة .

وإذا بالروح الإنسانية الوديمة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود
في جو مخضّب بالدماء ، مُندّى بالدموع ، مطرّز بالآلام ، إلى القلوب
المهجورة القاسية السكافرة ، كما يعود طير شارد تائه إلى عشه المهجور ،
ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خرباً منشور الأعواد ، عبثت به الرياح ،
وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضمّ عوداً إلى عود وورقة إلى ورقة

ويرفرف عليه بجناحيه ، حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ،
ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين ...

وفي هيئة أكثر الإنسان الأوروبي الحالى وسلوكه سمات غنى
عن الله ، وقسوة على عياله الضعفاء ، وتكبر على الفكر فيه ، ونسيان
ذكره وقت الأعمال والاحتياجات ، وجحود لتدخله فى الأمور . كأن
هذا الإنسان مخلوق هكذا بدون خالق ، أو كأنه خلق نفسه ، وكأن
هذه الدنيا ذات الرحاب الواسعة ، والقوى الجبارة التى ليس للإنسان فيها
من شئ ، خلقت بيده ، فهى مملوكة له ، لا تأثير فى نفسه تطلعا وخوفا من
القوة المسيطرة عليها !

وقد غرهم أن ذكاهم ضمن لهم تحقيق بعض الآمال والمطالب فى
بيئتهم المحدودة : الأرض ، تلك الذرة الصغيرة فى الكون الواسع ..
ومن العجيب أن كثيرا منهم وهم فى نيران هذه الحرب وأهوالها ،
لا يذكرون الله كثيرا ، ولا يتطلعون إليه وفى أعينهم دموع ، وفى قلوبهم
قذائف ونصال !

إن كثيرين منهم جحدوا الله ونسوه ، ونسوا أننا لم نخلق إلا لنعرفه
ونعرف شئونه الكبرى العظيمة فى الطبيعة ، فشغلنا عنه بأنفسنا
وشئوننا التافهة .

وإنك لتعجب كيف يأتى الغرور إلى عقول بعض العلماء من الغربيين
حين يخيل إليهم أن علمهم ميزان يزنون به علم الله .. مع أن علمهم قد أخذوه من

بعض صنع الله . . !

ولكن ذوى الروح الدينية الشرقية أيقنوا مبدئيا أن ذات الله أعظم وأوسع مما توحيه الطبيعة وعلومها . . ثم قالوا إن الطبيعة فيض من الله ، وإنها قاصرة عما عنده تعالى من الكمالات والعلوم ، وإنه إن شاء خلق غيرها أعجب منها .

فإدراك الله يعتمد على قوة الحكم والإدراك النفسى ، ولذلك لا يكون خاضعا للعلم المادى وحده فى صلب القضية ؛ وإنما فى حواشيها : أى من ناحية زيادة الاطلاع على دقائق فعله فى الطبيعة ، فيزيد إعجابنا بصفات علمه وقدرته .

فلنذكر دائما حينما نكون أمام منظر ما ، أو مع إحساس نفسى من علوات الدنيا وسفالاتها ، أن عين الله وفكره معنا ، وأنه يرى ويسمع ما نرى وما نسمع ، وأن علمه وقدرته بما نعلم وما نقدر على أن نعلمه ، سابقان على علمنا وقدرتنا .

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها ، ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتهما ، فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف ، وتركوا الجانب الآخر . وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحاييه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها .

فمن يدع ثغرة فى بناء الحياة من غير سدها ، أو شك أن يدخل منها

إلى البناء ما يأتي عليه من القواعد ، ويجعله خاوياً على عروشه .
وكان جديراً بالإنسان الأوربي الذي يعرف حجم الميكروب الصغير
وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه
عليه ثغرة من ثغرات جسمه ، أن يعرف أن للحياة الروحية جرائمها
الفتاكة ، فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جرائم الأجسام ،
حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار .

ولكنه لم يعرف بعدُ الجرائم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش
في عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش في عصر الخرافات في
طب الأجسام ...

ولا يزال يسخر من أطباء الأرواح وعلاجاتهم ، كما كان يسخر من
أطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم .
فإلى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به ، سيمظل شقيماً
بتلك الأمراض التي هي أشد فتكاً من الطاعون والسل والجذري وغيرها
من الأمراض التي تهدم الإنسان وحده ، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه
ومبانيه وأمواله .

فمن أعراض أمراض الروح ، تلك القنابل والصواعق والخرائق
التي تترك المدن التي صبت فيها جداول المدنية والعلوم ، والتقت فيها
الحضارات وثمار الجهود المشتركة ، خراباً ودماراً كأن لم تكن بالأمس .
ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك
الدجالين المشعوذين ، والأغبياء المحدودين الذين قديمتلون النفوس بالعلاج

الخاطئ ، أو يفلقونها دون رحمة الله ، أو يصيبونها بعاها ، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال ، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندستون بين أطباء الأجسام من قبل ، حتى يستقيم علاجه على أيدي الإخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير .

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثرة ، بل ينبغي أن يكونوا قلة ؛ حتى لاتصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف . ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و«الشهادات» بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة ، والقدرة على إدراك الداء في كل نفس ، ووصف العلاج .

إن رجل الروح والاجتماع وحده هو الذي يوجه المجتمع ، فواجبه أن يأخذ بمقاليد العلوم وفنون الحياة جميعها ، ليدخل على الناس بالعظة والتذكير من آفاق كل نفس ، علماً منه أن كل نفس تأخذ منطقها وأحكامها من الأفق الذي نشأت فيه وارتضته لحياتها .

ولذلك كانت مهمة رجال الروح والاجتماع أعظم من مهام غيرهم ، ولا عجب ؛ فهم الأوصياء على القطيع لو عرف مكانهم ... ولذلك أتمنى أن يكونوا دائماً أذكي الناس وأرحبهم قدرة واطلاعا .

وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق ، وأن تكون وسائل العلاج هي ماصح من مواريث القديم ، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث . أي أن يكون علم النفس هو وسيلة التربية الروحية والدعوة إليها ، كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدي

الحديث . وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان في المخاير والمسابير ، ويقيس مافيه بأرقام !
إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نعمة من الإنسان الذى لم يقم لها بعدُ وزنا . وإنه لجهل وصفه ألا يظن الإنسان الأوربي بعد إلى أن يحمى نفسه من غضبها ونقمها كما يحمى من غضب قوانين صحة الأجسام .

إنه يخشى أن يمد يده فى النار لئلا تحرق ، أو يلقي نفسه فى الماء لئلا يغرق ، أو يقف فى طريق قاطرة لئلا يسحق ... ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيُسرَق ، وأن يشرَّه فيُكرَّه ، وأن يستبد فيُحارَب ؛ وأن يُخلَّ موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين ، وأن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيمرضوه ويُسْقُوا أحياته بشقائهم ..
كلمةٌ يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد ، وهى :

إن الدولة كائن عضوى واحد كالجسم الواحد ذى الروح الواحد . .
فإذا سمح لشيء منه ، ولو كان ظفراً ، أو منبت شعرة ، أو خطرة نفس ، أن يدخله الفساد ، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه .

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك ، حتى لا تنتقل عدواه إليك ، واشترك فى إطفاء الحريق فى بيت جارك ، قبل أن تمتد النار إلى دارك !

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ونود أن نقدم لهم عبقرية الروح ، وأن نريح أرواحهم كما أراحوا أجسامنا .

إنهم استغفوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير
أمورهم كلها ، فيما يخيل إليهم ، مع أن الواقع أنهم في شَبَكَةِ الأقدار العليا
والتدبير الشامل لحياة الأرض والسكون . والرجل الذكي غنى بالحِيل
وتجدد الأفكار . والغنى يبعث دائماً على الطغيان . ومن هنا أتى الغربيون
ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده .
وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ندى أمه ورعايتها ، ويعلو
مستواه البدني والعقلي عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا
لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب النفسى ،
وإذا كان ينسى أنه قطعة قُذِّت من جسمها وقلبها ، وأنها الوَشِيجَةُ الوثيقة
بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة .

وكذلك ينسى الإنسان الذكى عجزه أمام قهر رب الطبيعة ، ويستغنى
بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها ، فيصير مخلوقاً يكاد
يكون لاصلة بينه وبين مافى الطبيعة من موجودات تسير طائفة
بالإلهام والتوجيه .

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن
الرحمة والمدالة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى إليها
ببأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات
القلوب وأصوات الضمائر ؟

إننا إن تركناهم وتبعناهم على الخير والشر ، فسوف نكون فرائسهم

وَجَزَرَ سَيُوفَهُمْ ، وَطَحَنَ طَوَاحِيَهُمَ الْحَدِيدِيَّةَ الْحَرَاءَ !
فلنذكرهم بمبادئ الطبيعة أُمَّنًا وَأُمَّهُمْ ! تلك المبادئ التي فيها
من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من
غير ضابط من هدى الروح .

وإن الطبيعة لتذكر أبناءها دائماً بوصايا الحق والعدل ، كما تذكر
الأم البسيطة أبناءها الأذكاء بوصاياها وعواطفها التي بنت عليها عُشَّهَا .
فهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فإنهم يتوحدون حين يقفون بين
يدى الطبيعة ، ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها .

ومبادئ الأمومة ، وجوُّها ، وبساطتها ، وعدم تكلفها ، والحنينُ
إليها ، والشوق إلى مهدها ، يجب ألا تنسى ؛ لكي يعيش الإنسان باراً بريئاً
عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم في خدمة الحياة .
وكما يوصف الرجل الذي يهجر أمه بالعقوق واللاؤم والنذالة مهما كانت
هي بسيطة جاهلة ، ومهما كان هو فائق العقل واسم العلم عريض الجاه ،
كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الطبيعة : تلك الأمُّ
الكبرى ، أو حين يؤذى أو يهمل إخوته منها !

هـ

أما بعد...

متى النُّور يا ظُلُمات !

مع النور الصادق — الظلام الفاسل من النور الكاذب — الفتنة بعقريات
الظلام — تفاؤل وأسبابه — ابتداء دورة زمنية — تأويلات —
الكلمات الحمراء تهيج القطيع الوديع — مات البيت فليحي الحى ! —
تدريب عنيف المستقبل مجهول، — الحياة تنقل أقدامها إلى المجهل —
لندن هدمها الإنجليز لا الألمان ! — هل وعى الإنجليز العرس ؟ — هل
ينسى الأمريكان كما نسوا من قبل ؟ — رسالة الأمم الناطقة بالإنجليزية —
رسالة مدخنة للعرب أمة المستقبل

«أما بعد» فقد أطبق الظلام في هذا الحرب على جميع آفاق الأرض ...
واختفى النور الصناعى الذى كانت الإنسانية تتسلق عليه إلى سُبُحات الجمال
الموقوت والفن الفانى والطمأنينة الكاذبة ... وارتدت الأحلام السعيدة
إلى واقع الشجن والألم والانتكاس ، فعانقت أشباح الكهوف والمغارات ،
وصارت قلوب بنى آدم أوكاراً لمخلوقات شنيعة شوهاء ، هُنَّ بنات الظلام
والعذر والخيانة والجريمة والخديعة !

ولم يبق للإنسانية غير ينابيع نور الطبيعة تَسْتَضِيحُ به ... لم يبق
لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم ... ولم يبق لقلوبها غير نور «النور»
قبل الأزمنة والدهور ... ولم يبق لأفكارها غير مبادئ الحق الواضح
فى الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البراقة التى رددتها منابر المعاهد

والجامع ومجالس الترف العقلى ، فقد اختفت مع اختفاء الأنوار الصناعية التى أوقدتها الأيدي المظلمة النجسة التى لم تتطهر بنور الله ، وقد طارت بكتبتها وسجلاتها قذائف الحديد والنار

تُرى : هل تكون أمواج هذا الظلام لئوفاً يغسل الأرض من ذلك النور الصناعى المذاس المدخول الذى لم يجر من منابع الحب ويد الله ؟ وإنما من يد الشيطان الذى طمس وجه الحياة ، وجعلها فى نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و « الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود » ؛ ثم أغرامهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكمضون تراكمض الذئاب بالأظفار والأنياب فى عصر المعجز والقصور ، وبالقياصيل والمناصيل فى بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرارات فى عصر بلوغ الأشدّ واكتمال السلطان ؟

أم أن القلب البشرى لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويبقى إليه ويأنس بسكانه ، ويرى فى عالمه عبقریات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنیات الجنس ، وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء ، عقائد مقدسة يفلّسف لها وتصطنع فى حبها ترانيم وأناشيد ، وتقدم لذابحها قرابين من اللحوم البشرية ، ولجاسرها بخور وعطور من الأموال والمقتنيات ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فقلبي تغمره موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للإنسان . وظنى أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر أبلج وضاح ، يغمر آفاق الأرض غمراً طويلاً . كما غمرتها هذه الظلمات طويلاً ... لأن

قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لا ينفكّون يرددون على أسماع الأمم
التي في أيديهم أزممتها ومقاليدها ؛ أنهم يحاربون في سبيل خالق عالم إنسانى
عادل سعيد هانىء بعد الحرب ؛ فإذا حدثت القواد نفوسهم أن ينجسوا
بمعهودهم وينقضوها ، فإن المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها
ومنكوبيها سوف ينفكّون بهم تنكيلاً ، سواء أ كانوا منصورين
أم مخذولين ، لأن الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب لا تغتفرها الشعوب
إلا إذا رأت أنها أسلمت الناس إلى عالم أسعد وأكمل من العالم الحالى ،
ولأن الحياة الاجتماعية لا تحتل حرباً كهذه الحرب التي تدمر الإنسان
مع ما أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا
الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء ... ولأن حرباً بعد هذه الحرب
لا بد أن تكون أدهى منها وأمر ، بحيث تسحق « براعم » الحياة المدنية
وأصولها سحراً لا يبقى ولا يذر ، بما وصل إليه هذا الإنسان العجيب
وما سيصل إليه في فترة السلم التي تعقب هذه الحرب .

* * *

ويخطئ من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدى بين
بنى البشر ، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم
تحب الحرب للحرب ، وتمجدها لا شئ إلا اندفاعاً وراء تلك الغرائز
والحركات التاريخية الموروثة ... إن من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة ،
لاتزال تعيش في حدود النظرات الأولى للإنسان .
إن هذه الملحمة الكبرى تحول عميق أصيل عظيم في توجيه الحياة .

الحياة الخاصة للأمة الواحدة ، والحياة العامة للأمم جميعاً ... فلنتيقظ لهذا ولنؤمن به ، ولنعمل له .

وإن القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقل الإنسان وقلبه وجسمه بعد هذه الحرب الحطمة الضروس التي تهدم مثل العالم القديم الضيقة بمثلها وأفكارها الحرة ، كما تهدم مبانيه ومخلفاته بالديناميت .

وماهى ذى مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والمنقضة والمترنحة والشراعية والمهابطة ، وصواريمها وأبواقها وأنفاسها فى الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها فى قاراتها الخمس وبحارها السبعة ، ومن وراء كل أولئك عقول جبابرتها وأساطين علمائها ، ومعاملها الساهرة ومناجمها الحافرة ، ومحادثاتها السرية والجهرية ، ومؤامراتها والدماء والأرواح المبدولة فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء ، والعروش المقوّضة والبصايج والمقاليد المحطمة ، والحديث عنها بكل لسان ، وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج .

ألا إن الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب إلى المجهل ، حينما رأت أن كثيراً من بنينا لم ينهضوا بعد من سراقدهم فى الكهوف والغابات لمشاهدة مواكبها الحديثة التى دقت نواقيسها فى الآفاق ، ولم يشتركوا فى حمل قوائم عرشها العظيم الذى من لم يره ويدرك أسرارها ، لا يمكن أن يقال عنه إنه ابن زمانه ، وإنه حقق الغاية المنشودة من إخراجه للحياة فى زمن بعينه .

ولما رأت أن نورها في دَوْر السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون في الظلام والجهل ، حوت ذلك النور إلى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأترة الأنانية التي ما عرفت قصد الحياة من وضع مصابيح النور في أيديها وخانت أمانات الاستخلاف ...

فمن الذي لا يستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة النكراء ، ويسرع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوي الصحيح ، والفكر اللطيف اللامح العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !

* * *

وإذا أعرضت الإنسانية ونسبت آلامها الحاضرة وبؤسها وشقاءها بهذه الحرب ، وتركت الأنظمة الجائرة العاشمة المغلوطة تتحكم فيها ، فويل لهاثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعتسا للسكتوين بنار الحرب من العمال والصناع والجنود إن لم يقفوا في وجه اللاعبيين بالشعوب !
ما أجل إخاء العالم الإنساني ! وما أقرب به في القلوب البريئة من أكثر الناس ! لولا الذين يُؤرثون في صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد وإثارة الذكريات الجاهلية ، والخيلاء العسكرية ، والألوان الدموية المهيجة !

إن الثيران تظل هادئة مستأنسة ، حتى يثيرها مشير باللون الأحمر فيحولها إلى وحوش فاتكة .

وكذلك قطعان ابن آدم ، تريد الهدوء والاستئناس ، حتى يثيرها مشير

بالكلمات الحمراء ، والحساس الكاذب ، وحب الشهرة عن طريق الحرب
والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم
والعمران وإضافة شيء إلى بناء الحياة .

* * *

وما أعظم خسارة الإنسانية في أبناء السلم الذين ذهبوا في ضحايا
هذه الحرب

إنهم إنسانية عالمية عاملة مدربة ماهرة ، كانت قد نجت من عوامل
الموت والجهل والجفوة ، وتعبت في تربيتها ثقافات السلام التي استُحدثت
بعد الحرب العظمى الماضية .

إنهم ثمار كبيرة نمت في جمال وصحة ، ولكنهم الآن يموتون في جفاف
الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج القاعز والهواء المُخلخل ،
وتحت أثقال الحديد ، وبين صمق القذائف ! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش
الفلوات وأسماك البحار ، وتتساقط أعضاؤهم بين رُكام الثلوج ، كأنهم
عصف مأكول أو هباء منثور .

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب ، حين تُفقدُ العناصر
العالمية العاملة الفتيّة فلا توجد إلا بعد حين !

ولكنهم قربان كان لابد من تقديمه في سبيل مطلب عظيم !
وقد مات الميت فليجي الحى !

* * *

وما أعظم ماتحتمل أعصاب البشر ! إنهم برهنوا على أن أرواحهم

أقوى من الفولاذ والديناميت ؛ إذ رضوا أن يَغْدُوا وَيَرْوَحُوا على مواقع
هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطعمون وَيُنشِدُونَ ...
وإذ رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم ، وتذسف أطفالهم وحبيباتهم .
ذلك تحرر وانطلاق في سبيل العزة وصيانة العقائد .

أين صور الأهوال ووقعها في نفوس الناس قديماً ؟ من كان يظن أن
يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواصف كل لحظة من السماء ،
وهو مع ذلك يأكل وَيُبَاعِلُ ويرقص ويفنى ويقتنى الأموال وينشد
الرِّفَاء والأطفال ؟ !

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم في ساحات هذه القيامة ؟ !
ما أوثق ما ربط الله الإنسان بالأرض !
هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال ؛ لأنها هي التي
صنعتها ولذلك لا تخشاها .

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذي بدا من النفوس البشرية
تحت آلام النار والحديد ، تدريباً لها من الأقدار العليا ، وإعداداً لمستقبل
مجهول ستحتل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التي تحول بينها وبين
علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !

ألا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول المتحاربة في
اختزال الأبعاد والمسافات وافتحام العقبات ، إنما هو حَبْوٌ على عتبات باب
من الانطلاق والتحرر ؟

ألا إنها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية المثارة المتحركة

بالحياة للتجدة ، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته !
ألا إنها القوى التي طال سجنها وكُوِّنَها في صدر الأرض ، وجدت
سبيلها إلى الانطلاق والظهور على يد الابن البكر للأرض !
ألا إنها جنٌ خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقة من سجونها
في التراب ! .
أطلقها يد الإنسان الذي لا يزال ذاهلاً عما يصنع ، ذهول النحل عما
تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

هذه الحرب عملية هدم ماعلى الأرض وما فى نفس الإنسان ليحدث
الله بعد ذلك أموراً ... وقد غمرت موجتها كل البقاع . استيقظ على
قوارعها سكان خط الاستواء فى مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضى
الثلجية البيضاء وسكان ما بينهما ، وسكان الجزر النائية المنشورة فى المحيطات ،
وامتزجت منهم جميعاً فى جميع البقاع مجموعتان من الجيوش تقايل كل منهما
فى سبيل غاية واحدة .

وابن الأقدار تحررهم من التاريخ السيئ و « تصفى » ميراث
الشراة والحقد .

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم ، هدمها الإنجليز لا الألمان !
تحرروا من حبها وقدموها دون حُرِّية نفوسهم وعقائدهم فى الحياة . واعلمهم
قد تذكروا بعد أن خَوَّتْ مدينتهم على عروشها أن النفس هى الباقية ،
أو هى الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة ، وما عداها ففداء
لها . وتلك حقيقة من حقائق الإيمان كان الإنجليز قد أوشكوا أن يفقدوها
حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الإمبراطورية قروناً طويلة .

ولعلمهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب خاضع لهم يجب أن تكون أعز عليه من كل شيء بعد أن هددت حرينهم من عدو جبار ، وكانوا قد نسوا ذلك أيضاً في تلك الفترة الطويلة التي حكموا فيها أمماً ولم تحكمهم أمة . ولعله يكون لعلمهم وتذكركم هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان ، أكبر الأثر في عملهم على إقامة عالم سعيد على أنقاض القديم . وإذا نسي الإنجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب ، فيرجو العالم ألا ينسى الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ، ونعرات القوميات المفرقة ، وسُعار الاحتكار والاستعمار .



أجل ، إن الأقدار ما كانت لتترك هذه المجموعة الكبرى من الأمم التي تتكلم الإنجليزية ومن يرتبط بها في أكثر بقاع العالم دون أن تقرب بينهم بأية وسيلة لتتخذ منهم خيرة لتقارب حديث بين بني البشر . وقد خابت المساعي لتقاربهم عن طريق السلم ، إذ عز على الإنجليز المحافظين أن ينزلوا عن كثير من تقاليد إمبراطوريتهم العتيقة ، وعن حقوق الغلبة والفتح فيها ، وكانوا أولى الناس باتباع ذلك بعد أن خرجوا من الحرب الماضية منصورين ، وإذا عز كذلك على الأمريكان الأحرار أن يسيروا مع الإنجليز والفرنسيين في نظرياتهم المحافظة ، فيرتدوا عن مبادئ عالمهم الجديد وثوراتهم العظيمة التي قضوا بها على أكثر خائز الأحمق ومواريث التاريخ السيء في القارات القديمة ، فعاشوا حياة جديدة في أرض جديدة . فكانت هذه الحرب الحالية ردّاً سريعاً من الأقدار ، وعقاباً للأمم

الناطقة بالإنجليزية لأنها أهملت وتوانت في السعى المشترك المسلح لإقامة عالم أسعد وأعدل ، وكانت — ولا تزال — تستطيع أن تنهض بأعباء ذلك العالم المنشود إن أرادت ..

و « بعد » ، فإن هذه الملمحة العظمى وعواقبها ، ينبغي أن تضعف في قلوب العرب والمسلمين عزائم الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يسرعوا فيه لإقامة الحياة العادلة السميدة التي تخدم أهداف الإنسانية جميعاً . وإهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادئ التي تقوم عليها السلامة الإجماعية والمساواة الفردية والدولية التي تنشدتها الأمم وتنادى بها . ويبدو من تفاقم مشكلات السلم التي رأيناها ترفع رؤوسها البغيضة ، وتوشك أن تعود بالإنسانية إلى سيرتها الأولى ، مع أن الحرب لم تكد تضع نصف أوزارها ..! أن العالم الأوروبي لا يزال غير راغب الآن أن ينهض برسالة العدالة والمساواة والأخوة كما يعرفها العرب والمسلمون .. فلعل الله يدخر هذه الرسالة لهؤلاء في المستقبل كما شرفهم بها في الماضي ! فليسارعوا إلى حياة الحق والعدالة والجمال التي في ميراثهم بأرواحهم وأجسامهم ومجتمعاتهم ، حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم من مبادئ وحلول للعقد والمشكلات .

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة إلى مبادئ روحهم العالمي الذي قام على أصول أديان الحق التي ارتضتها البشرية في المشرق والمغرب . « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ! إن الله قوى عزيز »

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٢٠	يعلموا	يعملوا
٩	٦	كشف	كشفت
١٨	٨	إلى عشاق	لمشاق
٢٥	٧	عقلة	عقله
٤٩	١٤	انطلاق الإنسان	انطلاقه
٥٦	١٥	فإن هناك	فإن هما
٦٩	١٢	صورا في	صورا لها في
٧٤	١٢	الفكرية المادية	الفكرية والمادية
٧٧	٣	يقيس قوتها	يقيسها
١٢٦	٢	التحدر من التاريخ	
١٥٣	١٤	تجد لها	تجد ...
١٦٨	١٦	لإثبات شخصه	لإثبات شخصيته
١٦٨	٢٠	أستخدمها	أستخدمهما
١٨٤	١	بورة	ثورة
١٩٣	١	الأفعوانية	الأفعوانية
٢١٤	١٠	هذا	هذه
٢١٤	١٠	لنبحث	لنبحث
٢١٥	١	سيذهب بها	سيذهب ...
٢١٥	٩	انطباعات قوى الكون	انطباعات الكون